المدخل
لدراسة



الدكتور
صلاح الدين عمر باشا
أستاذ في كلية الآداب
بجامعة دمشق

الدكتور
أديب باغ
مدرس في كلية الآداب
بجامعة دمشق

مطبعة جامعة دمشق

١٣٨٢ ﻫ - ١٩٦٣ م

المدخل

لدراسة



الدكتور
صلاح الدين عمر باشا
أستاذ في كلية الآداب
بجامعة دمشق

الدكتور
أديب باغ
مدرّس في كلية الآداب
بجامعة دمشق

مطبعة جامعة دمشق

١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

المدخل

لدراسة

الجغرافيا البشرية

تمهيد

كان الفلاسفة والمؤرخون والكتاب يهتمون منذ القديم بتدوين الصفات الخاصة التي تميز الشعوب والجماعات البشرية عن بعضها على سطح الأرض. فكانوا يصفون أنماط حياة هذه الجماعات وأشكال سكنها والأساليب التي تتبعها في رعي مواشيها وفي زراعاتها وصناعاتها. وهذا ما أهاب ببعض علماء الجغرافيا الى القول بأن هيرودوت hérodote (٤٨٠ ق. م) وتوسيديد Thucydide (٤٦٠ ق. م) وتيت ـ ليف Tite - live (٥٩ ق. م) الذين كانوا يتطرقون أحياناً في أبحاثهم الى نواحي الجغرافيا البشرية سبقوا سترابون (٢٥ ق.م) في هذا المضمار. وبعد ازدهار المعرفة الجغرافية في العصر الهيليني بمساهمة « إراتوسطن » ٢٨٤ ق.م و « بطليموس » ٢٠٠ م أهمل فلاسفة اللاهوت في القرون الوسطى دراسة الإنسان في تجاربه وحياته الحسية فتوقفت الجغرافيا البشرية عن تقدمها.

كما خبا نور العلم والمعرفة في جميع انحاء أوروبا غير أن العرب في هذه الفترة كانوا في مستهل نهضتهم وعنفوان فتوحاتهم التي امتدت من حدود الهند شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ومن آسيا الوسطى وجبال القفقاس شمالا الى صحارى أفريقية جنوباً.

وكان لاختلاطهم بالشعوب الأخرى أثره الكبير في نشأة الحضارة الاسلامية

وتطورها فملك العرب ناحية العلم والمعرفة وحفظوا لأوروبا تراث اليونان ، وتقدمت على يدهم العلوم المختلفة وحازوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية لما لها من صلة في تيسير أمور الحكم وتطبيق أحكام الشريعة . وقد كتب الدكتور زكي محمد حسن [1] عن الرحالة المسلمين فقال « لقد درسوا طبيعة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها واحوال سكانها وطبائعهم . وكان الحج والتجارة وطلب العلم من أهم الدوافع لهذه الرحلات البعيدة في أنحاء العالم المعروف آنئذ . فإن الوف المسلمين يتجهون كل عام من شتى أنحاء العالم الإسلامي الى الحجاز لتأدية فريضة الحج والزيارة . وكان بعض الحجاج عند عودتهم الى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها ويدونون مشاهداتهم فيصفون رحلاتهم تسجيلاً لفضلهم ، وهداية لغيرهم ولفتاً لنظر أولي الأمر الى ما يجب اصلاحه .

كما كانت الرحلات والاسفار من أولى السبل لطلب العلم في تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما نصفه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات .

وكان رجال العلم يتنقلون في طلبه من اقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين والاطباء والفلاسفة والرياضيين .

أما التجار العرب فكانت قوافلهم منتشرة في القسم الاعظم من العالم

---

(١) راجع كتاب الرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن طبع دار المعارف بمصر .

المعروف في ذلك العهد كما خاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات وازدهرت على أيديهم وأيدي التجار المسلمين الطرق التجارية بين بحار الهند والصين وسواحل أفريقية الشرقية وشواطيء البحر الأبيض المتوسط والاطلسي حتى بحر البلطيق .

وقد كتب الرحالة المقدسي بياناً بالسلع التي كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبي الروسيا والبلاد الاوروبية الشمالية ، وقوامها أنواع الفراء والجلود والشمع والقلانس والغراء والسيوف والدروع والاغنام والابقار . أما أهم ما كان يحملونه الى تلك الأقاليم فالمنسوجات بأنواعها وبعض التحف المعدنية والفاكهة وكان للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في أوروبا .

لقد كان لهذه الرحلات شأن كبير في تطور المعرفة الجغرافية لقد ساهم هؤلاء الرحالة بما كتبوا ، بالتعريف بالشرق الأقصى وافريقية وأوروبا ، أما بلاد العرب والعراق وإيران فطبيعي أن يكونوا المرجع الأساسي في دراسة وضعها الجغرافي والعمراني والاجتماعي ، الى غير ذلك ، ولم يقف اكثرهم عند وصف مراحل أسفارهم وصفاً عاماً ، بل كانوا يعنون بتقييد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة في أقاليمهم ، كما كانوا يحرصون على لقاء اعلام البلاد التي يجتازونها الى جنب تعرفهم الى طبقات الشعب المختلفة .

فالرومان مثلا كانوا يتخيلون وجود الصين ، ولكن الرحالة العرب عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطى أخباراً أيدتها رحلة « ماركو بولو » البندقي في القرن الثالث عشر الميلادي .

كذلك كان الرومان لايعرفون من قارة افريقية إلا سواحلها الشمالية أما

الرحالة العرب فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارة التي ظل الاوربيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها فلا تطول أعناقهم الى ما وراءها .

هذا ولا بد من الرجوع الى كتب هؤلاء الرحالة العرب في كل بحث عن تاريخ التجارة أو عن النظام السياسي أو التاريخ الاجتماعي أو الجغرافية البشرية لدى الشعوب الاسلامية والامم التي اتصلت بها ، فان ما كتبه هؤلاء الرحالة كنز لا ينضب معينه ، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الانسانية . وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة ، مطمئنا الى نتائج بحثه ، إذا اقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية كانت أو شرقية » .

ومن المعروف أن العلماء العرب اعتمدوا على مصنفات حكماء اليونان والهند في علم الهيئة الكروية وتقويم البلدان . فقد كان أول كتاب لعلم الهيئة نقل الى اللغة العربية من تأليف الفلكي و الرياضي الهندي براهم كبت وهو كتاب « سد هانة » ألفه عام ٦٢٨ م واصبح هذا الكتاب نواة لاول مدرسة لعلم الهيئة العربي حتى جاء عصر المأمون ، وأمر بترجمة كتاب المجسطي لبطلميوس ولما كان طريق البحث والنظر عند بطلميوس أضبط من المذهب الهندي ، مال علماء العرب إليه واستخدموه أساساً لمنهجهم [١] .

---

(١) راجع بحث الدكتور عبد الرحمن زكي المنشور في مجلة « المجلة » العدد الثالث والاربعون صفحة ٢٤ . عن «تراث جغرافيي العرب» .

غير أن جميع الجغرافيين العرب لم يأخذوا في العصور الوسطى بمنهج بطلميوس ومدرسته ، هذا المنهج الذي يجمع بين الرياضة والفلك من ناحية ، والاحصاء والوصف من ناحية أخرى ، بل تسابق بينهم جماعتان تعاونتا على تقدم علم تقويم البلدان و إن اختلفتا في المنهج . فأما الاولى فهي جماعة الرحالة الذين طافوا ودونوا اخبار رحلاتهم ، وأما الاخرى فهي جماعة الفلكيين .

وقد اتسع الأفق الجغرافي عند العرب على أثر فتوحاتهم السريعة وانتشار الاسلام . وليس بخاف أنه كان لهم على أيام جاهليتهم معرفة علمية متواضعة بجغرافية بعض أقاليم بلادهم أو البلاد التي كانوا يتاجرون معها . ولكن سرعان ما اضطر الخلفاء وقادة الحملات الاسلامية الى جمع الحقائق الجغرافية التي تتصل بالمسالك والآبار والمدن ... كما يفعل قادة اليوم ، وإلى جانب هذا اصبحت الحكومة المركزية في حاجة إلى معرفة صفات البلاد و امكاناتها في نواحي الثروة الاقتصادية . ومن أشهر الرحالة العرب المسلمين :

النضر البصري .–

لعل من أهم المصنفات الجغرافية التي ألفت خلال القرن الثامن ، تلك الرسالات التي وضعت لنفع القبائل البدوية تعريفاً للمنازل وموارد المياه والبوادي والقفار ، ومنها كتاب النضر البصري ، الذي كتبه في النصف الثاني من المائة الثامنة للميلاد وهو نازل على خراسان .

الخوارزمي .-

هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي . عاش في منتصف القرن التاسع يعتبر في طليعة الجغرافيين والعلماء الأوائل ، فقد عدّل بعض ماورد في كتاب جغرافية بطليموس ، وأدخل عليه آراء استحدثها . ومن أشهر ما ألفه رسالة عنوانها « وجه الأرض » لم يصل الينا منها سوى بعض اجزاء المتن الذي يوضح الخرائط وهو أول من رسم خريطة الأرض على أساس قياس العرض والطول وذلك في زمن المأمون .

ابن خُرداذبة .—

هو ابو القاسم عبيد الله ابن خُرداذبه ، جاء بعد الخوارزمي ، وكان يشغل منصب صاحب البريد والخبر ، بناحية الجبال وهو منصب خطير ، ومن مؤلفاته « كتاب المسالك والممالك » وقد استعان بكتابه هذا المتأخرون أمثال : ابن حوقل والمقدسي والجيهاني .

الاصطخري .-

ثم حفل القرن العاشر بطائفة فذّة من علماء الجغرافيا العرب ، بينهم أبو اسحق ابراهيم الاصطخري « الكرخي » الذي نشأ باصطخر ، عُني باخبار البلاد فبعث فيها ذلك شوقاً الى السياحة ، فخرج سنة ٩٥١ م وطاف بلاد المسلمين مبتدئاً من بلاد العرب الى الهند الى الأطلسي ، ولقي في رحلته جماعة

من العلماء في كل فن . ومن أهم مؤلفاته « كتاب الأقاليم » وهو يشتمل على حدود الممالك وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها والمسافات بينها ، مفصلا وصفه ذلك بالخرائط ، ويسميها الصور وجملتها تسعة عشرة صورة . وله كتاب ثان اسمه « المسالك والممالك » .

المقدسي .—

ويدعى شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي ، الذي زار معظم بلدان الاسلام فيما عدا اسبانيا وسجستان والهند ، وقام بتدوين ملاحظاته عما شاهده في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » الذي ألفه سنة ٩٨٥ م .

البلخي .—

هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي (٨٣٩ ـ ٩٣٤ م) . الف كتاب «صور الأقاليم الاسلامية » .

اليعقوبي .—

هو أحمد ابن أبي يعقوب . نشأ رحالة يحب الأسفار ، فساح في بلاد الاسلام شرقاً وغرباً . ودخل أرمينية سنة ٨٧٣ م ثم رحل الى الهند وعاد الى مصر وبلاد المغرب ، فألف في سياحته هذه « كتاب البلدان » .

ابو الحسن المسعودي .—

هو علي ابن الحسين بن علي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ولذلك قيل له

المسعودي . ولد في بغداد وتوفي في الفسطاط حول عام ٩٥٧ م وقد استهدف لنقدات الفيلسوف الكبير ابن خلدون ، وأشار الى عمله الخالد في مقدمته . ويحظى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » بتقدير العلماء . فهو في الواقع موسوعة تاريخية وجغرافية كتبها حول عام ٩٤٧ م وهي تعتبر من أهم مراجع جغرافية العالم الاسلامي .

وللمسعودي تصانيف كثيرة أهم ما وصل الينا منها كتاب « التنبيه والاشراف » وله أيضاً « ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور » و «المقالات في أصول الديانات » .

ابو الريحان البيروني .—

هو محمد ابن أحمد البيروني علامة فذ ، أسهم في شتي ألوان المعرفة ، فهو رياضي وجغرافي وفلكي عملاق في كل تلك الميادين ، وعبقري بمعنى الكلمة.

والبيروني أول عالم في القرون الوسطى(٩٧٣ـ١٠٤٨م). تتبع عثرات القدماء بنظر صحيح ، فأزالها بالرصد القويم ، والمشاهد الصحيحة ،وأسس تقويم البلدان على قواعد علمية راسخة . فان التراث الذي وصله ممن سبقوه كان مختلطاً بعض الشيء بالشكوك والاختلافات ، تحيط بها التخمينات ، وأما التراث الذي خلفه هو لمن بعده فقد كان خالياً من الشك والاختلاف والتخمين .وقداستخدم في جميع أبحاثه النظر العقلي الصريح والاستدلال النقي ، تلك هي الميزة الحقيقية التي امتاز بها البيروني في أعماله العلمية . سافر الى الهند وتعلم لغاتها ، وشاهد وحقق ، ثم دون كتابه الكبير « تاريخ الهند » بعد ما ألف سفره العظيم

« كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية » سنة (١٠٠٠ م) . ولم يقصر مؤلفاته على هذين الكتابين النادرين ، بل أضاف اليهما ثروة علمية أخرى ، فألف رسالة في علم الفلك وله كتاب في الصيدلة ثم صنف كتابه « الجماهر في معرفة الجواهر » .

الادريسي .—

هو أبو عبد الله محمد ابن ادريس الحموي، من اشهر جغرافيي القرن الثاني عشر ولد عام ١١٠٠ م بسبتة وتلقى العلم بقرطبة ، وتوفي عام ١١٦٦ م . قام باسفار عديدة واستقر زمناً طويلا في بلاط ملك صقلية النورماندي «روجه الثاني» RogerII في مدينة بالرم . وكان قد استدعاه، فألف له كتاب« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو الكتاب النفيس الذي نُشر بعضه مع سبعين خريطة ، وأورد فيه المؤلف صفات البلاد والممالك تفصيلا .

وقد صنف الادريسي كذلك لغليوم الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦) كتاباً في تقويم البلدان عنوانه « روضة الأنس ونزهة النفس » او كتاب المسالك والممالك .

ياقوت الحموي .—

هو صاحب المعجم الكبير المعروف ، قال عنه العلامة «سارتون»: إن كتاب معجم البلدان هو معجم لعلم الجغرافية ، وهو منجم غني جداً للمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات .

وياقوت من أشهر بلداني العرب ، تمدنا موسوعته بمعلومات فياضة عن

أحوال العالم الاسلامي قبيل غزو المغول .

بدأ شغفه بالسياحة حينما كان يقوم برحلات تجارية لسيده . ولـكنه بعد ثالث رحلة الى جزيرة كيش في الخليج العربي ترك عمله ليتفرغ للتأليف . ثم جعل نسخَ الـكتب من تجارته وبدأ يـكتب ويرحل ، فسافر الى تبريز والموصل وسورية ومصر وبعد ما استقر بعض الوقت قام برحلة أخرى الى نيسابور ... وهكذا تراه متنقلا من مكان الى آخر ليجمع مواد موسوعته الـكبيرة فأتمها عام ١٢٢٤م وتوفي في حلب بعد انتهائه من تأليفها بخمس سنوات ، وسيظل عمله خالداً ما بقيت الحضارة .

القزويني .–

هو أبو يحيي زكريا القزويني ولد في قزوين حول عام ١٢٠٤ م وتتلمذ على الأبهر ، وتولى القضاء في واسط والحلة في زمن الخليفة المعتصم العباسي وتوفي عام ١٢٨٣ م بواسط .

يعتبر القزويني في طليعة مؤلفي الموسوعات،ومن مؤلفاته التي خلفها كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وكتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » وهو يبحث في الفلك والجغرافيا عند العرب .

وقد استفاد المستشرقون كثيراً بما كتبه القزويني ولا سيما العلامة الألماني «جاكوب» فيمايتصل بالعلاقات التجارية بين المسلمين وسكان اوروبا الوسطى واوروبا الشمالية .

ابو الفداء .-

هو امير من اسرة الايوبيين ولد في دمشق عام ١٢٧٣م وكان ابوه قد فر اليها ، وقد بدأ أبو الفداء حياته العسكرية مبكراً ، فالتحق بخدمة عمه اثناء حربه مع الصليبيين . ولما زار القاهرة خلعت عليه الامارة ولقب بالملك الصالح وتوفي سنة ١٣٣١م بمدينة حماه .

وترجع شهرة ابي الفداء الى مصنفاته ، وأهمها تاريخه للعالم وكتابه في تقويم البلدان ، وعنوان كتابه الاول « المختصر في تاريخ البشر » اما الثاني فعنوانه « تقويم البلدان » انتهى من تأليفه عام ١٣٢١) وقد بحث في مقدمته في الجغرافيا الرياضية والبحور والأنهار والجبال الشهيرة ، واطال في وصف الارض ، ونهج فيه بحسب مواقع البلدان من ناحية الاقاليم ودرجات العرض والطول ذاكراً كل مملكة مستقلة في باب خاص وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية في القرن الثامن عشر .

ابن جبير .-

يعتبر ابن جبير في طليعة الرحالة العرب لقد امدنا بمعلومات طيبة في صميم علم تقويم البلدان للعالم الاسلامي في ايامه وبخاصة في تاريخ صقلية في عهد غليوم الصالح وكانت قد انسلخت عن حكم المسلمين .

وقد استطاع ابن جبير ان يقوم برحلته الطويلة خلال الحروب الصليبية . فذهب من غرناطة عام ١١٨٣ الى سبته ، ومن هناك ركب البحر الى الاسكندرية فالقاهرة ، واتجه الى قوص وعيذاب فجده ، ثم زار المدينة والكوفة وبغداد

والموصل وحلب ودمشق ، وركب البحر من عكا الى صقلية عائداً الى غرناطة عام ١١٨٥ م عن طريق قرطاجة ، وتردد على الشرق بعد ذلك مرتين . وفي الرحلة الثانية لم يتجاوز الاسكندرية حيث توفي فيها .

وكتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار » الذي كتبه مؤلفه حوالي ١١٨٦م نقله الى الانكليزية المستشرق « برودهيرست » .

ابن بطوطة .—

اما ابن بطوطة الطنجي (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧ م) فهو بحق امير الرحالة العرب ليس في القرن الرابع عشر فحسب ، بل في جميع مراحل الحضارة العربية ويعتبر كتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » خير مرآة لجغرافية العالم الاسلامي واحواله بخاصة والشرقي بعامة بل البيزنطي ايضاً .

قضى ابن بطوطة في رحلته الاولى ٢٤ سنة (١٣٢٥ ـ ١٣٤٩) منذ غادر طنجة فمرّ بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وفلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الاولى وسافر منها الى العراق والعجم والاناضول ثم عاد الى مكة وغادرها الى اليمن واجتاز البحر الى افريقية الشرقية ، وقفل راجعاً الى الخليج العربي فزار عُمان والبحرين والاحساء ، ثم قصد الهند ومر بخوارزم وخراسان وتركستان وافغانستان وكابول والسند والصين وفي عودته مرّ بجزيرة سرنديب وجزائر الهند وسومطرة ، ثم رأى ان يعود الى وطنه .

تلك هي بعض البلدان التي زارها ابن بطوطة في رحلته الاولى فقط وقد اشاد الرحالة الشهير « ستيزن » بكتاب ابن بطوطة وبفضله على العلم والادب فتساءل : اي سائح اوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ماقضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من احوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الاسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟ بل اي امة اوروبية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من ابنائها من يجوب البلاد الاجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة مالهذا الرجل العظيم ؟

ومما يدل على مكانة كتاب ابن بطوطة بين كتب الرحلات الكبرى تلك العناية التي حظي بها عند علماء العالم . فقد انكبوا على نقله الى عدة لغات اجنبية ، ونشر في عدة طبعات انيقة ومازال يعتبر الى اليوم من أهم المراجع الجغرافية ».

ثم انتقل مشعل العلم والمعرفة الجغرافية من أيدي العرب الى اوروبا في عصر نهضتها فظهر في النصف الثاني من القرن السادس عشر بعض العلماء مثل جان بودان Jean Bodin الذي علل في كتابه « الجمهورية » عام ١٥٧٧ الاختلاف بين امزجة الشعوب ونفسياتها بتأثرها بالوسط الطبيعي الذي تعيش فيه . ثم ظهر بعد ذلك عدد كبير من المؤلفات حتى اوائل القرن التاسع عشر تجمع كثيرا من المعلومات عن الجماعات البشرية المختلفة. وبالرغم من هذه المعلومات الكثيرة التي هي في الواقع مواد هامة بالنسبة الى الجغرافيا البشرية لايمكن اعتبار هذه المؤلفات علمية لان الوصف فيها كثيرا ماينقلب الى خيال وتهويل

وما هي في الحقيقة سوى خليط من معلومات ووصف لمغامرات خيالية محشوة بذكريات تاريخية ومشاهدات اثرية بعيدة عن كل تحقيق أو تعليل .

أما الجغرافية البشرية بشكلها العلمي فتعود إلى مابعد الاكتشافات ومعرفة أكثر أجزاء الكرة الارضية والى بدء الفتوحات الاستعمارية في القرن الثامن عشر حين قام بعض العلماء بسياحات واسعة جمعوا فيها معلومات وافرة عن حياة كثير من الشعوب وعن درجة حضاراتها وأدت فكرة المقارنة بين هذه المعلومات الى تنبه الفكر العلمي لأن المقارنة العلمية تخلق معنى الكلية .

وقد بين فيدال دولابلاش مؤسس الجغرافيا البشرية في فرنسا ان البحث العلمي في الجغرافيا البشرية يرجع في أصله الى اثنين من علماء الجغرافيا الألمان هما اسكندر دوهامبولد (١٧٦٩ - ١٨٥٩) وكارل ريتر (١٧٧٩ - ١٨٥٩) والفكرة الجديدة التي أتى بها هذان العالمان هي أن هنالك علاقة دائمة بين الحوادث الطبيعية ومظاهر الحياة . غير أن كلا منهما نحا ناحية في تعليل هذه العلاقة .

هامبولد بوصفه من علماء الطبيعة عني بدراسة العناصر الطبيعة كالرياح والحرارة والرطوبة والجفاف والارتفاع وبيّن تأثيرها على التشكلات النباتية والحيوانية والبشرية وانتهى الى وضع قانون الديمومة .

أما ريتر بوصفه مؤرخاً فقدأدخل في بحثه العنصر البشري وأثبت أن في أبحاث الجغرافيا البشرية لايمكن ان يقتصر في تعليل المظاهر على حوادث الطبيعة فقط وانما إلى جانب الطبيعة يوجد الانسان الذي هو ذاته عامل كبير من عوامل التطور والحياة على وجه الأرض . وانتهى بنظريته إلى ان الانسان

والطبيعة هما العنصران الدائمان للتطور وأن على الباحث الجغرافي ان يرجع اليهما معاً في كل تعليل لمظاهر الحياة على سطح الارض .

وسارت الجغرافيا البشرية على هذه الطريق منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر تحت اشراف عالمين واستاذين من أكابر أساتذة الجامعات الاوروبية فردريك راتزل في المانيا وبول فيدال دولابلاش في فرنسا . وانتشرت تعاليمهما ونظرياتهما في اكثر البلاد وأوحت لكثير من العلماء بتأليف كتب عديدة ادت إلى نشر وتعميم هذا العلم الحديث حتى دخلت أسسه جميع الاوساط العلمية والثقافية .

* * *

الفصل الأول

البحث الأوّل

الجغرافيا البشرية والعلوم المساعدة

يمكن تعريف الجغرافيا البشرية بأنها دراسة **الجماعات البشرية في علاقاتها مع الوسط الجغرافي**. ومعنى هذا التعريف أن الجغرافيا البشرية تعنى بدراسة الإنسان كمجموع لا كفرد في علاقته مع الوسط الذي يعيش فيه. ولا يقصد بذلك الوسط الطبيعي فقط وانما الوسط الجغرافي حيث يدخل فيه إلى جانب العوامل الطبيعية تأثير الانسان نفسه في تطور هذا الوسط.

يسمح لنا هذا التعريف أن نتبين غاية الجغرافيا البشرية وأن نعيّن حدودها. فهي تحتوي اربع مجموعات من القضايا تنتج عن علاقة الجماعات البشرية مع الوسط الجغرافي.

أولاً — دراسة توزع البشر على سطح الارض حسب شروط الطبيعة واستغلال ثرواتها أي دراسة انتشار البشر على سطح الارض وعددهم وكثافتهم وحركاتهم وهجراتهم. وهذا ما يمكن تسميته **بجغرافيا السكان**.

ثانياً — دراسة المؤسسات البشرية ومعنى ذلك دراسة الأشكال التي يقيم بها البشر على سطح الأرض من ابسط اشكالها كدراسة البيت او القرية حتى أعقدها كدراسة المدن والدول وهذا ما يمكن تسميته **بجغرافيا المسكن**.

ثالثاً - دراسة استثمار الجماعات البشرية لموارد الطبيعة اي دراسة انماط الحياة المختلفة للجماعات البشرية في المناطق المناخية الكبرى أو مايدعى بالجغرافيا الاجتماعية ، كدراسة نمط الحياة في المناطق الباردة والمعتدلة والجافة والحارة او في المناطق الجبلية او الساحلية وتشمل هذه الدراسة جميع ما تحتويه هذه المناطق من أنواع النباتات والحيوانات الأهلية .

رابعاً - دراسة الطرق والوسائل التي استخدمتها الجماعات البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة للاستفادة من الثروات الطبيعية لحفظ حياتها والدفاع عن كيانها وذلك منذ البداية حتى اليوم أي منذ بدأ الانسان الأول بقطف الأثمار ومزاولة الصيد البري والبحري أو العمل في الزراعة وتربية المواشي حتى اللجوء الى الصناعة والتجارة الداخلية واستخدام وسائل النقل الحديثة في التبادل التجاري العالمي . وهذا معناه دراسة تطور الحضارة عند الجماعات البشرية وهو مانسميه اليوم بالجغرافية الاقتصادية .

هذا ماتحويه الجغرافيا البشرية من ابحاث وفي نطاق هذه الاقسام الكبيرة تتوزع اعمالها . غير ان فروعاً جديدة تخرج في الوقت الحاضر من هذه الاقسام الاربع الكبيرة كالجغرافيا الجنسية وتبحث فيما اذا كان للعروق البشرية أو للاختلاط العرقي تأثير في تطور بعض الحضارات وفي حيوية السكان . والجغرافيا النفسانية وتبحث فيما اذا كان للمناخ تأثير على النفسية والمزاج . والجغرافيا السياسية وتبحث عن شكل الدولة وحدودها وقوتها وعن امكان اتساعها والدفاع عن نفسها اي تبحث عن الخطوط الكبرى التي يجب ان تتبعها الدولة في سياستها مستمدة من وضعها الجغرافي .

طريقة البحث في الجغرافيا البشرية

لايكفي تعريف الجغرافيا البشرية وفهم غايتها وتحديد ماتحتويه من قضايا وإنما يجب ايجاد قواعد ثابتة لطريقتها في البحث : وأول هذه القواعد هو رفض مبدأ حتمية الطبيعة المطلقة وذلك لان مبدأ السببية في الجغرافيا البشرية كثير التعقيد . والانسان بارادته وإبداعه سبب يدخل كثيراً من الاضطراب على ما يعتقد أنه القانون الطبيعي . فالأرض الجافة مثلاً لاتصلح للزراعة غير أن الانسان يستطيع زرعها اذا ماعمد الى ريها رياً اصطناعياً. كذلك لايستطيع الانسان أن يعيش في قمم الجبال العالية أو في الاراضي القطبية أو في وسط البحار غير أنه يستطيع الاقامة والعيش في مثل هذه المناطق اذا وجد فيها فائدة تغريه كوجود الذهب أو الفحم أو البترول أو إذا أراد إقامة قواعد للطائرات أو مراكز للدفاع . فليس هناك اذن حتمية طبيعية مطلقة وانما للانسان ارادته وابداعه يختار بين انواع كثيرة من النشاط الاقتصادي مايتوافق مع منفعته وعصره مسيراً حسب تقاليده الجنسية والقومية وحسب درجة الحضارة التي نشأ بين احضانها . ولهذا السبب ترك الفاتحون العثمانيون في القرن الرابع عشر سهول البلقان الخصيبة بيد أصحابها من أهل البلاد وتوجهوا الى الهضاب المرتفعة يعملون رعاة مثلما كانوا يعملون في بلادهم الأصلية تركستان .

والقاعدة الثانية أن لابد لابحاث الجغرافية البشرية من دراسة علاقة الجماعات بالأرض التي تعيش عليها . وهذه العلاقة بين الانسان والارض هي الفارق الرئيسي بين ابحاث الجغرافيا البشرية وابحاث علم الاجتماع . وذلك لأن

علماء الاجتماع يميلون في دراساتهم للجماعات البشرية للاخذ بالنواحي النفسانية مع اهمال علاقة الانسان بالأرض حتى كأن الانسان في ابحاثهم مجرد عن كل صلة له بوسطه الطبيعي بينما تعتبر الجغرافيا البشرية ان الارض أساس في تكوين كل جماعة . حتى ليمكن ان يقال ان الارض كلما اتسعت رقعتها ووفرت ثروتها كلما تأصلت العلاقات بينها وبين سكانها ، وكلما ارتفعت كثافة سكانها ونما استثمارهم لها كلما ازدادت هذه العلاقة وثوقاً وارتباطاً. ويقول « ساندرسون » في معرض هذه الفكرة ان القبائل التي تصطاد في أرض واحدة ينشأ بينها نوع من التضامن الاجتماعي مستقل عن قرابة الدم واقوى منه .

القاعدة الثالثة هي ان الجغرافيا البشرية لكي تكون واضحة وتعليلية لايمكنها أن تقتصر على تقرير واقع الحال الحاضرة فقط إنما يجب عليها أن تستعرض تطور الحوادث في الماضي أيضاً ومعنى ذلك الرجوع الى التاريخ . لأن كثيراً من الحوادث لا يمكن تعليلها حسب الشروط الحالية إلا بأنها أتت صدفة وعفواً من غير أن ترتبط بأي سبب، إلا أنه يمكن تعليلها حالاً اذا ماعدنا الى الماضي. ولذا ففكرة التطور والعمر ضرورية جداً وبدونها لا نستطيع في كثير من الاحيان أن نجد سبب ماهو كائن . كيف مثلاً يمكن أن يعلل ارتفاع كثافة النفوس في مقاطعة الطونكين وهبوطها في الكوشنشين مع ان التربة متشابهة في المقاطعتين من حيث خصبها وغناها . لايمكن تعليل هذه الظاهرة على ضوء الشروط الحالية ويجب في مثل هذه الحال أن نلجأ الى التاريخ والتاريخ يقول : ان انتشار السكان واستعمار الارض في الهند الصينية جرى من الشمال الى الجنوب وان الشعب الانامي لم يصل الى مقاطعة الكوشنشين الا مؤخراً . كذلك يعلل

التاريخ سبب تكاثف السكان في المدن المعلقة على رؤوس التلال أو في الفجوج المنيعة كالبتراء مثلاً بالحاجة الى الدفاع عن النفس .

اذن يمكن اللجوء الى التاريخ في سبيل غايات ثلاث .

١ً – لنفتش في الماضي عن سبب حادث لا يمكن تعليله في الحاضر بالعوامل الجغرافية فقط .

٢ً – عندما يساعدنا التاريخ على معرفة خصائص بلد ما .

٣ً – عندما نرغب ايراد لمحة مقتضبة لبلد ما في فترة معينة من الزمن وبيان العوامل الجغرافية في تلك الفترة .

وهكذا فالتاريخ يضع بين أيدينا معلومات كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية لكن المهم هو ان نعرف ما ننتقي .

طرائق الجغرافيا البشرية وعلاقتها بالعلوم الاخرى

لا يستطيع اي علم من العلوم أن ينمو منفرداً وأن يزدهر بعيداً عن مساندة العلوم الأخرى ، لأن العلوم الانسانية تتصل ببعضها ويستفيد كل واحد منها من مكتشفات العلوم الأخرى . والجغرافيا شديدة الارتباط بغيرها من العلوم بسبب سعة موضوعها (سطح الأرض وما عليه من ظاهرات طبيعية وبشرية) وتفرعها الى عدد كبير من الأقسام .

هذا ويبدو ارتباط الجغرافيا البشرية بغيرها من العلوم واضحاً فيما حدث في العصور الوسطى ، إذ تأخرت المعرفة الجغرافية في أوروبا مع تأخر العلوم الانسانية . ولم تزدهر إلا على يد العلماء والرحالة العرب كما ارتبط تقدمها في عصر النهضة بما أحرزته العلوم الأخرى من تقدم .

لقد ترتب على تقدم علم الفلك مثلاً نتائج جغرافية خطيرة . فبعد ان كانت فكرة انبساط الأرض مبدءاً من مبادىء الكنيسة تعتقد به وتدافع عنه خلال العصور الوسطى ، عادت فكرة كروية الأرض إلى الأذهان ، وكانت هذه الفكرة نقطة الإنطلاق للقيام بالإكتشفات الجغرافية الكبرى . أضف إلى ذلك أن تقدم علم الفلك ساعد الملاحين على تعيين الاحداثيات الجغرافية وساعدهم بالتالي على تحديد أماكن وجودهم ، ولو لا ذلك لما استطاع الملاحون أن يغامروا في ارتياد مجاهل البحار والمحيطات.

وكان من الضروري استخدام المصورات في هذه الرحلات ، لذلك بدأت صناعة الخرائط تتقدم وتزدهر ، وشجعت بدورها المكتشفين والملاحين على الاستمرار في اكتشاف بقاع جديدة . وخطا علم المصورات خطوة كبيرة بمناسبة اختراع المطبعة إذ تمكنوا من طبع خرائط أكثر دقة وأسهل استعمالاً . وإن كل تقدم تحرزه صناعة وطبع الخرائط يعتبر نصراً جغرافياً لأن الخرائط هي أهم الوثائق والمستندات التي يستخدمها الجغرافي في دراسته .

أما علم الطبقات الأرض (الجؤلوجيا) فهو شديد الصلة بالجغرافيا العامة ، ويشترك العلمان معاً في دراسة الأرض وتهتم الجيولوجيا بتاريخ الأرض بشكل خاص وكل تقدم في تفهم تاريخ الكرة الأرضية من شأنه أن يسهل علينا فهم الظاهرات الجغرافية الحالية التي تتوزع على سطحها . وقد ساعد علم الباليونتولوجيا على فهم تطور حياة الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ .

ومن العلوم التي تؤثر على تقدم الدراسات الجغرافية علم الأحوال الجوية أو « الميتيورلوجيا » لأن ما يحدث في الفضاء العالي يؤثر تأثيراً كبيراً على الجو

القريب من الأرض وبالتالي فان دراسة المناخ لا بد وأن تستفيد من كل تقدم يحرزه علم الأحوال الجوية .

وقد ساعد تقدم الفيزياء على قيام فرع خاص من الدراسات الجغرافية أطلق عليه إسم فيزياء الأرض ، أما تقدم الكيمياء ودراسة مركبات القشرة الأرضية من الناحية الكيماوية فقد أدى إلى ظهور كيمياء الأرض géoschimie .

كما أن تقدم الطب كان عظيم الأثر من نواحي كثيرة ، فقد قضى على الأوبئة والأمراض التي كانت تفتك كل عام على بعدد كبير من سكان العالم فانخفض بذلك معدل الوفيات ، وقد ساعد تقدم الطب أيضاً أفراد السلالات البيضاء بشكل خاص على تحمل شروط المعيشة التي كانت تسود في أجزاء معينة من سطح الكرة الأرضية وخاصة في المستعمرات المدارية والاستوائية .

وأخيراً فان تقدم التكنيك الصناعي ، وإتقان المخترعات وتعددها يعتبر عاملاً هاماً من عوامل تقدم الجغرافيا البشرية وكافة العلوم الأخرى . فالباخرة والقطار والسيارة والطائرة لعبت كل منها دوراً هاماً في حمل الإنسان إلى الأماكن المجهولة المقفرة ولعبت أيضاً دوراً كبيراً في تقريب المسافات وتسهيل التبادل .

إن الصواريخ التي يطلقها الإنسان في وقتنا الحاضر إلى الفضاء العالي . تساعد في الحصول على معلومات قيمة تتعلق بشؤون جغرافية هامة ، كالجاذبية وخصائص الجو العالي وحقائق أخرى كثيرة تتعلق بالكرة الأرضية .

وسوف يؤدي استمرار إرسال هذه الصواريخ إلى تحقيق أو دحض كثير من الفرضيات السابقة .

رأينا علاقة الجغرافيا البشرية بعلم التاريخ وعلم الفلك وعلم طبقات الارض وعلم فيزياء الارض وعلم الأحوال الجوية والتكنيك الصناعي غير أن الجغرافيا البشرية تلجأ أيضاً الى علم الاجتماع لأنها لاتدرس الانسان كفرد بل تبحث عن عمله كمجتمع. تلجأ كذلك الى علم الاقتصاد السياسي والى الاحصاءات فتنتقدها وتصححها لتستفيد منها، تلجأ كذلك الى علم الحيوان والنبات. كما وجدوا حديثاً علاقة بين الجغرافيا البشرية وعلم الآثار إذ استطاع «لافدان» أن يكتشف الطريق التي كان يسلكها التجار السوريون قديما في أوروبا بتتبع الآثار التي خلفها هؤلاء التجار في طريقهم التي كانوا يسلكونها.

ولنتساءل الآن، الا تفقد الجغرافيا البشرية طرافتها بتقربها واحتكاكها بكل هذه العلوم؟ لاشك بأن الحدود التي تفصل الجغرافيا البشرية عن بقية العلوم هي حدود كيفية غير محددة. إلا أن العلوم تتميز عادة بطريقتها في البحث أكثر مما تتميز بموضوعها. وستبقى الجغرافيا البشرية فكرة جديدة طريفة طالما هي تسعى للتفتيش عن الحوادث في الوسط الجغرافي وتحديد مكانها. وفي هذا العمل تتشكل مجموعة من طرق التنقيب والاستطلاع تكوّن لدى الباحث حالة فكرية تسمى الفكر الجغرافي أو المحاكمة الجغرافية تعمل على دراسة العلاقات التي تربط الانسان بالوسط الجغرافي. وهذا عمل لايستطيع أن يقوم به إلا الجغرافي وذلك لأنه رجل يؤلف عقدة ارتباط بين العلوم.

البحث الثاني

الاكتشافات الجغرافية الكبرى

إن معلوماتنا الجغرافية عن مختلف اجزاء الكرة الأرضية هي حصيلة جهود بشرية طويلة وشاقة تتالت عبر العصور المختلفة .

لقد جاءت الجهود التي بذلها البشر متناسبة مع اتساع سطح الكوكب الذي نعيش عليه ومع تعدد وتشابك الظاهرات الطبيعية والبشرية التي تتوزع على سطحه ، ولم يكن مجرد التعرف على مختلف اجزاء الكرة الارضية كافياً لتقدم وتوسع علم الجغرافيا بل كان لابد من تصنيف الظاهرات ودراسة توزعها وتفسيرها وتنسيقها بغية الحصول على معلومات تشكل كياناً علمياً قائماً بذاته .

لقد اعتاد الباحثون وخاصة الباحثون الغربيون ، على أن يقصروا الاكتشافات الجغرافية على تلك الاكتشافات التي قامت بها الشعوب التي تعيش في أوروبا وعلى ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط . والواقع ان كل الشعوب المختلفة وفي كل أجزاء الأرض ، سعت منذ أن وجدت ومنذ أن تكاثرت ، الى التوسع والبحث عن ثروات جديدة ، فكانت بذلك تعمر مناطق غير مأهولة وتستثمر خامات جديدة وتستقر الجماعات في البقاع الجديدة فتتوسع بذلك البقعة المسكونة بصورة مستمرة . وقد أدت هذه الحركة البشرية المستمرة الى تغيرات كثيرة في توزع السكان على سطح الكرة وفي تغير

الكثافات . وكانت الجماعات البشرية القوية تستولي في تنقلاتها على بقاع وأرض الجماعات الضعيفة كذلك فعلت الدول فيما بعد اذ كانت تستولي على البلاد ذات الخامات والموارد الاقتصادية بصرف النظر عن ارادة ورغبة الشعوب صاحبة الحق في الأرض ونشأت على هذا الاساس الامبراطوريات الاستعمارية الواسعة .

وعلى هذا فسندرس فيما يلي الأسباب الدافعة لهذه الاكتشافات والصعوبات التي لاقتها والمراحل المختلفة التي مرت بها عبر العصور التاريخية إلى أن اكتسب علم الجغرافيا البشرية مفاهيمه وحقائقه الحالية عن علاقات الجماعات البشرية بسطح الأرض .

— الاسباب الرئيسية للاكتشافات الجغرافية :

إن رغبة قوية دفعت الأشخاص والشعوب بصورة دائمة نحو الاراضي الجديدة ، واذا نحن حللنا هذه الرغبة وجدنا فيها بعض النزعات البشرية العميقة كالنزعة نحو تأمين اسباب المعيشة ، واكتساب القوة ، والرغبة في الاطلاع على كل ماهو خفي وجديد . ولقد اتخذت هذه النزعات أشكالا مختلفة تبعاً لاختلاف المجتمعات والعصور .

هذا ويمكننا أن نصنّف الدوافع الأولى التي حملت المكتشفين الى البقاع المجهولة على الوجه التالي :

١ً — الدافع التجاري : كانت الرغبة في الكسب التجاري دافعاً لايجاد بلاد وأسواق جديدة لتأسيس مستودعات ومخازن للبيع والشراء في تلك البلاد

التي تختلف بمناخها ومحصولاتها عن مناخ ومنتجات البلاد التي خرج منها هؤلاء المستكشفون ، ومن الامور المعروفة أن البحث عن طريق تجاري جديد يوصل أوروبا بالهند بلاد التوابـل والغلات المدارية هو الذي ادى الى اكتشاف جزر الانتيل (الهند الغربية) فأمريكا .

٢ — الدافع الاستعماري : بحثت شعوب معينة (الدول الاستعمارية) عن أراض جديدة بغية استغلالها إما لتأخذ منها حاجتها من الغلات التي لاتوجد في بلادها الاصيلة بسبب اختلاف المناخ وإما لترسل اليها الفائض من السلع ومن السكان الذين تغص بهم ارض الوطن الضيقة .

لقد استعمرت انكلترا الهند لتستفيد من محصولاتها المدارية التي لا يمكن انتاجها في الجزيرة بشكل من الاشكال . أما استراليا فقد استعمرتها بريطانيا لترسل اليها المحكومين والمجرمين في بداية الأمر ولكنها مالبثت ان تحولت الى مستعمرة إسكانية استقبلت عدداً كبيراً من سكان الجزر البريطانية .

٣ — الدافع الديني : كانت الرغبة في نشر الدين في المناطق النائية المجهولة الدافع الرئيسي لبعض المكتشفين . وكانت هذه الرغبة التي تجلت في بداية الأمر بصورة فردية نقطة الانطلاق في سبيل تشكيل البعثات التبشيرية ، وخاصة البعثات التي كانت تبشر بالديانة المسيحية ؛ إن الآباء اليسوعيين الاسبان هم الذين اكتشفوا جزر الفيلبين ، وتوغـل الاستعمار الفرنسي الى الصحراء الافريقية الكبرى عن طريق الآباء البيض Pères - Blancs كما امتد الاستعمار الى افريقية السوداء عن طريق المبشرين الانكليز من البروتستانت ومن اشهر هؤلاء المبشرين Livignstone الذي اكتشف افريقية الوسطى والجنوبية .

٤ً — **الدافع الانساني** : الى اجانب الدافع الديني كان الدافع الانساني احياناً غاية المكتشفين على ارتياد المناطق المجهولة ، فقد كانوا يسعون للقضاء على بعض العادات التي لاتليق بالطبيعة الانسانية كتجارة الرقيق وأكل لحوم البشر.

٥ً — **الدافع العلمي** : ولقد لعب الدافع العلمي دوراً كبيراً في اكتشاف بقاع كثيرة من الارض ، وكانت غاية المكتشفين ايضاح الحقائق العلمية كاكتشاف البقاع القطبية بشكل خاص ، تلك البقاع المقفرة الباردة التي يصعب على الانسان تحمل الشروط الطبيعية فيها غير أن هذا الدافع لبس اليوم ثوب المصلحة الاقتصادية والستراتيجية .

— الصعوبات التي صادفها المكتشفون :

إن الرواد الأشداء من المكتشفين الذين أخذوا على عاتقهم ازاحة الغموض والأسرار التي كانت تكتنف بقاعاً كثيرة من أجزاء الكرة الارضية قد صادفوا عقبات كثيرة وصعبة منها :

١ً — العقبات الطبيعية : وهي كثيرة نكتفي بتعداد بعضها :

المساحات البحرية والمحيطية الواسعة التي لم يكن من السهل اجتيازها ، الكتل الجبلية الضخمة ، الصحارى الجافة المقفرة ، الأنهار الكبيرة ذات الجريان السريع والتي تعترض مجاريها الجنادل والشلالات ، الحرارة الشديدة في المناطق المدارية والاستوائية ، البرد الشديد في المناطق القطبية ، الغابات العذراء التي لم يكن من السهل التوغل فيها ، الحيوانات المفترسة ، الأمراض الفتاكة المتنوعة .

٢ — العقبات البشرية : اللغات واللهجات المحلية المجهولة ، العادات والتقاليد المحلية ، عداء الشعوب والقبائل للمكتشفين،عادة أكل لحوم البشر، كره الأجانب ، الغيرة والحسد ، التنافس الاقتصادي والسياسي .

هذا وقد تغلب الانسان على الصعوبات الطبيعية بفضل ما حققه من تقدم فني في طرق ووسائل المواصلات ، وفي ميدان حفظ الصحة والوقاية ومن سيطرة على الطبيعة ، هذا بالاضافة الى ما كان يتحلى به المكتشون أنفسهم من صفات الجلد والصبر ، والمهارة وشدة العزيمة .

ومن أجل التغلب على هذه العقبات البشرية اضطر المكتشفون أن يلجأوا حيناً للسياسة وأحياناً للخديعة او السلاح، وكان عليهم أن يتصرفوا ، حسبما تمليه عليهم الظروف التي تحيط بهم . لقد سجل التاريخ معظم الاكتشافات الجغرافية باسم المغامر أو البحار أو القائد أو المهندس أو العالم الذي كان له سبق المبادهة أو القيادة ولكن هذه الاكتشافات ليست في الواقع من عمل الفرد بل نتيجة عمل وتعاون جماعيين . صحيح أن رئيس البعثة هو الذي درس ونظم وقاد حملة الاكتشاف ، ولكن هذه الحمله ما كانت لتحقق غايتها لولا روح الحماس والتضحية التي أبداها كل أفراد البعثة .

الاكتشافات الجغرافية حتى القرن الرابع عشر

١ – شهدت العصور التاريخية القديمة ازدهار حضارات بشرية متعددة ومع ذلك فإن البقعة التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط وأوروبا من سطح الأرض كانت محدودة، وكانت الشعوب التي تعيش على أطراف حوض البحر الأبيض المتوسط أسبق شعوب العالم على ادراك حقيقة اساسية هي أن العالم لم يكن مقصوراً على البقاع التي يعرفونها ولذلك عمدت هذه الشعوب عن طريق البر والبحر الى التوسع تدفعها الى ذلك دوافع مختلفة أهمها الدافع التجاري .

آ – دور الفينيقيين في الاكتشافات الجغرافية :

كان الفينيقيون أول من عمد الى توسيع حدود وآفاق العالم المعروف أنئذ وكانوا أول من تجرأ على القيام برحلات بحرية واسعة المدى .

لقد دفعتهم طبيعة بلادهم الطبيعية ووجود الحواجز الجبلية بينهم وبين الداخل الى التوجه نحو التجارة البحرية، وكانوا قد تعلموا مبادىء الفلك ومعرفة النجوم من الكلدانيين فكانوا يحسنون التوجه بالاعتماد على النجوم؛ وقد أطلق اسم نجم الفينيقيين على نجم القطب خلال زمن طويل .

وكانت غابات الارز في جبال لبنان مصدراً للاخشاب الضرورية لبناء السفن القوية الواسعة التي كانت تسير بالشراع والمجداف،وانطلقوا من مدنهم المشهورة صيدا وصور بحثاً عن طرق بحرية عبر البحر الأبيض المتوسط وكانوا يحرصون

على أن لا ينهج نهجهم أحد لذلك كانوا يكثرون من وصف الصعوبات والمخاوف التي يصادفونها في رحلاتهم ، وبقيت أسفارهم سراً من أسرار دولتهم . ولم يكن الفينيقيون يتوغلون في البر كثيراً بل كانوا في رحلاتهم البحرية يكتفون بالمناطق الساحلية حيث كانوا يؤسسون في كل مكان مراكز تجارية وكانت مراكزهم هذه مبعثرة في كل مكان من سواحل هذا البحر ، في قبرص وردوس ومصر وصقلية وإيطاليا واسبانيا وتونس .

وكان الفنيقيون قد أسسوا مستعمرة قرطاجنة المشهورة على الساحل التونسي وكان لها نفس دور مدينة صور على الساحل اللبناني . وأسسوا أيضاً مدينة مرسيليا وبعد أن اجتازوا مضيق جبل طارق دخلوا المحيط ووصلوا الى السواحل الانكليزية بحثاً عن القصدير واستثمروا جزر كاستيريد (Scilly) ،كما وصلوا الى بحر البالطيك بحثاً عن العنبر . وفي بحثهم عن الاحشاب الثمينة وصلوا الى مكان يدعى Ophir ولم يحدد هذا الموقع بالضبط بعد ويظن أنه في شرقي افريقية أو في الجزيرة العربية .

ويذكر هيرودرت أن الملاحين الفينيقيين هم الذين قادوا حملة نخاو الاكتشافية التي استغرقت مدة ثلاث سنوات والتي دارت حول القارة الافريقية مبتدئة من البحر الأحمر وعادت عن طريق جبل طارق. ومن الرحالة الفينيقيين المشهورين هانون Hannon الذي بدأ رحلته على رأس اسطول حقيقي انطلق من جزيرة مالطا وساير شواطىء مراكش على المحيط الأطلسي ووصل الى السنغال والكاميرون ويبدو أنه اضطر للعودة بسبب الحرارة الشديدة .

ب – دور الاغريق في الاكتشافات الجغرافية :

كانت طبيعة بلاد الاغريق ذات السواحل المتعرجة الطويلة هي التي دفعت هذا الشعب نحو ممارسة الملاحة البحرية . وقد قلد الاغريق الفينيقيين في بداية الامر ثم ما لبثوا أن نافسوهم في مضمار الرحلات ولكن الاغريق لم يتقصدوا اخفاء المعلومات المتعلقة بمكتشفاتهم ، كما فعل الفينيقيون ، بل حاولوا اعطاء تفسير لكل الظاهرات والحوادث التي اكتشفوها فكان طبيعياً أن تتقدم المعرفة الجغرافية على أيديهم .

ومنذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان الاغريق يمارسون الملاحة في بحر ايجه ، ثم امتد نشاطهم الى البحر الاسود والبحر الأبيض المتوسط فالمحيط الأطلسي . وفي القرن الرابع قبل الميلاد أبحر اغريقي يدعى Pythéas من مرسيليا فوصل الى انكلترا وبحر البالطيك وبلغ في رحلته بلاداً أطلق عليها اسم Thulé يعتقد أنها ايسلندا أو النرويج او جزر شتلاند .

وكان الاسكندر الكبير المكدوني أول ملك اهتم بالتعرف على البلاد التي فتحتها جيوشه ، وكان العلماء الذين يرافقونها يرسمون له الخطط فيرسل البعثات لاكتشاف أطراف البلاد التي استولى عليها ، وامتدت امبراطوريته كما هو معروف ، حتى ايران وأفغانستان وتركستان وبلوجستان . وكان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن بحراً كبيراً يحيط باليابسة فأراد الوصول الى هذا البحر عن طريق نهر الهندوس بينما ساير قائده Néarque سواحل البحر .

ج – دور الرومان في الاكتشافات الجغرافية :

كانت عقلية الرومان تختلف عن عقلية الأغريق لذلك كان من الطبيعي أن لايكون عمل الشعبين متشابهاً . لقد اهتم الرومان بالسياسة والخطط الحربية والقانون بشكل خاص ولم يكونوا يهتمون أبداً بالفرضيات والمسائل المشتبه بها كما فعل الاغريق . وكانت خبرة الرومان بالملاحة محدودة لذلك كثيراً ما استخدموا ملاحين أجانب . كان همهم منصرفاً للفتوحات واخضاع الشعوب واكتفى جغرافيوهم بترديد ما سبق إليه جغرافيو الاغريق . ومع ذلك فقد وسعوا حدود العالم المعروف آنذاك عن طريق الفتوحات، ومن الأمور المعروفة أن الامبراطور Néron كان أرسل حملة للتعرف على منابع النيل ، وقد أخفقت الحملة ولكنها وصلت على أي حال إلى الحبشة . وامتدت رقعة الامبراطورية الرومانية إلى واحة فزّان وموريتانيا « شنقيط » وشمالي أفريقية وبلاد الغاليين Gaule وألمانيا وبلاد حوض نهر الدانوب .

وعلى هذا فإن حدود العالم الذي كان معروفاً في القرن الثاني الميلادي تبدأ من منطقة غلاسكو في ايكوسيا وتحاذي سواحل بحر البالطيق الشمالية وخليج فنلندة ، فنهر النيمن Niémen وجبال الأورال فمنطقة كانتون في الصين فماليزيا، أما الحدود الجنوبية فلم تكن معروفة تماماً .

د – العرب والاكتشافات الجغرافية :

بعد زوال الامبراطورية الرومانية خيم الجهل من جديد على العالم خلال عدة قرون وعادت فكرة انبساط الكرة الأرضية إلى الأذهان وكانت الظاهرات

الطبيعة تفسر تفسيرات غريبة . في هذه الفترة بالذات ظهر الاسلام في جزيرة العرب وبدأت الفتوحات تمتد وتتسع بسرعة بالغة فامتدت الامبراطورية الاسلامية من السند حتى المحيط الأطلسي ، ووصل المسلمون إلى سورية وبلاد فارس وتركيا وأرمينيا والقوقاز ومصر وافريقية الشمالية وقبرص ورودس واسبانيا بل وأواسط القارة الافريقية وجزر اندونوسيا .

لقد استلم الرحالة العرب زمام المبادهة آنذاك وقاموا برحلات واكتشافات هامة وكان لهم الفضل في اكتشاف كثير من البقاع المجهولة آنذاك وخاصة : بلاد الصين ، والسودان والجزيرة العربية وإيران .

وقد انتقلت المعلومات والمعارف الجديدة التي توصلوا إليها إلى الأوروبيين عندما احتك المسيحيون بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية . وكان للعرب أيضاً الفضل الاكبر في الأمور التالية :

- في نقل علوم الاغريق ، بعد ترجمتها ، إلى الأوروبيين .
- في نقل البوصلة من الصين إلى أوروبا .
- في نقل الأرقام العربية التي تستخدمها شعوب أوروبا حالياً .
- في نقل مزروعات جديدة كالرز والقطن وقصب السكر .

وقد وصل الملاحون العرب إلى منطقة الشرق الأقصى وكانو قد أسسوا فيها مراكز تجارية دائمة ، وامتد نشاطهم على طول الساحل الشرقي من أفريقية حتى جزيرة مدغشقر .

وقد اشتهر من العرب عدد من الرحالة الكبار كتبوا مشاهداتهم وملاحظاتهم بشكل علمي دقيق . وقد اشرنا في تمهيد الكتاب إلى اشهر الرحالة العرب كما اسلفنا

هـ – النورمانديون (اسكنادينافيون) والاكتشافات الجغرافية :

لقد عاصر النورمانديون العرب ، واشتهروا بمهارة وصلابة ملاحيهم وجودة مراكبهم البحرية . ولقد دفع ضيق الأراضي الزراعية ، وطبيعة البلاد ، كما دفع حق الولد البكر سكان الدانمارك والنروج الحاليين إلى مغادرة بلادهم بحثاً عن أراضي جديدة .

وأشهر المكتشفين الاسكندنافيين إيريك الأحمر النروجي Eric le Rouge الذي حكم عليه بتهمة القتل فهرب إلى ايسلنده وطرد من هذه الجزيرة لأنه ارتكب جريمة أخرى . لقد قام إيريك برحلته فوصل إلى شواطىء غروئنلنده وأطلق عليها اسم الأرض الخضراء Greenland ، وكان ابنه المسمى ليف السعيد Lief L'heureux يرافقه في رحلته هذه . ومن المحتمل أن ايريك وأبنه وصلا إلى أمريكا من جهة الشمال .

غير أن الاسكيمو قضوا على مايبدو على المستعمرة التي كان أسسها النورمانديون وانقطعت أخبارها عن العالم ، ولم يعثر الأوروبيون عندما اكتشفوا أمريكا في القرن الخامس عشر على أي أثر للنورمانديين فيها .

وبينما كان النورمانديون يكتشفون البقاع الشمالية ،كان الأوربيون يسعون إلى إيجاد علاقات دينية وتجارية مع آسيا لأن البحر الأبيض المتوسط كان قد غدا بحيرة عربية إسلامية بالرغم من الجهود التي بذلها الصليبيون .

ومنذ بداية القرن الثالث عشر أوجدت بعض العلاقات المباشرة بين أوروبا

وبلاد المغول ، لأن البابوات كانوا قد أرسلوا برسلهم إلى كبير المغول في وقت كان فيه هؤلاء في نزاع مع العرب المسلمين ، وعند عودة الرسل ذكروا حقائق كثيرة كانت تبدو غريبة آنذاك . ومن أشهر الرحلات التي قام بها الأوربيون رحلة ماركو بولو Marco polo الذي كان قد دخل في خدمة المغول وزار بلاد الشرق الأقصى خلال أكثر من سبعة عشر عاماً ثم عاد إلى ايطاليا بعد غياب أربعةوعشرين عاماً ونشر كتابه المعروف «كتاب العجائب».

٢ ـ الاكتشافات الجغرافية بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر :

حدث في القرن الخامس عشر أكبر اكتشاف جغرافي في تاريخ البشرية وهو اكتشاف أمريكا ، وبعد أن تم هذا الاكتشاف المدهش بقيت سفن الملاحين والمغامرين تجوب البحار والمحيطات بدون هوادة حتى القرن الثامن عشر . وكان لهذه الرحلات والاكتشافات أسباب مباشرة منها البحث عن طرق جديدة ومباشرة للوصول الى الهند . وتقدم فن الطباعة وصناعة الخرائط واستخدام البوصلة والاصطرلاب العربي وتقدم صناعة السفن .

آ ـ اكتشاف سواحل القارة الافريقية :

منذ القرن الرابع عشر كان الملاحون الأوروبيون قد بدأوا بالتوجه نحو الجنوب ، ووصل ملاحون من شربورغ الى جزر كناريا ولكنهم اضطروا للتقهقر أمام مقاومة سكان الجزر الاصليين .

وقد أتم البرتغاليون اكتشاف السواحل الافريقية بتشجيع من أميرهم هنري الملاح ، فقد وصل ملاحوه الى جزيرة ماديرا في عام ١٤٢٠ والى جزر

أصور في ١٤٣١ والرأس الاخضر في عام ١٤٤٤ والى موريتانيا في ١٤٤٥ .

وفي عام ١٤٨٧ دار Barthelemy Diaz حول القارة الافريقية وأطلق اسم رأس العواصف على الرأس الموجود في أقصى الجنوب. وفي عام ١٤٩٧ خرج «فاسكو دو غاما» باسطوله من لشبونه واجتاز رأس الرجاء الصالح وساير ساحل موزامبيك ووصل الى الهند بمساعدة الملاحين العرب .

ب - اكتشاف امريكا ورحلات الاسبان :

تم اكتشاف امريكا على يد كريستوف كولومب وهو من أصل ايطالي تزوج في البرتغال واشتغل لحساب اسبانيا . وبنتيجة دراساته الشخصية اعتقد بأن الطريق المباشر للهند يجب أن يكون باتجاه الغرب طالما أن الارض كروية . وبعد اتصالات كثيرة ومتاعب كبيرة كلفته « ايزابيلا» ملكة اسبانيا باكتشاف أراض جديدة وأعطته لقب أميرال ووعدته بعشر الثروة التي سيكتشفها .

وبدأ كولومب رحلته الاولى في شهر آب ١٤٩٢ ، وبعد صعوبات كثيرة ويأس وتمرد من قبل ملاحيه . وصلت الرحلة في ١١ تشرين الاول لأول مرة بالتاريخ الى الأرض الامريكية فظن أنه وصل الى بعض مناطق الهند وأطلق خطأ على الجزر التي اكتشفها اسم جزر الهند الغربية ، وبالرغم من أنه كان يعتقد بأن الهند قريبة من هذه الجزر فانه لم يحاول الذهاب اليها بل عاد في عام ١٤٩٢ الى اسبانيا بعد ان ترك بعض رجاله في جزيرة هيسبانيولا . وقد جلب

معه بعض المحصولات الجديدة كالقطن والرز والبطاطا ولكن ما حصل عليه من الذهب كان قليلا .

واكتشف كولومب خلال رحلته الثانية التي بدأها في عام ١٤٩٣ جزر غوادلوب guadeloupe والمارتينيك والجامابيك ولكنه لم يجد أي أثر للصين واليابان . وقام هذا الملاح الكبير برحلة ثالثة في عام ١٤٩٨ وصل خلالها الى جزيرة ترينيداد Trinidade ومصب نهر الاوريتوك واعتقد أن سواحل امريكا الجنوبية التي وصل اليها هي سواحل آسيا . وأثناء عودته الى اسبانيا أوقف وكبّل بالحديد ثم اطلق سراحه . ثم بدأ كولومب رحلته الرابعة في عام ١٥٠٢ ووصل فيها الى سواحل الهندوراس غير أن كولومب كان قد أصبح عجوزاً مريضاً فاضطر للعودة ولم يجد في اسبانيا من يناصره ويهتم به فمات مهملاً مغموراً في عام ١٥٠٦ .

د – البعثات الاخرى نحو امريكا :

اكتشف كولومب سواحل امريكا ، ومات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة ، وكان قلب هذه القارة الكبيرة مجهولا ولكن سرعان ما تدفق المغامرون والمكتشفون نحوها فتعرفوا على ما في داخلها وكانوا يبحثون عن الذهب بشكل خاص . لقد استولى Cortez على المكسيك في عام ١٥١٩ واحتل Pizarre و Almagro بلاد البيرو والشيلي لحساب اسبانيا ، ثم اكتشفت كولومبيا وفنزويللا واليوكوتان وفلوريدا وكولورادو وكاليفورنيا . ووصل « Cabral » الى البرازيل لأول مرة عام ١٥٠٠ .

إن الذي أعطى للقارة الجديدة اسم أمريكا هو Americo Vespucci الذي أدرك أن الأرض الجديدة لم تكن آسيا . وقد وصل أمريكو هذا الى ساحل الهوندوراس وزار خليج المكسيك ثم ساير سواحل أمريكا الجنوبية الشرقية الى أن وصل الى خليج ريودولا بلاتا Rio de la plata .

ظل البحث مستمراً للوصول الى ممر نحو الهند ، وفي عام ١٥١٣ اجتاز « بلباو Balbao » الاسباني برزخ بناما ووصل الى ساحل المحيط الهندي . وفي عام ١٥٢٠ دار ماجلاّن حول أمريكا الجنوبية وأعطى اسمه للمضيق الموجود بين نهاية أمريكا الجنوبية وجزيرة أرض النار . واجتاز المحيط الكبير في وقت كان الطقس فيه جميلا والبحر هادئاً فأطلق عليه اسم المحيط الهادي . وعندما وصل الى الفيليبين قتل في حرب مع أهل هذه الجزر . وتابع رفاقه الرحلة فعادوا في عام ١٥٢٢ عن طريق رأس الرجاء الصالح الى اسبانيا وبرهنت رحلة ماجلاّن على كروية الارض لأول مرة . وكان المكتشفون يبحثون عن ممر بحري في شمال أمريكا ، فاكتشفوا جزيرة الأرض الجديدة ولابرادور وخليج هدسون وأرض بافان ... الخ .

د - اكتشاف البحار الجنوبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر :

كان بطليموس قد وقع في الخطأ عندما رسم خريطة العالم وذلك لأنه كان قد وضع عليها قارة جنوبية تقع في جنوب المحيط الهندي وتصل بين افريقية وآسيا الشرقية ، فبقيت هذه الفكرة الخاطئة في أذهان الناس حتى بعد رحلة

«فاسكو دوغاما» حول القارة الافريقية ووصوله الى الهند . أضف الى ذلك أن الناس كانوا يعتقدون آنذاك بأنه لابد من أن توجد أراض واسعة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية مقابل القارات المتجمعة في النصف الشمالي وذلك حفظاً للتوازن . وكان الأمل في اكتشاف هذه القارة الجنوبية وما قد يكون فيها من ثروات جديدة دافعاً لقيام رحلات عديدة خلال الفترة التي امتدت من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر .

ففي بداية القرن السابع عشر انطلق الملاحون الهولنديون من جزر الصوند فتعرفوا على السواحل الشمالية الغربية من استراليا ، وكان من أشهر أولئك الهولنديين Abel Tasman الذي اكتشف في عام ١٦٤٢ جزر تاسمانيا وزيلندا الجديدة ثم اكتشف وهو في طريقه إلى أوروبا منطقة باتافيا وجزر فيجي وسالمون .

وبعد فترة من التوقف استؤنفت الرحلات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فاكتشف الفرنسي Bougainville جزر Tahiti وجزر الصاموا Samoa وهبريد الجديدة واكتشف فرنسي آخر اسمه Laperouse جزر المحيط الهادي الواقعة شمال اليابان (١٧٩١ — ١٧٨٥) .

واشتهر إنكليزي إسمه James COOK برحلاته البحرية . واكتشف خلال رحلاته الثلاث التي استمرت من ١٧٦٨ إلى ١٧٧٩ كل سواحل زيلندا الجديدة وساحل أستراليا الشرقي وتقدم نحو المحيط القطبي الجنوبي حتى المنطقة التي يسودها الجليد واكتشف جزر هاواي حيث قتله فيها أحد السكان . وقضت

رحلة كوك الثانية ورحلات Dumont D'urville و James Ross — قضت هذه الرحلات نهائياً على فرضية وجود قارة جنوبية .

٣ — الاكتشافات الجغرافية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أهم الاكتشافات التي حصلت خلال هذين القرنين تمت داخل القارات للتعرف على بعض البقاع التي كانت لاتزال مجهولة أو شبه مجهولة .

آسيا : بالرغم من كل الصعوبات قام الروس برحلات في منغوليا والتركستان وقام عالم ألماني بدراسة الصين الشمالية ومنشوريا . ووصل رجلا الدين الفرنسيان Huc و Gabeh بعد أن اجتازا الصين، إلى التيبت ومدينة Lahassa لاهاسا . وفي الهند الصينية تتبع الرحالة نهر الميكونغ بحثاً عن طريق سهل للوصول إلى الصين . وتوغلت بعثة ستروين بعيداً إلى قلب آسيا .

افريقية : بالرغم من قرب القارة الأفريقية من أوروبا فان أواسطها لم تكتشف إلا في وقت متأخر وذلك بسبب العقبات الكثيرة التي تعترض المكتشفين فيها ، تلك العقبات التي تتألف من أنهارها الكبرى التي تقطعها الشلالات والمساحات الواسعة التي تغطيها الغابات العذراء المخيفة أو الصحارى المقفرة وبسبب عداء سكانها وتعصبهم تجاه البيض .

ومن المكتشفين الذين عملوا في أفريقية René Caillé الذي استطاع أن يصل إلى تومبوكتو [١] بوسائله الخاصة رغم الفقر والمرض . والبروتستانتي الايكوسي Livingstone الذي اكتشف خلال رحلاته الثلاث التي دامت من

---

(١) وصل ابن بطوطة الى مدينة تومبوكتو منذ القرن الرابع عشر

١٨٤٤ إلى ١٨٨٣ نهر الزامبز Zambèzo والبحيرات الكبرى في أفريقية الشرقية وحوض الكونغو الأعلى وقد مات أثناء رحلته الأخيرة .

وقد عمل كل من Brazza الفرنسي الجنسية و Stanley الصحفي الأمريكي على اكتشاف حوض الكونغو وقد نجح كل منهما في مهمته والتقيا معاً في حوض الكونغو الأدنى . ونجحت بعثة Marchand في عام ١٨٩٨ في اجتياز أفريقية من الغرب إلى الشرق عن طريق الكونغو والنيل الأعلى والحبشة وقد صادف صعوبات كبيرة جداً ، أما Stan ley فقد اجتاز أفريقية في الإتجاه المعاكس أي من الشرق إلى الغرب عن طريق أفريقية الشرقية والكونغو .

وعملت بعثات عسكرية عديدة على اكتشاف الصحراء الكبرى ، فقامت بعثة الكولونيل الفرنسي Flatters سنة ١٨٨٠ لاجتياز الصحراء ولربط افريقية الشمالية بأفريقية الغربية ولكن الطوارق قضوا على هذه البعثة . وتم اجتياز الصحراء لأول مرة عام ١٨٩٨ ونجحت حملة Foureau - Lmay في هذه المهمة .

وقد عمل الضابط الفرنسي Charles de Foucauld على التعرف على بعض بقاع مراكش منذ سنة ١٨٨٣ متخفياً بشكل يهودي متسول .

ولم يكن قد بقي في القرن العشرين إلا مناطق قليلة للإكتشاف إذا استثنينا حوض الأمازون . غير أن عدداً كبيراً من المناطق التي وصل إليها المكتشفون كانت لا تزال شبه مجهولة وتحتاج إلى مزيد من الدراسة . وقد ساعد استخدام الطائرة على الوصول إلى البقاع النائية أو التي يصعب التوغل فيها ، وقد ساعدت الطائرة على التصوير الجوي ورسم الخرائط . لذلك كان الباحثون قد حلّوا خلال هذا القرن الأخير محل المكتشفين

٤ – البعثات الاستكشافية العلمية الى الأراضي القطبية :

تمثل البعثات التي اتجهت نحو أراضي القطبين آخر الجهود التي بذلها الانسان للتعرف على كل أجزاء الكرة الأرضية وإذا كانت البعثات الأولى قد ذهبت للتعرف على أراضي القطبين واكتشاف ما كان فيها مجهولاً فإن البعثات العلمية الخاصة بدراسة هذه المناطق الباردة لاتزال مستمرة حتى الآن . وقد أصبح للأراضي القطبية أهمية كبرى في الحرب العالمية الثانية وخاصة من الناحية الستراتيجية فأقصر طريق من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة يمر من القطب الشمالي ، كما يمر من القطب الجنوبي أقصر طريق يصل بين أمريكا الجنوبية واستراليا . وبعد أن انتهت مرحلة الاكتشاف بدأت مرحلة الدراسة والاستثمار .

١ – خصائص وميزات الرحلات والبعثات القطبية :

إن الفوائد التي يمكن للإنسان أن يجنيها من معرفة واستغلال المناطق القطبية الباردة عديدة ومع ذلك فإن هذه الأراضي لما تعرف بعد معرفة كاملة واستغلال مواردها لا يزال في دور البداية .

– ولقد كان الدافع الأول الذي دفع الملاحين والمكتشفين نحو الأراضي القطبية دافعاً اقتصادياً ، فقد كان بعضهم يود اصطياد الحيتان البالين Baleine بعد أن اختفت تقريباً من البحار الشمالية ذات العروض المعتدلة . وكان بعضهم الآخر يطمع في الحصول على ثروات معدنية جديدة .

أما مكتشفو القرن التاسع عشر فقد كان لهم حوافز أخرى ؛ فقد ذهب بعضهم لغاية رياضية وكانوا يهدفون إلى تسجيل رقم قياسي جديد .

وكانت الغاية العلمية هي التي دفعت عدداً من العلماء نحو تلك الاراضي المقفرة الباردة ، وعندما تنجلي الاسرار المحيطة بتلك البقاع أمام التقدم العلمي والفني فان كثيراً من المسائل الغامضة اليوم سوف تحل، كمسائل آلية التيارات البحرية وخصائص التجلد وأصل منشأ بعض الظاهرات الجوية ، والمغناطيسية الارضية وتأثيرها على الظاهرات المناخية .

وبالرغم من أهمية البقاع القطبية فان اكتشافها قد تأخر والسبب في ذلك الصعوبات الهائلة التي يصادفها الانسان هناك ، وهي في الواقع صعوبات تفوق بكثير كل ما يمكن أن يصادف في بقية البقاع الأخرى من العالم . وتبدو هذه الصعوبات في نواحي كثيرة أهمها :

أ — قسوة المناخ: هذا المناخ صحي من حيث خلو الجو من الجراثيم ولكنه شديد البرودة ، والثلج يهطل بغزارة على شكل زوابع شديدة .

ب — يصعب احتمال الليل القطبي الطويل الذي يسبب قلقاً نفسياً واضطرابا عصبياً ، وخاصة عندما يمتد عدة أسابيع بل وعدة أشهر . ويصاب الانسان بالهزال مع مرور الزمن .

جـ — قلة الغذاء : إن التربة لا تعطي أي غذاء نباتي ، أما الحيوانات فنادرة بل معدومة تماما في بعض الأحيان ، لذلك يضطر المكتشفون للتغذي بالمعلبات المحفوظة ويؤدي هذا إلى إصابتهم بأمراض مؤلمة .

د — صعوبة المواصلات : إن التنقل صعب وخطر ، في البحار تتعرض

السفن لأخطار متنوعة إذ تجد نفسها فوق أعماق مجهولة من جهة ولأن تجلد المياه السطحية يمنعها عن الحركة وان قطع الجليد العائمة تهددها بصورة دائمة من جهة أخرى .

أضف إلى ذلك أن السير فوق الجليد لا يخلو من أخطار كبيرة ، فان قطع الجليد تتراكم فوق بعضها أحياناً فتشكل عثرات لا يمكن أجتيازها وقد يتشقق الجليد مؤلفاً حواجز قائمة تفصلها هوات سحيقة تستتر أحيانا بطبقة رقيقة من الثلج تنهار بمجرد السير فوقها .

إن إكتشاف البقاع القطبية الظليلة قد تطلب كثيراً من الصبر وقوة الارادة والصلابة والتضحية والبطولة . لقد تغلب الانسان في نهاية الأمر على الجليد ولكن تاريخ إكتشاف هذه البقاع الباردة حافل بحوادث مؤلمة لاتحصى تمت في عزلة وصمت . ولم تقف هذه الحوادث الرهيبة حائلا تجاه الانسان يثنيه عن عزيمته وقد ساعده التقدم العلمي واختراع الطائرة والمذياع بشكل خاص في التغلب على مختلف الصعوبات .

٢ – اكتشاف الأراضي القطبية الشمالية :

كانت أراضي القطب الشمالي هي أولى البقاع الباردة التي توجه إليها المكتشفون ويرجع سبب ذلك إلى أن معظم الدول المتقدمة في مضمار الحضارة تقع أراضيها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية .

وقد أشرنا سابقاً إلى بعض النورمانديين الذين كانوا قد وصلوا منذ العصور الوسطى إلى سواحل غروئنلندا وربما إلى سواحل سبيتسبرغ Spitzberg .

وابتدأ مع بداية القرن السادس عشر ما سمي بحملة التفتيش عن الممرات . وقد تطلب إكتشاف الممر الشمالي الغربي جهود ما يقرب من ثلاثة قرون . وبنتيجة البحث عن هذا الممر إكتشف cabot و Davis البقاع القطبية الواقعة شمال سواحل امريكا الشمالية مباشرة وذلك في القرن السادس عشر وتلا ذلك الاكتشافات التي قام بها كل من hudson و Baffin . وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بذل Ross و perry و Franklin .. وآخرون غيرهم جهوداً كبيرة كانت حصيلتها من المآسي تفوق حصيلتها العلمية . وفي عام ١٩٥٠ فقط إستطاع الانكليزي Mac clure أن يصل إلى هذا الممر بواسطة الزحافة التي تسير على الجليد. وكان النروجي Amundsen أول إنسان يعبر هذا الممر بواسطة المراكب البحرية وذلك بين ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .

وفي أثناء البحث عن الممر الشمالي الغربي تعرف Barentz عام ١٥٩٦ على جزيرة Spitzberg وزمبيليا الجديدة وبحر كارا . وفي سنة ١٧٢٨ إجتاز الدانماركي Bering لأول مرة المضيق الذي يحمل إسمه أما الممر الشمالي الشرقي[1] فقد قطعه تماما السويدي Nordensjold وذلك بين عامي ١٨٧٨ — ١٨٧٩ .

أما إكتشاف القطب الشمالي نفسه فقد تطلب جهود قرن ونصف ، وقد بدأت أولى المحاولات في القرن الثامن عشر وقدا نطلقت من سبيتزبرغ ولكنها فشلت بسبب تصدع البانكيز الجليدي وبسبب أقنية المياه والمرتفعات الجليدية

---

(١) الممر الشمالي الغربي يحاذي السواحل القطبية لامريكاوالشمالي الشرقي يحاذي السواحل القطبيه للاتحاد السوفياتي .

التي كانت تغطي سطح البانكيز .

وقد حاولت بعثات عديدة من غير جدوى أن تصل إلى بحر غير متجلد كانوا يعتقدون بوجوده في الجهتين الشرقية والغربية من غروئنلاند .

واعتباراً من ١٨٨٢-١٨٨٣ ، وهو العام القطبي الأول ، إتصفت البعثات بالصفة العلمية ، ومن أشهر الذين تقدموا نحو القطب Nansen النروجي وباخرته المشهورة Fram ، ولكنه لم يستطع أن يتجاوز درجة عرض ٨٦° و ١٣َ .
ومنذ ١٨٩٨ كان الأمريكي R.peary يحاول بعناد الوصول إلى القطب وقد وصل إلى القطب فعلا في عام ١٩٠٩ بفضل صبره و بفضل إستخدامه للاسكيمو ولقوافل منظمة من الزحافات .

ومنذ ذلك التاريخ تعددت الرحلات نحو القطب وقد ساعد على ذلك إستخدام زحافات تسير بقوة المحرك ، ومراكب لكسح الجليد وطائرات مناطيد واستخدم Amundsen الطائرة لأول مرة عام ١٩٢٢ ولكنه لم ينجح.
وكان الأميركي Byrd أكثر حظاً من سابقه فقد استطاع الطيران فوق القطب الشمالي في عام ١٩٢٦ ، أما Wilkins ، وهو أمريكي أيضاً فقد اجتاز بطائرته دفعة واحدة كل المنطقة من آلاسكا حتى سبيتزبرغ وذلك في عام ١٩٢٨ .
وكان Amundsen و Nobile قد قطعا نفس المسافة بالمنطاد ولكن بالاتجاه المعاكس وذلك في عام ١٩٢٦ .

وفي عام ١٩٣٢ - ١٩٣٣ أنشئت ٣٢ محطة لدراسة الأراضي القطبية بناءعلى إتفاق دولي . ومنذ سنة ١٩٣٧ أنشأ السوفيات المحطة المتنقلة رقم واحد تحت إشراف Popanine كما أنشأوا مطاراً على البانكيز فانتقل الجليد مع المطار مدة

٢٧٤ يوماً حتى وصل إلى القرب من إيسلاندا .

٣ - اكتشاف الأراضي القطبية الجنوبية :

لقد جاء اكتشاف هذه الأراضي متأخراً بالنسبة لاكتشاف الأراضي القطبية الشمالية وذلك لأن الأراضي الجنوبية أكثر بعداً عن المناطق المسكونة وشروطها الطبيعية أكثر قسوة منها في الأراضي القطبية الجنوبية .

وكان « كوك » قد وصل أطراف الدائرة القطبية الجنوبية خلال رحلته الثانية في القرن الثامن عشر ، وكان قد صادف في تلك البحار صعوبات كبيرة بسبب القطع الجليدية العائمة وبسبب البانكيز والعواصف لذلك تراجع كوك عن هذه المناطق وهو مقتنع بأنه من المقدر لها أن تبقى إلى الأبد مدفونة تحت الجليد والثلوج الدائمة . وارتاد هذه البقاع فيما بعد صيادون أشداء من الانكليز والأميركيين كانوا يبحثون عن الحيتان و الفقميات ، واقتربوا من القارة القطبية الجنوبية ومن الجزر القريبة منها .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨١٩ و ١٨٢١ تعرفت بعثة Belbinghousen الروسية على أراضي بطرس الأول واسكندر الأول . وبين عامي ١٨٤٠ — ١٩٣٥ جهزت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بدون أي اتفاق سابق فيما بينها ، ثلاث بعثات قطبية ، فاكتشف الفرنسي dumont d'urville أرض Louis-Philipp وأرض Adélie وساحل Clarie ووصل الاميركي Wiekes إلى شرق أرض بطرس الاول واكتشف الانكليزي Ross أرض فيكتوريا والبركانين الكبيرين Erebus و Terror وتقدم حتى درجة عرض ٨٢° و ١٥َ .

وتوقفت الرحلات القطبية بعد ذلك فترة من الزمن لتستأنف من جديد في في نهاية القرن التاسع عشر . لقد اكتشف البلجيكي gerlache أرخبيل الجزر الواقعة في شرق أرض graham في عام ١٨٩٨ . وتتالت بعد ذلك بعثات جديدة ألمانية وانكليزية ، وايكوسية . وسويدية ، وفرنسية وامتازت هذه البعثات بما قامت به من أعمال طبوغرافية وبما حصلت عليه من مجموعات جديدة تخص التاريخ الطبيعي . وكان الدكتور charcot هو الذي قاد البعثة الفرنسية في ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ـ وقاد Scott البعثة الانكليزية خلال ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ووصل الى درجة عرض °٨٢ و َ١٧ .

وكان الوصول إلى القطب الجنوبي قد أصبح سهلا نسبياً ، لأن نقطة القطب تقع في القارة على عكس القطب الشمالي الذي يقع في وسط البحر . وكانت أولى محاولات الوصول إلى القطب الجنوبي هي محاولة الانكليزي Shackelton بين ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ ولكنه أخفق بسبب قلة المؤن بعد أن وصل إلى درجة عرض ٨٨ و َ٢٣ . وفي صيف ١٩١١ ـ ١٩١٢ استؤنفت الرحلات وانطلق Ross من الغرب ، من الجزيرة التي تحمل اسمه وانطلق النروجي Amundsen من أقصى غرب الحاجز الكبير . وبفضل التنظيم الدقيق للاستراحة والتغذية ، وبفضل كلاب الاسكيمو التي استخدمها ، استطاع Amundsen أن يصل إلى القطب الجنوبي بتاريخ ١٤ كانون الاول من سنة ١٩١١ ، وقد تبعه اليه الانكليزى Scott بعد عدة أسابيع أي بتاريخ ١٧ كانون الثاني من سنة ١٩١٢ وقد توفي سكوت ورفاقه أثناء عودتهم ونجح بعد ذلك الاميركي Byrd في التحليق بطائرته فوق القطب الجنوبي في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٩ .

ومنذ بداية القرن العشرين بدأ الاهتمام بالأراضي القريبة من القطب الجنوبي بغية إتمام التعرف عليها ، وقد قام بهذه المهمة الفرنسي Charcot من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ والامريكيان Manson و Wild بين ١٩١٢ و ١٩١٤ والانكليزي Shackelton بين ١٩١٤ و ١٩٢٢ . وبعد ١٩١٤ أحرز المكتشفون تقدماً كبيراً بفضل استخدام الطائرة . ففي ١٩٢٦ حلق R, Byrd الاميركي فوق القطب الجنوبي والتقط عدداً كبيراً من الصور ، وبعد ثلاثة أعوام عاد Byrd إلى القطب الجنوبي على رأس حملة كبيرة وأسس في نهاية خليج البالينات baie des baleines مدينة حقيقية تنار بالكهرباء . وقد عاد هذا الاميركي إلى القطب الجنوبي خلال عام ١٩٣٣ . وفي عام ١٩٤٧ قاد حملة مؤلفة من ثلاثة عشر مركباً وأربعة آلاف رجل وكان بين سفنه غواصة وحاملة طائرات ، وكاسحتا جليد ، وفي عام ١٩٥٠ قاد الفرنسي Liotard André حملة جديدة لدراسة أرض Adélie ولا تزال البعثات والمحطات العلمية التي أنشأتها مستمرة في الدراسة والبحث بغية التعرف على هذه البقاع النائية التي يسودها البرد معرفة صحيحة .

نتائج الاكتشافات الجغرافية وحالة معرفتنا الحاضرة بالكرة الارضية

كان للاكتشافات الجغرافية التي درسناها نتائج جغرافية هامة وعديدة نذكر منها مايلي :

١ — إتساع البقعة المسكونة : .. كانت توجد على سطح الأرض حتى القرن الخامس عشر بقاع واسعه خالية من السكان أو شبه خالية كاستراليا وأمريكا، فالقارة الأميركية التي تبلغ مساحتها ٤٢ مليون كم^2 كانت شبه خالية عندما اكتشفها

كولومب إذ لم يكن فيها أكثر من عشر ملايين نسمة من الهنود الحمر وكانوا يتمركزون في الجبال الواقعة على السواحل الغربية بشكل خاص. أما اليوم فان أمريكا مسكونة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد سكنت معظم أجزاء استراليا، أضف إلى ذلك كل البقاع التي اكتشفت إعتباراً من القرن الخامس عشر فقد اتخذت كلها مواطن للشعوب البيضاء بالرغم من قسوة شروطها الطبيعية في كثير من الأحيان.

٢ — حدوث تغيير في توزع مراكز الكثافات البشرية: كان من الطبيعي أن يحدث تغيير في توزع السكان على الارض بعد أن بدأ الناس بالهجرة إلى البقاع الجديدة وخاصة في امريكا واستراليا، فأمريكا تضم اليوم حوالي ٤٠٠ مليون نسمة وفيها عدد من اكبر مدن العالم.

٣ — رافق هذه التنقلات البشرية وقيام مراكز الكثافة الجديدة — رافقها ظهور حضارات جديدة، فالحضارة الامريكية (الولايات المتحدة) تختلف عن أمها الحضارة الغربية ولا تشبه في شيء الحضارات القديمة التي كانت موجودة في امريكا قبل وصول كولومب إليها كحضارات الانكا والمايا والأزتيك. هذا ولم تكن التنقلات البشرية إلى هذه البلاد الجديدة طوعية دائماً فالزنوج مثلا قد نقلوا قسراً من أفريقية الى الولايات المتحدة ونجم عن ذلك المشكلة العنصرية السوداء التي لم تزل قائمة حتى اليوم وقد قتل المهاجرون في سبيل تأمين اقامتهم عدداً كبيراً من أفراد القبائل الاصلية التي كانت تسكن في البقاع المكتشفة فالسلالة التسمانية مثلا أبيدت عن آخرها، ولم يبق من سكان استراليا الاصليين وسكان امريكا الاصليين إلا النذر اليسير.

٤ — الاستعمار: كانت الدول تتسابق إلى استعمار المناطق الجديدة التي

يصل اليها المكتشفون . فقد تنافس الفرنسيون والهولنديون والانكليز على استعمار امريكا الشمالية ، كما تنافس البرتغاليون والاسبان على استعمار أمريكا الوسطى والجنوبية .. وحدث نفس الامر بالنسبة لجزر المحيط الهادي.

كان الهولنديون قد استولوا على المنطقة الشرقية من الولايات المتحدة وأسسوا مدينة امستردام الجديدة ولكنهم أخرجوا منها وتحولت امستردام الجديدة إلى يورك الجديدة أي نيويورك New York الحالية وفقدالفرنسيون مستعمراتهم وأملاكهم في كندا وفي لويزيانا.

٥ — النتيجة العلمية : كانت النتيجة العلمية الهامة للاكتشافات الجغرافية ان تم التعرف على مختلف اجزاء الكرة الارضية وأمكنت دراسة مختلف الظاهرات الطبيعية والبشرية التي تتوزع على سطحها، ولم يبق في الوقت الحاضر أي جزء من الارض لم يصل إليه الانسان ، ولكننا لانعرف كل أجزاء الكرة الارضية بدرجة واحدة . ويمكن القول بأن :

أ — ربع اليابسة من سطح الارض معروف تماماً وممثل بخرائط دقيقة .

ب — الربع الثاني معروف تماماً ولكنه لم يمثل بعد بخرائط دقيقة .

ج — الباقي اكتشف ولكنه لم يعرف بعد بشكل دقيق .

الفصل الثاني

١ — الانسان والطبيعة

يتطلب الانسان ليعيش شروطاً مناخية خاصة كما أنه بحاجة أيضاً الى ما تنتج الأرض ليحصل على حوائجه الضرورية من غذاء وملبس ومسكن. ومعنى ذلك ان الانسان البدائي بذكائه المحدود ووسائله الأولية كان يعيش خاضعاً لوسطه الطبيعي. ومن المعروف ان هنالك مناطق عديدة على سطح الأرض لا تتوفر فيها الشروط الضرورية للحياة ولذا لم يستطع الانسان ان يقيم فيها إلا بصعوبة كبيرة.

غير أن البشر بفضل معرفته وتجاربه التي اكتسبها خلال أزمان طويلة والتي ما تزال تزداد اتساعاً وكمالا كلما توارثتها الاجيال ، كذلك بفضل اختراعاته واكتشافاته المتعددة ووسائله الآلية التي تزداد عدداً واحكاماً اصبح يستطيع أن يؤثر بعض التأثير على الشروط الطبيعية في الوسط الذي يعيش فيه. وهكذا كلما ارتقى الانسان درجة في سلم الحضارة كلما ازداد سيطرة على الطبيعة يخضعها حسب حاجاته ورغباته. فدرجة حضارة امة من الامم اذن لا تختلف عن غيرها الا بعدد الاختراعات التي اوجدتها هذه الامة وبعدد الانتصارات التي اكتسبتها على الطبيعة.

تاثير الطبيعة على الانسان .–

رغم جميع الاختراعات والاكتشافات لم يزل الانسان يتأثر بعناصر الطبيعة بطريقة مباشرة او غير مباشرة فالمناخ مثلا يستطيع ان يزيد او يحد من عدد السكان ومن نشاطهم ، والحرارة والتعرض للشمس يظهر أن لهما أكبر الاثر على طبيعة البشر .

وقد برهن بعض العلماء على أثر هذين العنصرين في تكوين الشعب الاميركي وجعله عرقاً واحداً رغم الهجرة التي جلبت عناصر جد متباينة من جميع أنحاء العالم . هذا ويعتقد أن تقدم بعض الجماعات البشرية او انحطاطها وتأخرها لها علاقة مع ازدياد درجة البرودة او الحرارة او مع استمرارهما .

كذلك ثبت أن للضغط الجوي ، الذي يختلف حسب الارتفاع، تأثيراً هاماً في احداث بعض الاضطرابات الفيزيولوجية ولكن يمكن التغلب عليها بالتطبع. وأخيراً لكمية الرطوبة تأثير بالغ على توزع البشر ؛ الا أن ازدياد كمية الامطار عن الحد المرغوب فيه له مفعول معاكس ومشابه لقلتها وندرتها وكلاهما لا يصلحان لوجود كثافات بشرية كبرى . ومن المعلوم ان انتشار الكثافات البشرية في حده الاقصى ينطبق على المناطق الواقعة بين هاتين النهايتين للرطوبة .

هذا وليس من السهل ان نجد علاقة سببية مطلقة ودائمة في تأثير المناخ على الانسان بصورة مباشرة . غير ان هذه العلاقة تظهر جلية واضحة اذا ما نظرنا الى التأثير غير المباشر للمناخ على الانسان بواسطة الحياة النباتية التي هي شرط اساسي للحياة البشرية . وذلك لان جميع أنواع التغذية البشرية تستند على

أساس نباتي ، فهي اما أن تكون مؤلفة من نباتات تستهلك مباشرة ، واما من حيوانات تقتات بالنباتات واما من حيوانات لاحمة تتغذى نفسها بحيوانات تقتات بالنباتات . بالاضافة الى ذلك نلاحظ أن قسماً كبيراً من أدوات الانسان مستمدة من عالم النبات كمواد البناء والادوات المنزلية والمواد النسيجية ووسائل النقل . وهكذا فالانسان بحاجة الى النبات ليعيش والحياة النباتية بدورها تتعلق بالامطار والحرارة والنور والرياح ...

ينتج عن ذلك ان للمناطق المناخية الكبرى أعظم الأثر في توجيه الانسان نحو نوع من أنواع الحياة المختلفة على سطح الأرض وللشروط المناخية والنباتية في بعض المناطق من القسوة ما يجعل الطبيعة تتغلب على الانسان تغلباً مطلقاً لا يستطيع معها أن يعيش إلا بجهد وصعوبة كبيرتين ، كما هي الحال في المناطق الحارة الجافة (الصحراوية) أو الباردة الجافة كمنطقة « التوندرا » أو الحارة الكثيرة الرطوبة ، كمنطقة الغابة الاستوائيةالعذراء. الى جانب هذه المناطق القاسية توجد مقاطعات أخرى يتكاثر فيها البشر كمنطقة البحر الابيض المتوسط والسهول الزراعية الخصبة وغابات المنطقة المعتدلة .

ولا يتأثر الانسان بالمناخ والحياة النباتية والحيوانية فقط إنما يتأثر أيضاً بالتضاريس ونوع التربة والمياه . فالتضاريس تعيق المواصلات أو تسهلها ، والتربة حسب طبيعتها وتركيبها ودرجة نفوذها قد تصلح أو لا تصلح لنمو بعض أنواع النباتات . وليست الانهار والبحار مستودعات للاغذية (الاسماك) فقط وإنما هي وسيلة من وسائل المواصلات ايضاً .

تاثير الانسان على الطبيعة . —

منـذ تألفت الجماعات البدائية حتى الحضارات الرفيعة اليوم ، اي منذ عصور ما قبل التاريخ حتى عصر « الذرة » ما فتىء الانسان يجهد في توسيع تأثيره على العالم الطبيعي واستثمار إمكاناته بشكل يزداد مع الزمن إحكاماً وإتقاناً .

وكان الانسان ، في عمله هذا ، يعتمد على ذكائه وارادته . وبفضل عبقريته وتضافر جهوده وصل الى هذه النتائج التي تدهش لها اليوم .

وأول الوسائل التي استخدمها وأقدمها هي **الجهد العضلي البشري** . ولكن أهمية هذا الجهد اليوم أقل بكثير مما كان عليه في الازمنة البدائية غير أنه لم يزل ضرورياً ؛ لان العمل الآلي مهما بلغ من الدقة والقوة لايمكنه أن يستغني عن تدخل الانسان. ثم فتش الانسان في وسطه الطبيعي عن المواد الاولية للوسائل والادوات التي اخترعهالتذليل الطبيعة نفسها . فاستخدم **الجهد الحيواني** للركوب والجر واستعمل من المواد الاولية الخشب والحجر والمعادن (النحاس والقصدير والحديد بالدرجة الاولى) . وللانتفاع من هذه المواد الاولية اخذ الانسان ، بفضل ذكائه وفطنته ، يستخدم بعض قوى الطبيعة للتأثير على بعضها الآخر . فاستخدم قوة الثقل (المطرقة) لصنع الادوات المعدنية وقوة الرياح لدفع المراكب وقوة المياه لتحريك الطواحين ، واستخدم النار التي كانت من اكبر أعوان الانسان . وأخيراً ظهرت في بدء العصور الحديثة وخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، سلسلة اختراعات احدثت ثورة في العالم لما وسّعت في نطاق تأثير الانسان على محيطه الطبيعي . ولنذكر من هذه الاختراعات بصورة خاصة المحركات

البخارية والمحركات الانفجارية والمحركات الكهربائية. لان اكتشاف قوة جديدة مثل « الكهرباء » واستعمالها أدخل عنصراً جديداً هاماً في القوة المحركة والصناعة المعدنية والكيمياء والتنوير والتدفئة حتى والمعالجة الطبية. أما المسافات الشاسعة فقد ذللت بعد اختراع القطارات والسيارات والبواخر والطائرات. وهذا ما كان ايضاً في شأن انتقال الافكار بعد اختراع البرق والهاتف والمذياع

وهكذا بفضل استخدام القوى الطبيعية المتزايدة وبفضل انتشار المحركات الآلية واخيراً بفضل تنظيم العمل والاختصاص لم يعد الانسان خاضعاً كما كان في الماضي لشروط الوسط الطبيعي.

هذا وليس صحيحاً ان يقال بان الانسان « استعبد الطبيعة » لان ليس له من القوة مايساعده على تحقيق ذلك مباشرة. وكل مايستطيع عمله هو تسخير بعض قوى الطبيعة للتغلب على بعضها الآخر. وهكذا فالشلالات تولد الكهرباء وبواسطة الكهرباء استطاع تفريق المادة في الافران الكهربائية، وحفر الانفاق في الجبال العالية وتغلب على الظلمة والبرد وبذلك غدا الانسان عاملاً جغرافياً حقيقياً يؤثر في عناصر الطبيعة فيغير معالمها ويثنيها لمشيئته وفائدته. ولنضرب مثلا على ذلك في.

١ - تاثير الانسان على التربة. — لطبيعة الطبقة السطحية من التربة اكبر الاثر في الحياة الزراعية. فالتربة السليسية مثلا لاتصلح الا للزراعات الفقيرة كالشوفان والقمح الاسود، والتربة الغضارية الرطبة تصلح للمراعي فقط. أما الحبوب فتنبت في التربة الكلسية. ولكي يحصل الانسان على أنواع مختلفة من الزراعات ويزيد في الانتاج عمد الى تغيير تركيب التربة السطحية، فحسن

خواصها الطبيعية بما اضافه اليها من الكلس أو الرمل أو الرماد ، كما استطاع تحسين خواصها الكياوية بما يضيفه اليها من الاسمدة الطبيعية او الكيماوية كالفوسفات والبوتاس و نيترات الصودة الخ ...

٢ - تأثير الانسان على التضاريس . - ان تأثير الانسان المباشر على التضاريس محدود اذ لا يستطيع مثلا ان يقيم جبالا أو يزيلها من أماكنها ، غير انه اليوم بفضل الادوات الآلية الحديثة وباستعمال المتفجرات استطاع ان يقوم باعمال هائلة لاسيما في المناجم وفي المناطق المجاورة لها . ففي جوار مناجم الفحم مثلا قامت أكمات حقيقية وهضاب يزيد ارتفاع بعضها على (٧٠) متراً تشكلت من تراكم فضلات الفحم وشوائبه .

كذلك استطاع أن يتغلب على العثرات العديدة التي يلاقيها في مواصلاته ففتح مثلاً الترع البحرية في البرازخ التي تفصل البحار عن بعضها كترعة باناما (٨١) كم وازال في سبيل ذلك (١٣٠) مليون متراً مكعباً من الاحجار والأتربة ؛ وترعة السويس (١٦٩) كم . وحفر الاقنية النهرية لربط الانهار مع بعضها ، وبنى الجسور الكبيرة فوق الاودية السحيقة ، ونقب الانفاق في باطن الجبال لتسلكها الطرق او الخطوط الحديدية او مجاري المياه ، كذلك عمد الانسان الى سفوح الجبال المنحدرة في بعض المناطق فبنى فيها جدراناً مدرجة لوقاية التربة من الانجراف وليتمكن من زراعتها ، كما هي الحال في بلاد البحر الابيض المتوسط . واخيراً يستطيع الانسان باكتساحه للغابات في المناطق الجبلية أن يزيد في عمل الحت والانجراف وتخريب السفوح مما يعود عليه بافدح الخسائر والاضرار .

٣ً – تأثير الانسان على المناخ . – لم تزل عناصر المناخ من حرارة وامطار ورياح بعيدة عن تأثير الانسان المباشر ، غير أن الانسان يستطيع بطريقة غير مباشرة ان يؤثر على نظام الامطار فيقلل من كميتها باكتساحه للغابات مثلا.

ومن المعلوم ان مياه الامطار تترشح في الارض الجرداء او تسيل على سطحها باسرع مما لو كانت مكسوة بغابات كثيفة فيقل بذلك التبخر ، و اذا قل تكاثف بخار الماء في منطقة واسعة بسبب انعدام غاباتها قلت امطارها كما هي الحال في في القسم الاكبر من تونس حيث يتقرب مناخها من المناخ الصحراوي بمقدار ماتفقد من حلتها النباتية . كذلك يساعد الدخان العالق في أجواء المدن الصناعية الكبرى مثل « لندن » على تكثيف الرطوبة الجوية وأحياناً على حدوث الضباب .

وقد يعمد المزارعون في مناطق زراعة الخضار والازهار الى احداث ضباب اصطناعي لوقاية المزروعات لفحة الشمس في الربيع ولفحة الصقيع في ليالي الشتاء . ويلاحظ المسافر المار من سهل الرون الاسفل صفوفاً من شجر السرو وحواجز مصنوعة من القصب مغروسة على شكل مربعات كبيرة على أطراف المزارع وفي وسطها لوقاية المزروعات من رياح « الميسترال » الباردة . وأخيراً نقول ان المسكن والثياب وأوائل التدفئة أو التبريد من شأنها ان تخلق جواً موضعياً معتدلا بالنسبة للوسط الخارجي القاسي .

٤ً – تأثير الانسان على المياه الجارية . – لقد تغلب الانسان على الانهار فنظم مجراها وحدد كمية مياهها وذلك لتحسين شروط الملاحة فيها ومنع طوفانها ؛ ولذا بنى أحواضاً واسعة تمتلىء وقت الفيضان وازدياد المياه ثم تعود



منجم للنحاس في ولاية « اوتاه » في الولايات المتحدة ويرى فيه الحفرة الهائلة التي أحدثها الانسان لاستخراج فلزات النحـــاس

آبار البترول بالقرب من ولاية لوس انجلوس ، ويرى في هذا الشكل تأثير الانسان في تبديل معالم الطبيعة حتى كأن الآبار (غابة كثيفة) في وسط السهل الفسيح

فتمد النهر في ايام الشح ، واستطاع كذلك ان يغير نظام المياه والرطوبة في المناطق بتجفيف المستنقعات كما جرى في فرنسا « منطقة الصولونيا » وايطاليا « منطقة البونتان Marais Pontins » وري المناطق الجافة بواسطة الاقنية والآبار العادية او الارتوازية .

وللماء في البلاد ذات المناخ الجاف أهمية كبرى لانه يعتبر بحق من اهم الثروات الطبيعية ، وقد ثبت بالتجربة ان التربة في هذه البلاد اكثر خصباً من تربة البلاد ذات المناخ الرطب ، لان هذه الاخيرة تفقد قسماً كبيراً من من أملاحها المخصبة بسبب كثرة الامطار ، بينما تحتفظ تربة المناخ الجاف باملاحها، فاذا ماسقيت اصطناعياً ، اعطت مردوداً رائعاً . وقد حسب العلماء ان الري الاصطناعي ضاعف تقريباً مساحة الارض المزروعة في العالم وأهم البلاد التي تستعمل الري الاصطناعي هي بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ثم بلاد مابين النهرين وتركستان والبنجاب ، كذلك استراليا وافريقية الشمالية والجنوبية . والسهول الغربية في الولايات المتحدة وكاليفورنيا والارجنتين والشيلي ، الى جانب محاصيل القمح والارز والذرة التي انتشرت في هذه البلاد بواسطة الري الاصطناعي ازدادت كميات الخضار والفواكه والقطن .

٥ – **تاثير الانسان على البحر** . – لم يعد البحر ، كما كان في الماضي ، عائقاً أو خطراً على الانسان ، فقد تغلب عليه أولا بالملاحة وقد بلغ تقدم الحضارة من هذه الناحية حداً رفيعاً ينم عنه حجم البواخر الضخم وسرعتها الكبيرة . والطرق البحرية الكبرى اليوم مطروقة كأكبر الطرق البرية وأهمها . وأوجد الانسان ممرات بحرية جديدة كترعة السويس وباناما وكيل وكورانت أما على الشواطىء ،

في بعض شواطىء هولندا ، كما أوقف تقدم الكثبان الرملية الشاطئية نحو الداخل وذلك بغرسها بأشجار الصنوبر تارة أو بقصب « الأويا Oyats » تارة أخرى (منطقة الفلاندر) . ثم شن الهجوم على البحر ليستعيد الارض التي طغى الماء عليها كما هي الحال في زويدرزه [1] Zuyderzée » .

٦ تأثير الانسان على النبات . ـ للانسان تأثير كبير على النباتات وبما أنه يستطيع تغيير تركيب التربة السطحية ونظام المياه لمنطقة من المناطق فلا يصعب عليه تغيير نباتاتها ولهذا نرى النباتات الخاصة بالتربة الحوارية تنبت في التربة السيليسية بعد مزج هذه الأخيرة بالكلس . كذلك غدت سهوب أمريكا الغربية الجرداء بواسطة الري الاصطناعي منطقة غابات وزراعة . هذا وتندثر بعض النباتات المضرة بفعل الانسان وإرادته ، ويذهب بعضها الآخر لسوء استثمارها .

كذلك ينقل الانسان بعض النباتات من وطنها أثناء هجرته وتنقلاته إلى مناطق أخرى . ويقدر علماء النبات ان اكثر من نصف النباتات المزروعة في العالم اليوم إنما هي في غير موطنها الاصلي . ويطلق تعبير « الزراعة » على مختلف الطرق التي يعمد اليها الانسان ليحصل على أحسن انواع النباتات واكثرها مردوداً وذلك بتأمين الشروط الطبيعية الاكثر ملاءمة لحياتها .

٧ — تأثير الانسان على الحيوان . ـ ما انفك الانسان منذ القديم يعمن

---

(١) اكتسب الهولانديون من البحر بين عام ١٥٠٠ ـ ١٩٠٠ ما ينوف على ٠٠٠ ؛ كم٢ من الاراضي .

في صيد الحيوانات حتى أن أنواعاً كثيرة منها اندثرت من بعض المناطق . فقد صيد عام ١٦٢٠م آخر ثور في اوروبا من النوع المسمى «اوروكس Aurochs»

وهو ثور على كتفيه لبدة كثيفة . ونقص عدد الثيران الاميركية المسماة « بيزون Bisons » نقصاً مريعاً منذ القرن السابع عشر . كما أن الفيل أصبح نادر الوجود في افريقية . كذلك اوشك الحوت « البالينا » على الانقراض في البحار المتجمدة الشمالية . كذلك الامر في الحيوانات المفترسة والمضرة كالاسد والدب والذئب والافعى التي هي في طريق الاضمحلال شأنها في ذلك شأن بعض الحشرات مثل البعوض والذباب والجراد التي يلاحقها الانسان من من غير هوادة. هذا بينما يزداد عدد الحيوانات الاهلية وتتسع مناطق انتشارها .

٨ً – هل من حد لتأثير الانسان على الطبيعة ؟ .

يقول « راتزل » «إن الوسط ينظم مقدرات الشعوب بقسوة عمياء» ومعنى ذلك ان تأثير الانسان على وسطه تأثير محدود . فالتربة مثلاً يمكن تحسينها بما يضاف اليها من مواد غير ان تركيبها العام يبقى على ما هو عليه . كما ان المعادن في باطن الارض لا تخضع لتأثير الانسان في تركيبها وكمياتها .

والعناصر الاساسية للمناخ تخضع لشروط ليس لنا عليها من قوة وبالتالي تخرج المياه والنباتات والحيوانات عن سلطة الانسان . واذا ماعلمنا أن البشر عنى بتأهيل (٤٠٠) نوع من النباتات من اصل (١٥٠٫٠٠٠) نوع معروف حتى اليوم كما عني بتربية (٢٠٠) نوع من الحيوانات فقط من اصل (٣) ملايين نوع ادركنا مدى تأثيره الضيق . وماذا نقول عن المصائب الكبرى التي تدمي

الانسانية كالزلازل والبراكين وانزلاق الجبال حيث يقف الانسان حيالها ضعيفاً مكتوف الايدي .

هذا وليس من وظائف الجغرافيا البشرية ان تبرهن ان الانسان خاضع للطبيعة او ان الطبيعة خاضعة لارادة الانسان ، وانما هي تكتفي بدراسة علاقات الجماعات البشرية بالوسط الجغرافي .

والحضارة انما هي استثمار جميع موارد الطبيعة ، حتى المخبؤ منها ، بذكاء ومهارة ، والطبيعة واحدة للانسان المتوحش والانسان المتمدن لكن هذا الاخير يستطيع ان يستثمر موارد لا يعرفها المتوحش بعد

نستنتج من كل ذلك ان الانسان مخلوق مرن يتلاءم مع كل البيئات و يستطيع بذكائه وعلمه واختراعه أن يعيش في جميع المناطق على سطح الارض .

لنأخذ خريطة تمثل توزع سكان العالم على سطح الارض ولنمعن النظر فيها فماذا نرى ؟

إن أول مايلفت النظر هو توزع السكان بشكل غير متساو ووجود فروق كبيرة بين منطقة واخرى من حيث درجة الكثافة ، وذلك تبعاً للشروط الطبيعية التي تسود في هذه المناطق والتي لا تناسب حياة الانسان بدرجة واحدة ، ولكن الشيء المهم هو اننا نلحظ أيضاً أن الانسان كائن يعيش في كل بقاع الارض ويمتد موطنه من خط الاستواء حتى الاراضي القطبية .

تعيش الجماعات البشرية في المناطق الاستوائية حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة ودرجة الرطوبة النسبية عالية أيضاً لذلك يكون الهواء الساخن الرطب خانقاً ، ويصعب على الجسم ان يفقد الحرارة عن طريق التعرق ذلك لأن

الهواء مشبع بالرطوبة فعلا ولا يستطيع أن يمتص من الرطوبة اكثر مما فيه . ولذا فان ارتفاع درجة الحرارة يؤدي الى التعرق المستمر فيتصبب العرق من جميع اطراف الجسم ويبلل الملابس ، واذا حدث ان انخفضت درجة الحرارة اثناء ذلك فان الانسان يشعر بضيق كبير ، لان تحمل انخفاض الحرارة في الجو الجاف اسهل بكثير من تحمله في الجو الرطب . وبالرغم من قسوة الشروط المناخية وسيطرة الغابة وكثرة الأمراض في البقاع الاستوائية فان جماعات بشرية كثيرة تعيش فيها وتتكاثر .

وتعيش الجماعات البشرية أيضاً في المناطق القطبية التي يسودها المناخ البارد وهي أقل أنواع المناخ ملاءمة لحياة الانسان فالحرارة تنخفض كثيراً في فصل الشتاء ولكنها لاترتفع كثيراً حتى في فصل الصيف وقد لوحظ أن درجة الحرارة تهبط في بعض البقاع القطبية وخاصة في القطب الجنوبي الى — ٧١° . أضف إلى ذلك أن التربة تبقى متجلدة حتى أعماق ١٠٠ م أحياناً ولا تستطيع حرارة الصيف الضعيفة أن تذيب منها الا الطبقات السطحية . وتهب في هذه البقاع عواصف ثلجية شديدة Le Blizzard تبلغ سرعتها ٢٠٠ كم في الساعة، ومع ذلك فان الانسان يتحمل هذه الشروط القاسية وتعيش فيها جماعات بشرية محلية متلاءمة كما يعيش فيها أفراد من المكتشفين .

وتسود البقاع الصحراوية شروط طبيعية قاسية. فالامطار قليلة والمياه بالتالي نادرة أيضاً ويرافق الجفاف اشتداد الحرارة في الصحاري الحارة والبرد في الصحارى الباردة ، وتكون البقاع الصحراوية عادة فقيرة بالمواد الغذائية ومع ذلك فان جماعات بشرية تسكن فيها منذ القدم .

وتكوّن الجبال بيئة خاصة تسود فيها شروط قاسية كالبرد والجفاف وانخفاض الضغط الجوي وتناقص كمية الاوكسجين في الهواء ومع ذلك فان جماعات بشرية سكنت منذ القديم ولاتزال تعيش في المرتفعات العالية . ومن الحضارات المشهورة التي قامت في جبال الآند مثلاً حضارة شعب الانكا . وهنالك مدن كثيرة تقع على مرتفعات كبيرة مثل Lhassa و Shigatzé في التيبت ويبلغ ارتفاع الاولى ١١٨٠٠ قدماً ويسكنها حوالي عشرين الفاً من السكان أما الثانية فتقع على ارتفاع ١٢٠٠٠ قدماً وبها ١٤٠٠٠ نسمة . وتقع كثير من مراكز التعدين في جبال الأند على ارتفاعات تفوق الارتفاعات المذكورة . فعمال منجم الكبريت في Aucanquilca في الشيلي يسكنون على ارتفاع ١٧٥٠٠ قدم بينما يوجد المنجم نفسه على ارتفاع ١٨٨٠٠ قدم . ويبدأ العمال عملهم اليومي بالصعود ١٣٠٠ قدم فوق الرمال المستورة بمسحوق الكبريت ويستطيع هؤلاء العمال أن يقوموا في المنجم بعمل يساوي مايقوم به الرجل العادي عند مستوى سطح البحر ، وبعد العمل اليومي الشاق يقضون امسياتهم في ممارسة رياضة كرة القدم على ارتفاع ١٧٠٠٠ قدم .

وأول سؤال يرد الى خاطرنا بعد رؤية الجماعات البشرية التي تعيش في بيات مختلفة ذات شروط مناخية متباينة تماماً هو السؤال التالي :

كيف يتحمل نوع بشري واحد شروطاً طبيعية متباينة كل التباين كالشروط التي تسود المناطق الاستوائية والبقاع القطبية مثلاً .

والجواب على ذلك أن الانسان كائن مرن يستطيع جسمه أن يقوم بعمليات فيزيولوجية معينة لتحمل شروط مختلفة كافراز العرق عند اشتداد الحرارة

واسراع أو توقيف عملية الاستقلاب métabolismeإ تبعاً لدرجة الحرارة ، عدا عن الغدد الصماء التي تلعب دوراً كبيراً في هذا الصدد .

أضف الى ذلك أن عقله يساعده على تكييف غذائه وملبسه ومسكنه تبعاً للظروف التي تحيط به . فغذاء وملبس ومسكن الزنجي في البقاع الاستوائية يختلف عن غذاء وملبس ومسكن سكان الصحاري الجافة كما يختلف عن مسكن وملبس وغذاء سكان المناطق الباردة .

إن الانسان نوع من الكائنات الحية ويصف M. S. Anderson الانسان في كتابه جغرافية الكائنات الحية geography of living things بقوله : « الانسان مخلوق يستطيع أن يعيش في انواع مختلفة من الشروط الطبيعية أكثر مما يستطيع أي مخلوق آخر ، ويعينه في ذلك عدم تخصص جسمه من جهة وعقله الممتاز من جهة أخرى ، ذلك العقل الذي يحتال بطرق شتى ليجعل من البيئة القاسية بيئة اخرى اصطناعية تسهل فيها الحياة الى حد كبير .

ولكي يقوم الدماغ بوظيفته خير قيام يجب أن تكون بيئته الداخلية ، الطبيعية منها والكيماوية ، ثابتة مستقرة ، فاذا هدد هذا الاستقرار الداخلي ظروف خارجية شديدة التطرف ، استعان الجسم عليها بمختلف انواع الاستجابات الفيزيولوجية الوقائية أولاً ، فاذا ما استمرت تلك الظروف في تطرفها فان الجسم يلائم نفسه معها عندئذ عن طريق تغييرات اكثر بقاءً واستمراراً تحدث في بقية الجسم بل وفي فيزيولوجيته .

إلا أن هذه المقدرة القيمة على التلاؤم تفقد بعض مرونتها اذا ظلت تعمل زمناً طويلاً لذلك فان الناس الذين تلاءموا مع الحياة في ظروف معينة

لايحسون بالسعادة في غيرها وعندما لايتمكن الانسان من التلاؤم الفيزيولوجي مع مناخ ما فانه يخترع من الوسائل مايمكنه من تحسين ظروف معيشته ، وما الملابس والمدافيء والمراوح الكهربائية ومكيفات الهواء والثلاجات الكهربائية وغير ذلك من المخترعات الا نتيجة لصراعه المتواصل ضد المتاعب التي يتعرض لها جسمه .

وهكذا فان الانسان ينشيء مناخاً مصغراً micro climate داخل مسكنه ، واذا ما اضطر الى الانتقال الى مكان جديد لايوافقه مناخه فانه يستطيع أن يتبع الوسائل التي يتبعها المواطنون الذين ولدوا وعاشوا في ذلك المناخ طيلة حياتهم وذلك يخفف عنه الشعور بالضيق .

* * *

الفصل الثالث

ظهور الانسان على سطح الارض

وبشرية ماقبل التاريخ

لاتقتصر دراسة البشرية في عصور ماقبل التاريخ على علم التاريخ فقط وانما هي تتبع أيضاً علم الجغرافيا البشرية . وذلك لأن البشر لم يكن قط في دور من الادوار خاضعاً لشروط الوسط الطبيعي كما كان في حقبة ماقبل التاريخ حيث كان الصراع عنيفاً بينه وبين عناصر الطبيعة من جهة وبينه وبين نباتها وحيوانها من جهة ثانية . وقد استطاع الانسان القديم بفضل جهوده الجبارة أن يتطبع تدريجياً بمختلف الاوساط الطبيعية على وجه الارض وأن يتغلب على الحيوان والنبات واستفاد منهما ومن وسطه الطبيعي في تأمين مقومات حياته المادية . ولنتساءل الآن في أي زمن من الأزمان الجيولوجية ظهر الانسان وعلى أية صورة ظهر ؟؟

لقد ثبت أخيراً أن ذوات الثدي وذوات الفقرات ظهرت في الزمن الثالث؛ ولكن هل كان الانسان في عدادها ؟ زعم بعض العلماء ذلك مستندين على بعض المكتشفات :

أولاً . — وجود بعض الاخاديد والنقوش على عظام حيوانات من الزمن الثالث اكتشفت حديثاً . ويعتقد هؤلاء العلماء أن هذه الاخاديد والنقوش انما حفرت على عظام كانت بعد في حالة غضة طرية .

ثانياً . — اكتشاف عظام بشرية في طبقات من أراضي الزمن الثالث ووجود بعض الاحجار التي أصابها ، كما يظهر ، شيء من التسوية من قبل الانسان القديم لجعلها صالحة لبعض الاستعمالات . لكن هذه المكتشفات كانت واسطة جدل بين العلماء لما ينته بعد . والتفسير الذي أعطي لها من قبل بعضهم هو من قبيل الفرض أكثر مما هو من الدليل العلمي القاطع .

غير أن وجود الانسان في الزمن الرابع أصبح اليوم أمراً لايقبل الشك وذلك بعد أن اكتشف في الاراضي الرباعية كثير من العظام البشرية ومن الادوات المصنوعة بيد الانسان .

هذا وقد سعى عدد من علماء الجولوجيا وعلماء المستحاثات وعلماء الفلك لتقدير عدد القرون التي مرت منذ بدء الزمن الرابع ، فأدى ذلك الى تقدير متفاوت إذ قدر بعضهم هذا الزمن بمائة وخمسين الف سنة كحد أدني ؛ بينما لم يستطع بعضهم الآخر وضع رقم يحدد فيه بدء هذا الزمن .

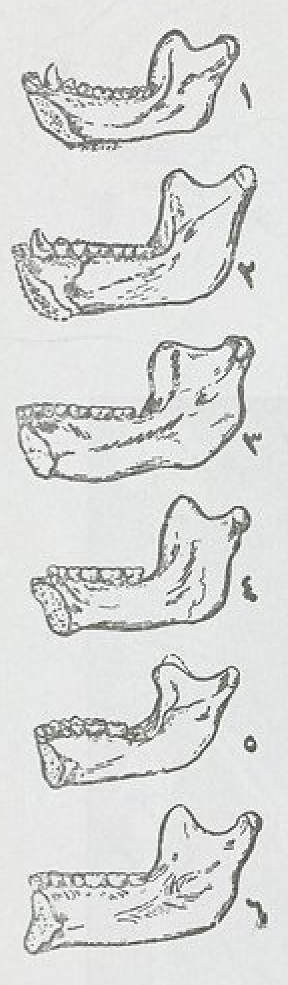
أما الصورة التي ظهر عليها الانسان الاول فقد اختلف العلماء أيضاً في تقريرها وتعود مجمل الفرضيات التي تتعلق بأصل الانسان الى اثنتين :

الفرضية الأولى تقول بان الانسان ظهر على وجه الأرض على ما هو عليه الآن من الصفات التي تميزه عن بقية ذوات الثدي .

ويقول أصحاب الفرضية الثانية ان الانسان انحدر من شكل سابق وبعد

تطور بطيء اكتسب الصفات الخاصة بـه الآن (نظرية التطور لداروين ولامارك) .

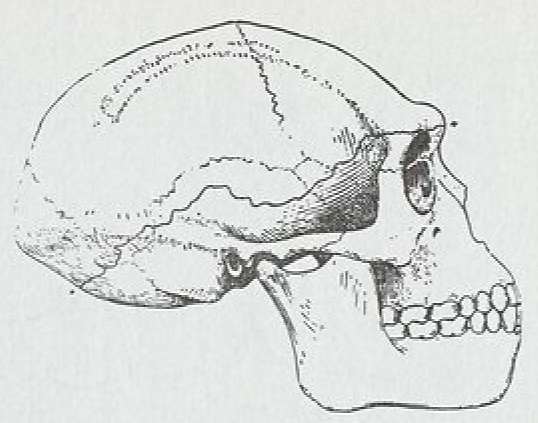
ويعتقد أصحاب نظرية التطور أن هناك بعض أواصر القربى بين الانسان الأول البدائي وبين بعض القردة التي لها هيئة الانسان لتشابه التشكل في الجمجمة وتقارب الصفات بين بعض أقسام الهيكل العظمى عند الطرفين . ويدعمون نظريتهم ببعض المكتشفات التي وجدت في جزيرة جاوا عام ١٨٩١ والتي تكاد تثبت وجود شكل متوسط بين هذا النوع من القردة وبين الانسان ، غير أن حلقة الاتصال المباشر بين هذين النوعين البدائيين لم تثبت بعد . زد على ذلك أن الباحثين من العلماء لم يستطيعوا حتى الآن أن يتفقوا على تحديد عمر لهذه البقايا من العظام ولكل واحد منهم رأي ونظرية تخالف الآخر .



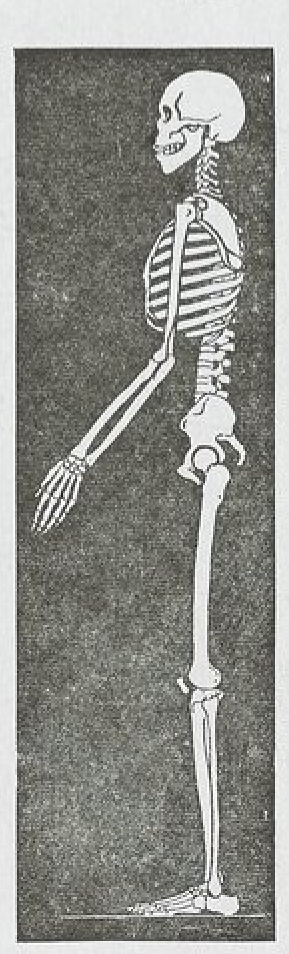
شكل (١) مقارنة بين مجموعة من الفكوك السفلية لبعض القردة وللانسان في مختلف الادوار الجيولوجية .
(١) شامبانزي (٢) انسان بيلدوان (٣) انسان هايدلبرغ (٤) و (٥) انسان نياندرتال (٦) انسان كرومانيون

رغم هذا كله فقد أدى البحث والتنقيب الى العثور على عدة أشكال من الجماجم والهياكل العظمية البشرية يظن أنها تدل على تطور الانسان منذ وجد حتى الحال التي هو عليها اليوم ، ولا نعرف في حدود معلوماتنا اليوم عن الانسان الأول إلا

شكل – ٢
جمجمة بثرية للانسان القرد Pithecantrope ويظهر فيها امتداد الجمجمة المتطاولة الى الخلف وبروز الفكين ونظم الحاجب .

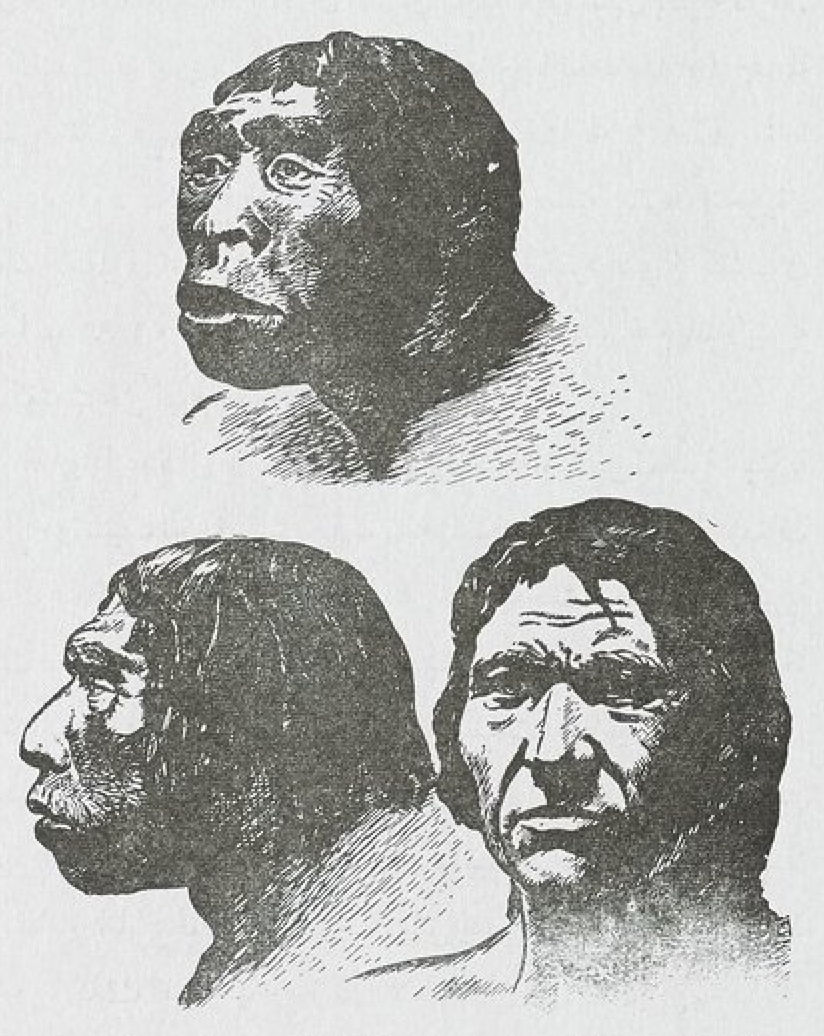






شكل – ٣
مقارنة بين الهيكل العظمي لانسان « نياندرتال » وللانسان العادي في العصر الحاضر

الشيء اليسير . وقد اكتشف أحد العلماء في « موير Mauer » في الغرب من « هايدلبرغ » عام ١٩٠٧ عظم الفك الأسفل لجمجمة بشرية يظن



شكل (٤) ثلاث نماذج من العروق البشرية التي اندثرت في العصور القديمة . النموذج الاول العلوي يمثل انسان جاوا او الانسان - القرد Pithecantrope والنموذج الثاني الايسر يمثل انسان « نياندرتال » والنموذج الثالث انسان كرو - مانيون

أنها ترجع الى أوائل الزمن الرابع لما يرافقها من مستحاثات هذا الزمن .
غير أن عظام الحنك المفرطة في عرضها وانعدام الذقن يخيل للناظر كذلك
الى هذا الفك أنه فك قرد الا أن الاسنان العالقة به هي أسنان بشرية صرفة .
اكتشفت في « بروكن هيل » في روديزيا البريطانية عام ١٩٢١ جمجمة
بشرية تغلب عليها الصفات الحيوانية . كما اكتشفت عام ١٩٢٩ في مغارة
قرب مدينة « بكين » في الصين عشرة هياكل عظمية بشرية متحجرة ،
الفك الأسفل في كل منها يشابه الفك الأسفل للانسان القرد الذي اكتشف في
جاوا عام ١٨٩١ . ويعتبر العلماء هذه الهياكل العشر كأنها أقدم عظام بشرية
اكتشفت حتى اليوم .

هذا واذا عدنا الى تاريخ اكتشافات الجماجم والهياكل العظمية البشرية
القديمة وتصنيف العروق البشرية حسب هذه المكتشفات نجد أول اكتشاف
حدث عام ١٨٥٦ في مغارة تدعى « نياندرتال [١] » حيث وجدوا جمجمة بشرية
ذات صفات خاصة . ومنذ ذلك الحين حصلت عدة مكتشفات في بلجيكا
واسبانيا وفرنسا لجماجم بشرية لها نفس الصفات الاساسية ولذا اطلق على
عصور ماقبل التاريخ اسم عرق نياندرتال Néanderthal على الانسان الذي
تتوفر فيه الصفات الآتية : قامة قصيرة ومستقيمة تقريباً ، ورأس منحن قليلا
الى الامام ، اما الجمجمة فمتطاولة مع جبين مائل ينتهي بعظم الحاجب وهو غليظ
وبارز ، كذلك الفم واسع وبارز الى الامام .

ويعتقد الاستاذ « بول Boule » ان لانسان نياندرتال بعض الصفات

---

(١) في وادي نهر الدوسيل Dussél أحد روافد نهر الرين .

الحيوانية وله عقلية بدائية ارفع من عقلية انسان « جاوا » لكنها احط من عقلية اي عرق بشري على سطح الارض في الزمن الحاضر . واعقب ذلك عام ١٩٠١ اكتشاف هيكلين عظميين لعرق بشري ارقى من عرق نياندرتال في غريمالدي Grimaldi قرب مدينة مانتون على الحدود الافرنسية الايطالية . اذ نجد القامة هنا اطول والجبين محدباً وعظم الحاجب اقل بروزاً وغلظة . كذلك اكتشف هيكل عظمي لعرق بشري آخر اكثر تطوراً من انسان غريمالدي يسمى باسم المغارة التي اكتشف فيها عام ١٨٦٨ « كرو ـ مانيون Cro-Magnon » في مقاطعة الدوردونيا في فرنسا . يمتاز هذا العرق بطول القامة وقوة الجسم . له جبين مرتفع ومحدب ، اما الفم وعظام الفك فلم تزل بارزة كانسان نياندرتال . ولكن لاتوجد فيه تلك الصفات الحيوانية الموجودة في انسان نياندرتال .

٣ – عصور حياة ماقبل التاريخ

لقد تطورت البشرية ببطء وتطبعت بشروط الوسط الطبيعي كما رأينا تطورها من حيث تركيبها الجسماني . ويمكن ان نميز في غضون هذا التطور عدة عصور تختلف عن بعضها بحسب اهلية انسان ماقبل التاريخ على استثمار موارد الطبيعة ولكن يصعب تحديد هذه العصور بدقة ووضوح رغم مرور الشعوب البدائية بمراحل متشابهة وذلك لتماثل حاجاتها ومواردها . لم يكن السير نحو الحضارة واحداً بين الشعوب اذ بينها من حظته الطبيعية ذكاء فطرياً ومناخاً معتدلا وارضاً طيبة فسار شوطاً بعيداً في معارج الحضارة بينما لايزال بعضها يعيش حتى اليوم حياة بدائية . لهذا لا يمكن ان نتكلم عن العصر الحجري

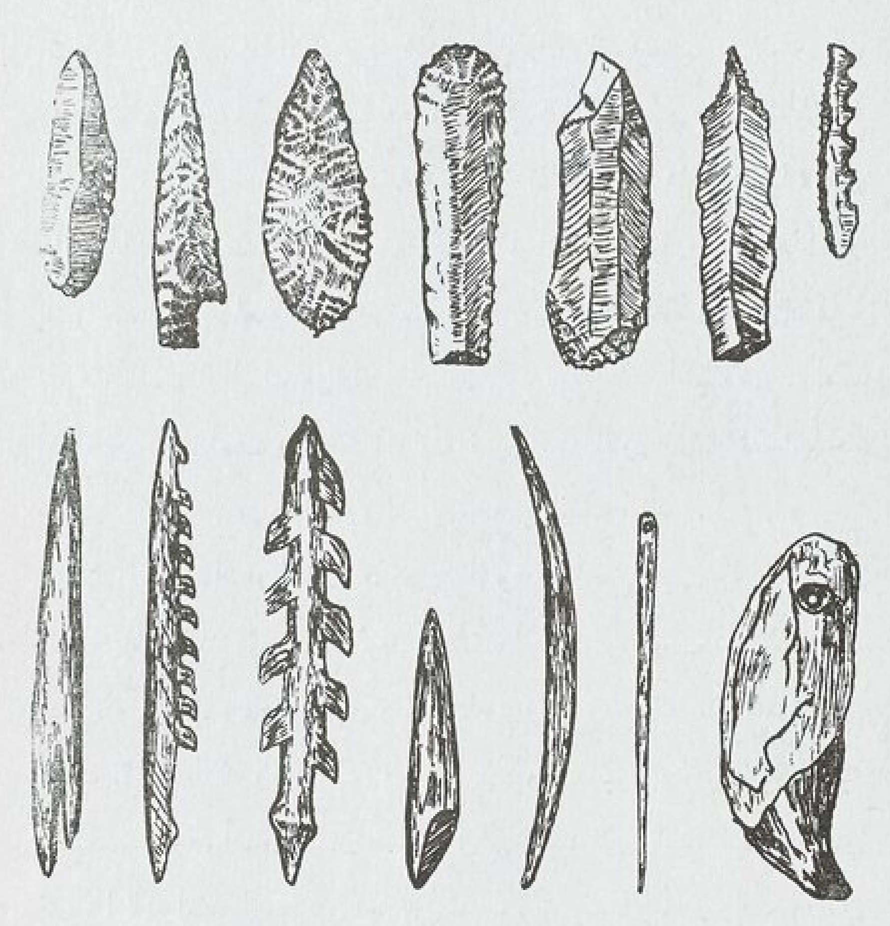
او عن عصر النحاس فنحدده و نطلقه على جميع شعوب الارض . ففي العصر الذي انتشرت فيه الحضارة في بلاد الشرق وأخذت مصر في استعمال المعادن الثمينة والمفيدة كانت بلاد « الغول » أي فرنسا اليوم تعيش بعد حياة العصر الحجري . كذلك اليوم ، الى جانب مابلغته الشعوب الاوروبيـة والاميركية من الحضارة الرفيعة نجد شعوباً لم تزل تعيش حياة بدائية وحشية كأنها لم تزل في عصور ماقبل التاريخ . لذا فان تقسيم وتحديد عصور ماقبل التاريخ من قبل علماء الغرب كان بالنسبة لشعوب اوروبا الغربية لا بالنسبة للبشرية بمجموعها.

والاسس التي بنى عليها هؤلاء المؤرخون تقسيم عصور ما قبل التاريخ تستند أولاً على اختلاف مادة الادوات التي استعملتها الشعوب البدائية . ثانيـاً تستند على الترتيب الذي وجدت فيه هذه الادوات في طبقات الاراضي المتوضعة فوق بعضها . وقد احتفظ علماء الجغرافيـا بنفس التقسيم الذي وضعه علماء التاريـخ غير انهم وجهوا اهتمامهم بصورة خاصة الى طراز حياة هذه الشعوب البدائية والى شـكل سكنها . اما هذه الاقسام فثلاثة :

١ ـ عصر الحجر المنحوت
٢ ـ عصر الحجر المصقول
٣ ـ عصر المعادن

عصر الحجر المنحوت ـ ويقسم الى ثلاثة ادوار . يمتاز الدور الاول من هذا العصر بمناخ حار رطب وغابات كثيفة وحيوانات ضخمة الجثة . وكان يعتمد الانسان في هذا الدور لتأمين غذائه ، على الصيد في الغابات وعلى قطف الأثمار وعلى بعض النباتات . ويظن انه كان يتسلق الاشجار يعيش عليها او يسكن

في اكواخ مصنوعة من الاغصان ، وكانت ادواته بسيطة محدودة مصنوعة من الحجر اهمها حجر من الصوان حاد الرأس ذو قبضة يستعمل كسلاح له أهميته من حيث كتلته ووزنه اذا كان في يد قوية مفتولة العضلات .

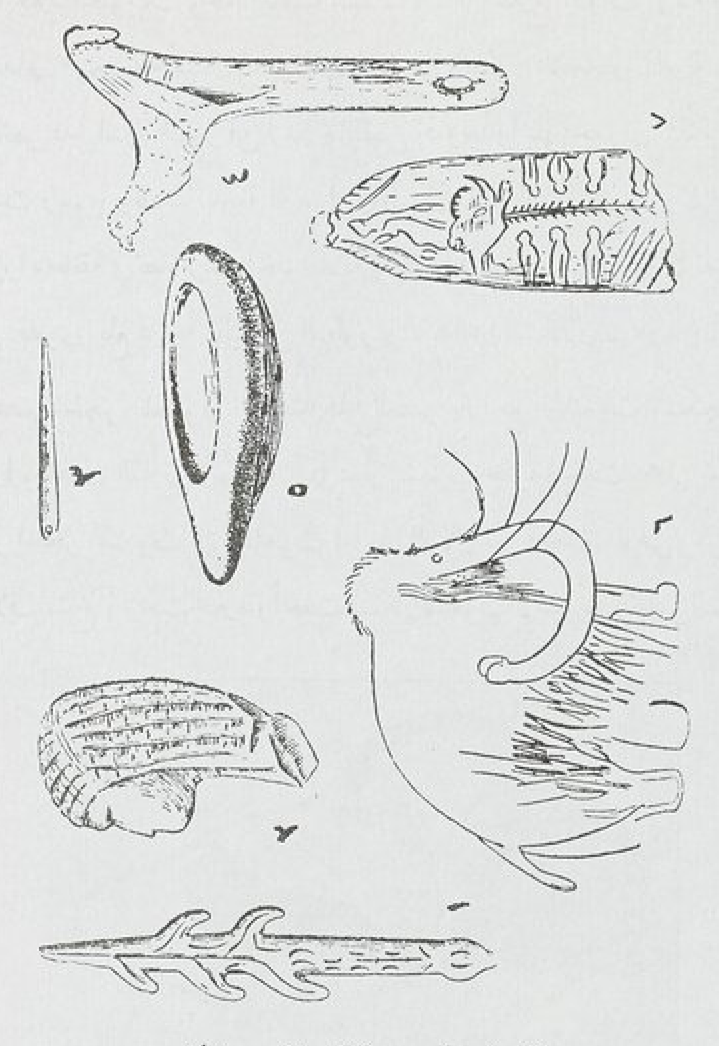


الشكل (ه) ادوات العصر الحجري المتقدم

في الاعلى أدوات صوانية ذات شفرات حادة وهي عبارة عن حربات وقواطع .
في الاسفل أدوات عظمية وفيها الابرة والخرز والحربة وصنارة صيد السمك .

اما الدور الثاني فـكان المناخ فيه بارداً ورطباً تشكلت فيه الجليديات ؛ فهاجرت حيوانات الدور الاول المدارية وانقرض القسم الاكبر منها وظهر بدلاً عنها الماموت وبعض انواع من الثيران ، كما بقيت الغابات غير أن أجناس أشجارها تغيرت . أما الانسان من عرق نياندرتال فقد انقلب من نباتي الى لاحم يتغذى بالحيوانات التي يصطادها ويستعمل النار في تحضيرها وذلك استناداً الى ما اكتشف في مدينة « موستيه » Moustier في فرنسا « دوردونيا » الى جانب الهيا كل العظمية من ادوات الصيد واثار المواقد . وكان انسان هذا الدور يعيش متنقلا يرتاد امكنة الصيد والقنص ويأوي بسبب البرد الشديد الى السفوح المعرضة للشمس والى المغاور والكهوف . ويرتدي جلود الحيوانات . اما أدواته فكانت اخف وزناً من ادوات انسان الدور الاول لكن شفراتها أحد وأقطع . كما اخترع في هذا الدور الحربة الحجرية المثلثة الرأس .

بقي المناخ في الدور الثالث كما كان في الدور الثاني من حيث برودته الا انه أصبح جافاً كمناخ القطب. فاندثرت الغابات وانقلبت الى سهوب ذات شجيرات قصيرة وأعشاب ترعاها الوعول والماعز البري وانواع من الثيران . أما العرق البشري في هذا الدور فهو الذي وجد في « كرو ـ مانيون » وهو عرق يشبه الاسكيمو . وقد أضاف انسان هذا الدور الى الصيد البري الصيد البحري الذي كان يزاوله بواسطة الرمح ذي الحربة المثلثة ؛ وبقي يقيم في المغاور والكهوف في الفصل البارد ، وفي الأكواخ في الفصل الدافيء ، وكثرت أدواته في هذا الدور وتنوعت موادها فكانت تصنع من حجر وعظم وعاج ومن قرون الحيوانات واخترع السكين والخنجر والسهم والرمح والمنشار والابرة (الشكل ـ ٦) ،

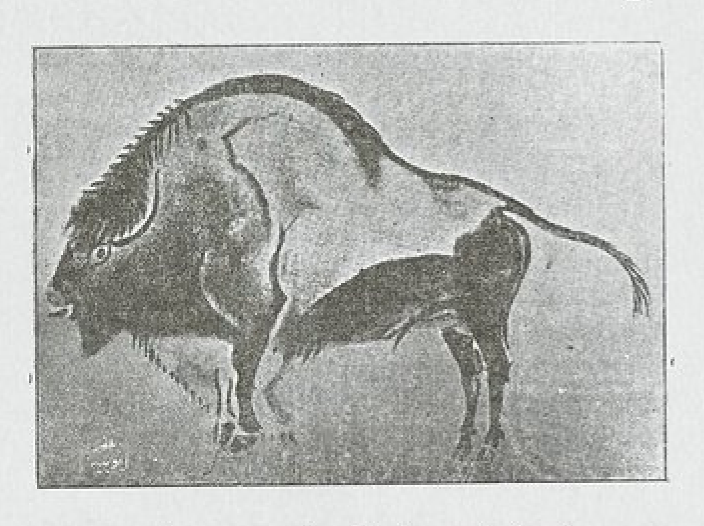


شكل (٦) فن ومهن في العصر الحجري المتأخر

(١) حربة لصيد السمك (٢) رأس امرأة منحوت من العاج (٣) ابرة من العظم (٤) آلة للقزف تستعمل في الصيد مصنوعة من قرن الوعل (٥) سراج حجري وجد في فرنسا (٦) ماموت منقوش على جدار أحد الكهوف في فرنسا (٧) قطعة من عظم ينقش عليها الصياد عدد الحيوانات التي اصطادها وانواعها .

فخاط جلود الحيوانات وجعل لنفسه منها ثياباً ، كما اخترع أدوات الزينة من الأصداف البحرية وأسنان الحيوانات المفترسة وبعض الاحجار الملونة . ومن خصائص هذا الدور ظهور فن الرسم والنقش إذ وجدوا على جدران المغاور التي سكنت رسوماً ونقوشاً بديعة للوعول والخيول والثيران والماموت وكلها تدل على براعة فائقة في تصوير هذه الحيوانات وإظهارها في أوضاعها المختلفة كما تدل على حسٍ فطري بلغ درجة عالية من التطور والابداع (الشكلان ـ ٧و٨) .

عصر الحجر المصقول .ـ يمتاز هذا العصر بتراجع الجليديات الكبرى في اوروبا وبجفاف القارة الآسيوية ، كما يمتاز بشعوب جديدة حلت محل شعوب عصر الحجر المنحوت التي هاجرت إما الى الشمال مع قطعان الوعل على أثر اختلاف المناخ أو نزحت مجبرة وأخلت المكان للشعوب الآسيوية الآتية من الشرق.



شكل (٧) من مخلفات الفن البشري في عصر الوعل
صورة الثور الوحشي كما رسمها الانسان في عصر الوعل على جدار احدى المغائر في اسبانيا ، الصورة متعددة الالوان (عن بول وبيفنو)

وقد أدخلت هذه الشعوب الجديدة الى أوروبا طراز حياة جديدةفاستألفت الحيوان واستخدمته كالكلب والماعز والغنم والبقر والحصان كما بدأت زراعة الأرض بالقمح والشعير وغرس بعض الأشجار المثمرة ، ولكنها لم تترك قطف الأثمار البرية وصيد الحيوان والاسماك . ولا بد أن نذكر ماوصلت اليه هذه الشعوب من اتقان في فن تحضير الطعام إذ كانت تطحن القمح بالرحى وتستعمل الدقيق لصنع الخبز . ولما أقام الانسان على قطعة من الأرض واستقر عليها وتملكها تجمع للدفاع عن أرضه وتشكلت القرى مؤلفه من أكواخ متجمعة تارة على رأس أكمة صخرية وتارة في وسط بحيرة تتصل بالبر بواسطة جسر متحرك كما كانت الحال في السافوا وسويسرة .

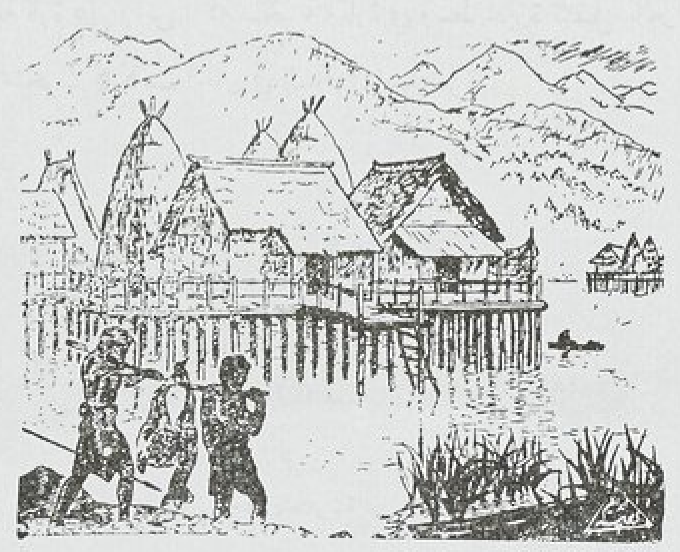


شكل (٨) رؤوس وعول منقوشة على قطعة من العاج من عصر الوعل

أما أدوات انسان هذا العصر فكثيرة منها ما كان من الحجر المنحوت ومنها ما كان من الحجر المصقول بواسطة الحك والدلك بالرمل والماء . كذلك كان يعرف صناعة الأوعية الفخارية و نسج الكتان وصنع القوارب وشباك الصيد . هذا وقد دشن انسان هذا العصر الصناعة الكبرى في سبيل التصدير والتجارة.

وكانت له عبادات دينية يستدل عليها من تلك الأحجار الضخمة المغروسة في أماكن كثيرة من أنحاء العالم القديم لا سيما في أوروبا الغربية .

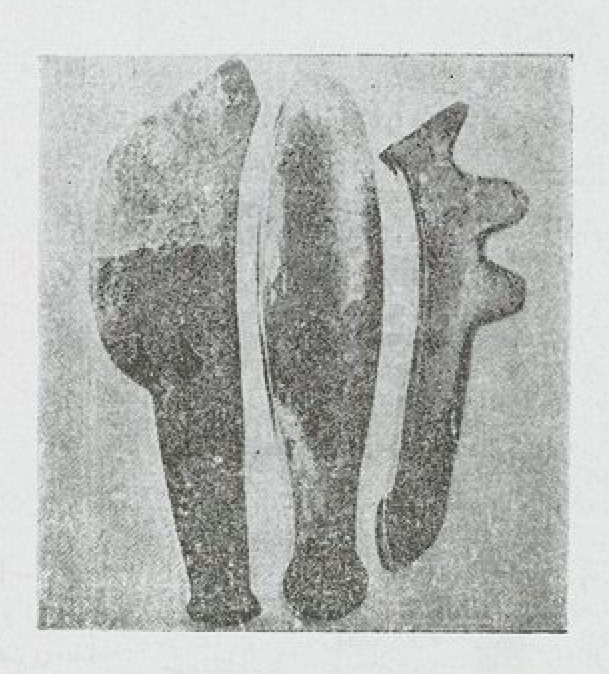
عصر المعادن . — ابتدأ هذا العصر الحضاري الأول في بلاد الشرق وأول معدن استعمل هو النحاس وذلك لقساوته النسبية وسهولة ارجاعه . واذا ما سُخّن وطرق صلح لصنع أدوات كثيرة كالفؤوس والخناجر والحلي . غير أن هذه الأدوات النحاسية لم تبطل الأدوات الحجرية فجأة أو الأدوات المصنوعة من العظام أو العاج وانما ادخلت عليها تعديلا ولم تبطلها الا شيئاً فشيئاً، ثم اكتشف



شكل (٩) قرية مؤلفة من عدد من الاكواخ بنيت على أخشاب في وسط البحيرة إتقاء لخطر الزواحف والوحوش والأعداء

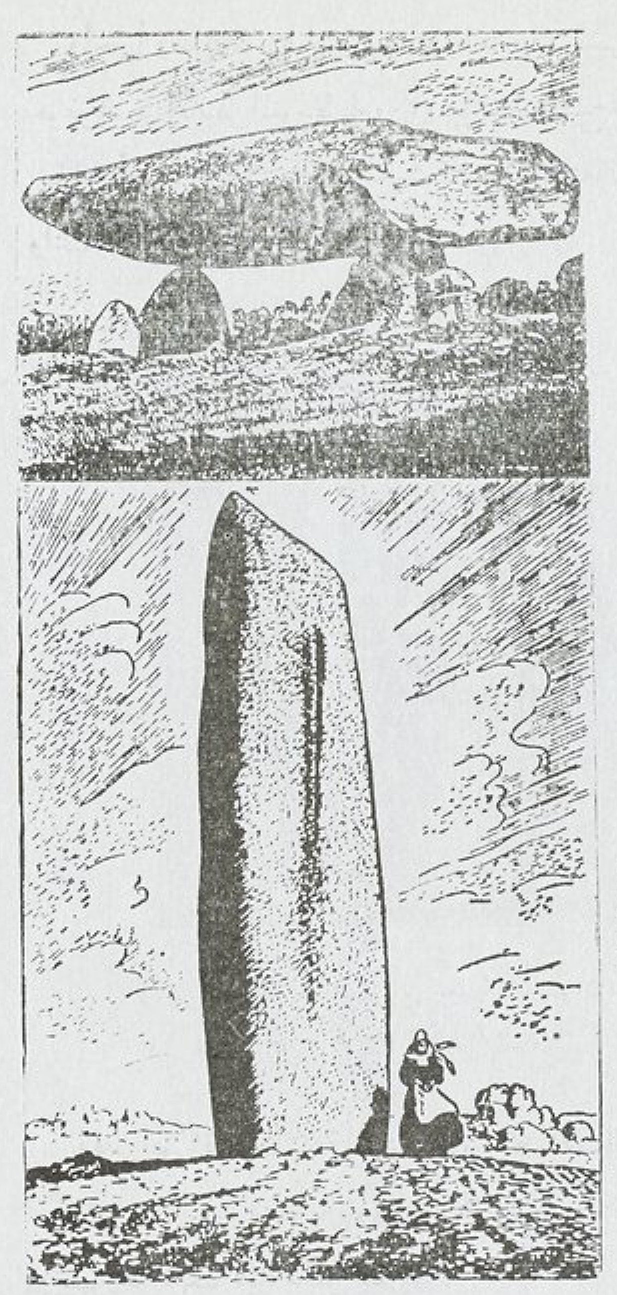
انسان هذا العصر أن خلط معدن النحاس مع معدن القصدير يعطيه معدناً جديداً أسهل صنعاً وأكثر صلابة ، وهكذا انتشرت الأدوات المصنوعة من « البرونز » وشاع استعمالها .

وأخيراً وصل معدن الحديد الى اوروبا من بلاد الشرق وكان يصنع في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط عام ١٢٠٠ قبل ميلاد المسيح، ثم دخلت صناعته الى ايطاليا فأوروبا الوسطي والغربية حيث كانت تصنع منه السيوف الطويلة والسهام والخناجر والأدوات المنزلية .



شكل (١٠) فؤوس حجرية من الصوان مصقولة
بواسطة دلكها بالرمل والماء

وقد رافق انتشار صناعة المعادن تقدم الصناعات النسيجية والخزفية التي زدات في رفاه الحياة البشرية . وفي هذه الاثناء ظهرت الكتابة في بلاد الشرق وبظهورها انتهت حياة ماقبل التاريخ .



الشكل (١١) أحجار ضخمة غرسها الانسان في الارض في أماكن العبادة لاسيا في منطقة «بروتانيا في فرنسا .

الفصل الرابع

أنماط الحياة

يعمد الانسان لتأمين حياته المادية الى طرق مختلفة لاستثمار موارد الطبيعة وتختلف طرق هذا الاستثمار ويختلف عددها بالنسبة الى امكانات الوسط الاجتماعي والطبيعي وبالنسبة الى مؤهلات الانسان الشخصية وعاداته . وقد أطلق العلماء اسم نمط المعيشة أو الحياة على شكل الحضارة الناتج من هذا التعاون بين الانسان والوسط الطبيعي . وهذا ما أشار اليه فيدال دو لا بلاش عندما قال « استطاع الانسان ، بعد محاولات عديدة وتجارب كثيرة ومعرفة قديمة ورثها منذ مئات الاجيال وما زالت تتجدد وتتسع كل يوم بما يضاف اليها من اكتشافات ومخترعات ، وبفضل الأشياء والمواد المختلفة التي وجدها في الطبيعة المحيطة به ، أن يوجد لنفسه نظاماً يؤمن له حياته ، ويكوّن له وسطاً خاصاً » .

وقد عمل علماء الاقتصاد على تصنيف مختلف الحضارات مقتصرين في ذلك على الشكل الذي يعمد اليه الانسان لتأمين غذائه بما يستطيع أن يحصل عليه من المواد الاولية الموجودة في الطبيعة . ففرقوا بذلك بين الشعوب التي تعيش من قطف الأثمار البرية وبين التي تعيش من ممارسة الصيد البري أو الصيد

البحري والنهري كذلك ميزوا بين الشعوب الرعاة والشعوب الزراعية والصناعية وقد احتفظ علماء الجغرافيا بهذا التصنيف مع التحفظات الآتية :

١ – ان لايوجب هذا التصنيف تتابعاً تاريخياً حتميا في تطور الحضارات . إذ ليس هنالك انتقال حتمي من مرحلة أولى الى مرحلة ثانية . وإنما حسب الظروف والمناطق قد يكون الصيد أو تربية المواشي أو الزراعة هي المرحلة الاولى من مراحل الحضارة . فتأهيل الحيوان وتربيته ليست ناشئة حتما عن الصيد البري ، مرحلة سابقة لها ، إنما قد يوجد عند الشعوب البدائية الزراعية فاليابان مثلا لم تمر بمرحلة الشعوب الرعاة ، والمهاجرون الفرنسيون الذين ذهبوا الى كندا في القرن السابع عشر عاشوا في بادىء الامر كصيادين متنقلين رغم انهم كانوا في بلادهم الأصلية يعملون في الزراعة .

٢ – أن لايجعل هذا التصنيف درجة الحضارة تابعة لنوع من انواع الحياة ومعنى ذلك أن الشعوب الزراعية المتأخرة قد لاتكون أرفع حضارة من الشعوب التي تزاول الصيد البري أو البحري . كما ليس من الضروري ان تكون الشعوب الرعاة أدنى حضارة من كل الشعوب الزراعية .

٣ – أن لايكون لهذا التصنيف صفه مطلقه . إذ يمكن تقسيم كل شكل من أشكال الحضارات الى درجات . ومن السهل أن نميز بين الشعوب الزراعية المتأخرة كما هي الحال في أواسط افريقية وبين الشعوب التي تمارس الزراعة على شكل البستنة وتوليها الكثير من العناية كما في الصين واليابان وبين الشعوب الزراعية الراقية التي تستخدم في عملها الآلة والأسمدة الكيماوية والادوية المبيدة

للحشرات وتسلك كل الطرق الفنية لتحصل على أكبر مردود ممكن كما هي الحال في أمريكا وكندا وفي بعض الدول الاوروبية .

٤ – يعتبر علماء الجغرافيا أن نوع الحياة لشعب من الشعوب ليس فقط نتيجه ضرورية لشكل التغذية التي يتبعها هذا الشعب وإنما هو أيضا نتيجة العادة والذوق مما يدفعه لتفضيل نوع من الغذاء على نوع آخر. فقبائل « البيكمه » مثلاً تعيش من الصيد البري بينما قبائل « البانتو » تعيش من الزراعة وتربية المواشي وذلك رغم تجاورهم في المكان . ويعيشون منعزلين عن بعضهم بسبب التنافر بين أذواقهم وعاداتهم ومؤهلاتهم

٥ – أن يضاف الى انماط المعيشة المعروفة نوع جديد ظهر في العالم الحديث هو نمط الحياة الصناعية .

ولنستعرض الآن انماط الحياة المختلفة مع بيان مميزات كل منها :

أولاً – حياة الصيد البري والبحري وقطف الاثمار :

كان قطف الأثمار والتغذي بالنباتات أول شكل من أشكال التموين عند الشعوب البدائية . ونجده حتى اليوم عند الاقوام المتمدنة التي تعمل في الزراعة وتربية المواشي . ولكن من الصعب أن نجزم بوجود شعوب عاشت فقط من قطف الأثمار والتغذي بالنباتات البرية من غير أن يكون لديها وسائل لصيد الاسماك أو الحيوانات البرية . على اننا نجد حتى اليوم شعوباً بدائية تعيش فقط من موارد الصيد البري والبحري . ولنذكر بين هذه الشعوب غير الاسكيمو وسكان استراليا الاصليين وأقزام الغابة العذراء ، التي مر ذكرها قبائل « البوشيمان Boschimens » في أفريقية الجنوبية وزنوج جزر الهند

الشرقية . تجهل هذه القبائل ملكية الارض ولا يعتبرون إلا حق الصيد على قطعة الارض . يشتركون ويتعاونون في مواسم الصيد الكبرى ويقومون بطقوس من العبادات خاصة يعتقدون أنها تسهل لهم صيد الحيوان والفتك به .

أما الشعوب التي تعيش من صيد الاسماك ، رغم قلتها بالنسبة للاولى ،فهي متعلقة بالارض التي تعيش عليها ، يستدل على ذلك من كثرة بقايا الأصداف وأوائل الطهي التي وجدت بالقرب من بعض الشواطىء والتي يعود تاريخها الى أزمنة ماقبل التاريخ . ولا نجد اليوم مثل هذه الشعوب إلا قرب الانهار الكبرى والبحيرات في افريقية الوسطى وفي بعض جزر المحيط الهادي . على اننا نجد على بعض أنهار الصين الكبرى قرى كاملة من القوارب تنتقل من مكان الى آخر حسب ضرورات الصيد .

يعتبر الصيد البري والبحري بالنسبة لهذه الأقوام البدائية أساس في التغذية بينما هو بالنسبة للاقوام المتمدنة غذاء متمم لوفرة الانواع المختلفة التي يمكن أن تقوم مقام الصيد .

وقد نجد بين الشعوب البدائية من يجمع بين الصيد البري والبحري مثل الاسكيمو وزنوج جزر « أندامان » وهنود كولومبيا البريطانية ، او يجمع بين حياة الصيد وحياة الرعي كقبائل الطوارق وعرب السودان في افريقية أو بين قطف الأثمار والصيد البحري كسكان الجزر الاوقيانوسية .

أما الصيدعند الأقوام المتطورةفيقتصرعلى أنواع الحيوانات البرية ويستعمل الانسان المتمدن فيسبيل ذلك سلاحاً أشد فتكاحتى ان بعض أصناف الحيوان أوشكت على الانقراض كالحيوانات ذات الفراء في غابات روسيا الأوروبية

والفيلة الافريقية التي يقل عددها عاماً بعد عام حتى ان محصول العاج في منطقة الـكونغو في هبوط مستمر .

كذلك الأمر في صيد الحوت « البالينا » حتى ان الدول عقدت بينها اتفاقات وسنت قوانين خاصة لهذا النوع من الصيد .

ثانيا - حياة الرعي

عرّف أحد علماء الجغرافيا حياة الرعي بقوله « هي نوع من الحياة قام على الاستثمار الواسع للمراعي حيث تنتقل المواشي ، في فصول خاصة ، من منطقة الى منطقة مستصحبة معها القبيلة باسرها تارة وتارة رعاتها وحراسها فقط » .

أما تربية المواشي في الحظائر كما هي الحال في هولندا والدانيمرك فليست من حياة الرعي في شيء . كما ان الاستثمار الواسع للمراعي لا يتطلب حتما من السكان أن يعيشوا حياة الرعي كما هي الحال في استراليا وأمريكا حيث أدخل الاستعمار تربية المواشي كالبقر والاغنام وحيث يجهل السكان هذا التنقل الفصلي المنتظم الذي هو من خصائص حياة الرعي . ويلاحظ هذا التنقل خاصة في بلاد العالم القديم . فاذا اشتركت فيه القبيلة بأسرها سمي بالترحل Nomadisme أما اذا كانت الرعاة فقط ترافق قطعان الماشية في تنقلها سمي بالتنقل Transhumance .

ويقيم الرحل في السهوب والبوادي يتنقلون فيها طلباً للكلأ ، وهذا التنقل فصلي سببه اختلاف المناخ بين أقسام المنطقة الواحدة المتباينة بارتفاعاتها وبعرضها الجغرافي، والأرض المخصصة لرعي المواشي تعتبر بعرف القبائل الرحل ملكالهم.

والغذاء الأساسي لهؤلاء الرحل هو اللبن واللحم يحصلون عليه من مواشيهم التي تؤمن لهم ايضاً الموارد الأولية لملبسهم كالجلود والاقمشة المنسوجة من شعر

الماعز ومن وبر الاغنام والابل ولمسكنهم كالخيام الصوفية وخيام الشعر .

ومن أشهر الشعوب الرحّل في العالم القديم الكبير غيظ والكالموك على شواطىء بحر الخزر وبدو البلاد العربية في آسيا وافريقية. ولا يقنع الرحل دائماً بنتاج انعامهم فيعمدون تارة الى زراعة بعض أنواع الحبوب السريعة النمو ، وتارة الى مبادلة قسم من انتاجهم بمحاصيل المناطق المجاورة الزراعية في أسواق منتشرة على حدود مناطق الرعي .

أما التنقل فهو حركة سنوية منتظمة تحصل عادة بين منطقتين متممتين لبعضهما من حيث الانتاج ، تفصل بينهما منطقة ثالثة تستثمر من نواحي اقتصادية مختلفة . ولا يرافق المواشي في تنقلها الا الرعاة لتكون الحركة سريعة ولاجتناب المنازعات مع أصحاب الأراضي التي ترعى فيها الماشية .

وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط تصلح بصورة خاصة لهذا النوع من التنقل لتباين المناخ الظاهر في فصل الصيف بين السهوب الداخلية الجافة المحرقة وبين المناطق الجبلية الرطبة القريبة منها .هذا ولحياة الرعي أنواع كثيرة مختلفة حسبما تكون تربية المواشي مرتبطة بمواسم الصيد البري أو الصيد البحري أو بالزراعة.

وبصورة عامة نلاحظ أن تقدم الحضارة يدفع اليوم الشعوب الرحل والمتنقلة الى الاقامة والتحضر بمقدار ما تسمح به الموارد المحلية من استثمار حثيث .

ثالثا الحياة الزراعية :

للحياة الزراعية أنواع مختلفة أيضاً ، إذ يوجد ، حتى اليوم ، أقوام تمارس ضرباً من الزراعة البدائية الواسعة . وأهم صفات هذه الزراعة هي جهل القائمين بها استخدام الحيوانات الأهلية وعدم معرفتهم استعمال السماد ، كما أن حراثة

الأرض عندهم تقتصر على تجريح سطح التربة بأدوات بسيطة للغاية . وذلك كما هي الحال عند زنوج افريقية الوسطى وقبائل « الازتيك » في المكسيك . فاذا مـا هبط المردود في المنطقة المزروعـة انتقلوا الى غيرها فحرقوا اشجارها أو اقتلعوها ثم أبادوا أعشابها وزرعوها ، وتدعى هذه المرحلة من الزراعة بمرحلة الزراعة المتنقلة .

أما النوع الثاني فهو الزراعة المقيمة . وهي تابعة لظهور الأسمدة والحراثة العميقة ولاتباع الدورة الزراعية والعمل المنظم ؛ كما هي الحال في بلاد الصين حيث تسود البساتين الصغيرة المساحة ، ويستعيض المزارع الصيني عن سعة المساحة بوفرة استخدام الاسمدة البشرية التي تقوم مقام الاسمدة الحيوانية . كما يستعيض عن الآلات الزراعية الحديثة بمهارة عمله اليدوي .

النوع الثالث هو الزراعة الحديثة التي قامت أسسها على توفير الجهد الانساني بالاستعانة بالحيوان او بالآلات الزراعية الحديثة . وباستعمال الأسمدة الحيوانية والكيمياوية . ويظهر أن السبب الدافع لهذه الزراعة الحديثة هو غرس الاشجار المثمرة والري وهما سببان يجبران المزارع على الاقامة ، ويكون هذا النوع من الحضارة الزراعية مصحوباً دائماً بتربية المواشي .

رابعا ـ الحياة الصناعية :

الى مختلف أنواع الحياة التي رأيناها نستطيع أن نضيف الحياة الصناعية التي ترتكز على تحويل المحاصيل النباتية والحيوانية الى مواد مصنوعة ، ولم تكن الصناعة تعتبر ، حتى زمن قريب ، الا عنصراً من عناصر فعالية الانسان الفردية فقط . وقد أخذت تزداد أهميتها بتطورها وانتقالها من دور الصناعة البيتية الى

دور الصناعة الصغرى ثم الى ما بلغته اليوم من الصناعة الكبرى .

في استخراج فلزات المعادن مثلا نجد الفارق عظيما جداً بين عمل الاقوام البدائية وعمل الشعوب المتمدنة من حيث كمية الفلزات المستخرجة ومن حيث عددها وأنواعها . ولكن رغم وجود الصناعة الكبرى لم تزل بعض الصناعات البيتية قائمة حتى اليوم في بعض المناطق الزراعية ،واستعمال المحركات الكهربائية من شأنه إن يمد في حياتها الى زمن بعيد .

غير أن الصناعة الكبرى بدأت تمتد وتتسع و نشاهد ألوفاً من المعامل تبنى في بعض المناطق ، حتى أن الحياة الصناعية أخذت تحتل بين أنواع الحياة التي تزداد تعقيداً في المدنيات الحديثة ، المكانة الأولى ، كما أخذت طرقها تنفذ الى جميع الأعمال التي يقوم بها الا نسان وهذا ما دفع علماء الجغرافيا على التكلم عن حضارة جديدة هي الحضارة الصناعية

* * *

الفصل الخامس

الحياة البدائية

رغم انتشار الحضارة في القرن العشرين لم تزل بعض الشعوب المنعزلةالبعيدة عن طرق المواصلات العالمية تعيش حياة بدائية أو ما يقرب منها . تسكن هذه الشعوب المسماة بالمتوحشة الغابات المدارية الكثيفة او المناطق الشديدة البرودة او الكثيرة الجفاف كالصحارى والسهوب الجافة او المناطق القطبية حيث تصعب الزراعة او لاتعطي في اغلب الاحيان الا مردوداً ضئيلاً تافهاً ، او انها تسكن بعض الجزر البعيدة في وسط المحيطات الكبرى . هذا ولا يغرب عن بالنا ان لبعض الاقاليم خاصة نشر الفعاليةالبشرية وتنشيطها كما ان قساوةبعضها الآخر يتطلب مقاومة تذهب بهذه الفعالية باجمعها . كذلك في وسع بعض الديانات والعادات او بعض الأنظمة الاجتماعية ان تسبغ على الشعوب أحياناً جموداً فكرياً وتعصباً يعيق كل تطوريأتي به الزمن . لهذه العوامل المختلفةتأثير متفاوت ولكنها تفسر توقف بعض الشعوب عن التقدم الحضاري كالاقوام البدائية الاسترالية وأقزام حوض الكونغو وقبائل الاسكيمو .

البحث الأوّل

قبائل الاسكيمو

تقطن قبائل الأسكيمو منطقة فسيحة واسعة الارجاء تمتد في امريكا الشمالية من مضيق بهرنك حتى شبه جزيرة لابرادور على مسافة تزيد عرضها على (٧٠٠٠) من الكيلو مترات وتمتد نحو القطب الشمالي وعلى الساحل الغربي من غروئنلاند حتى تتجاوز دائرة عرض ٧٨° شمالاً . رغم هذه المساحة الشاسعة لا يربو عدد نفوس الاسكيمو على أربعين الف نسمة .

لم يزل أصل الاسكيمو غير معروف ، غير ان بعض الفرضيات ترجع بهم الى اصل واحد مع بقية الشعوب القطبية الاوروبية التي هاجرت الى الشمال في أواخر العصر الجليدي في عصر الحجر المنحوت عندما بدأت الجليديات بالتراجع نحو القطب الشمالي .

وحسب التحريات الحديثة لاسيما التي قام بها الرحالة كنود راسموسن Knud Rasmussen بين عام ١٩٢١ و ١٩٢٤ يظن ان موطن الاسكيمو الاصلي هو المنطقة الكندية المحصورة بين بحيرة الدب الكبرى وبحيرة اتاباسكا . وان منطقة انتشارهم تمتد من الشمال الغربي من خليج « هودسن » حتى ارض « بافان » كما تمتد على شواطيء بحر بهرنك . ويعتقد « راسموسن » ان هناك شبهاً في التركيب العضوي بين الاسكيمو القاطنين في الاسكا والعنصر المغولي، بينما هم أقرب الى العنصر الهندي الاميركي في المنطقة الواقعة بين مصب نهر

الماكنزي غرباً وشبه جزيرة لابرادور شرقاً . غير ان هذين الفرعين يؤلفان وحدة عنصرية حقيقية ، اذ نجد في كليهما القامة قصيرة تتراوح بين ١٫٥٨ م و ١٫٦٣م والاطراف السفلية قصيرة والصدر واسعاً اما الجمجمة فمتطاولة والوجنات بارزة والعيون صغيرة ومائلة قليلا . كذلك نجد فيهم الفك نامياً قوياً والشفاه غليظة أما البشرة فصافية قليلة الاصفرار .

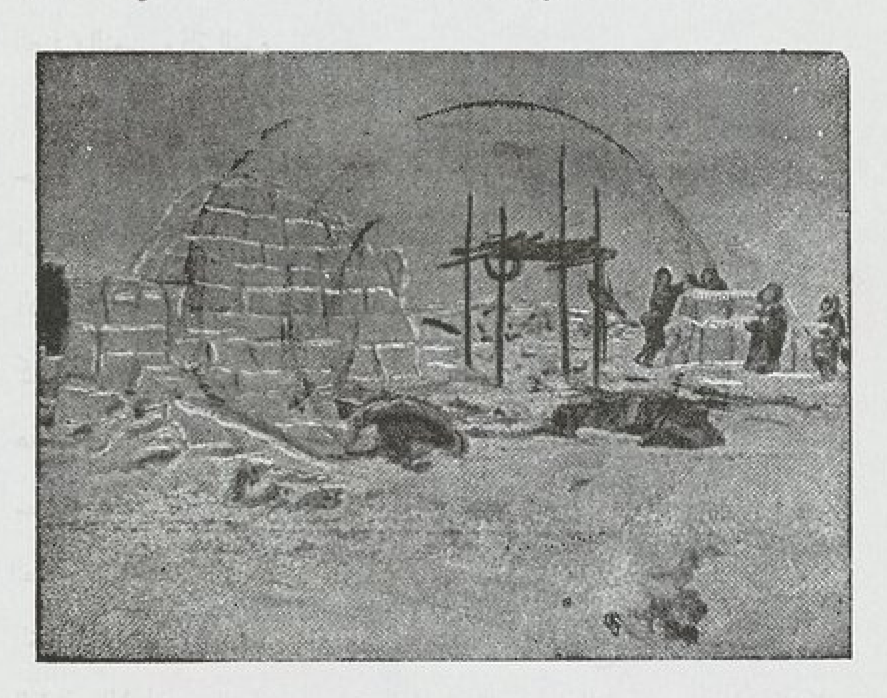
وقد تطبع هذا العنصر البشري بالوسط الطبيعي القطبي القاسي . فهو يستطيع ان يقتصر في غذائه على اللحم والشحم وان يصوم أياماً عديدة من غير طعام او انه يتناول في وجبة واحدة كمية كبيرة من الطعام ، كما انه يتحمل بصبر غريب البرد والتعب وقلة النوم .

وهكذا اقتصرت جهود الاسكيمو بسبب قسوة المناخ القطبي على تأمين حاجاتهم الاولية الضرورية من غذاء ولباس من غير ان يتطلعوا الى شكل ارفع من اشكال الحضارة حتى قيل ان ذكاءهم وقوة تفكيرهم وقدرتهم على الاختراع انصرفت بمجموعها لحل معضلة التغذية واللباس . وقد أبدوا حقيقة كثيراً من الذكاء والبراعة في التغلب على الشروط الطبيعية القاسية . واول هذه الشروط هو الوقاية من البرد الشديد بواسطة اللباس والمسكن . فلباسهم مصنوع غالباً من طبقتين من الفراء مغلقتين حتى لايتخلل الهواء البارد بينهما. الطبقة الداخلية الملاصقة لبشرة الجسم مؤلفة من فراء لينة ناعمة بينما تترك الفراء الغليظة الخشنة الى الطبقة الخارجية . وتستخدم في صنع هذه الملابس جلود الفقمة والارانب والثعالب وجلود الذئاب والوعول والدببة . وذلك كما كان يفعل الانسان البدائي في أوائل الزمن الرابع . ويستعمل الاسكيمو نظارات

من الخشب او العظام لها في وسطها عوضاً عن الزجاج الشفاف الملون شقاً دقيقاً افقياً تقيه وهج الشمس على الثلج في فصل الصيف .

ويختلف شكل المسكن حسب الفصول. ففي الشتاء تسكن قبائل الاسكيمو في الاسكا وغروئندلاندا في أكواخ مدفونة في الارض حتى وسطها بنيت جدرانها من الحجر أو التورب أو من كتل من التراب متماسكة بجذور الحشائش؛ يدخل اليها بواسطة نفق تحت الارض ، وظيفة هذا النفق عزل الهواء الخارجي البارد .

أما قبائل الاسكيمو في لابرادور وسواحل امريكا الشمالية فتبني لنفسها في



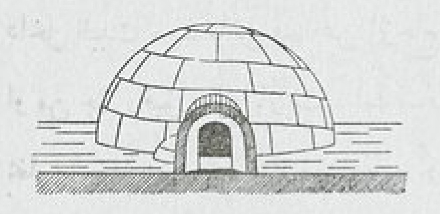
الشكل (١٢) الاسكيمو يبنون اكواخهم
المسماة « ايكلو Iglou » من قطع الثلج المتجلد

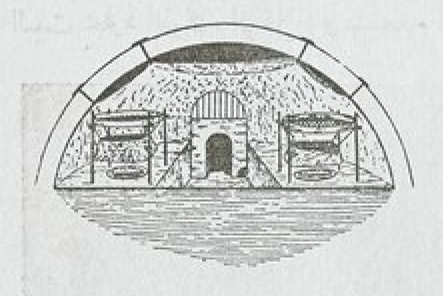
الشتاء ، بالقرب من الانهار والبحيرات ، اكواخاً من قطع الثلج المتجلدة تدعى « إيكلو Iglous » . ويمكن لرجلين عادة بناء مثل هذا البيت الثلجي وتدفئته وفرشه بأقل من ساعتين والبيت الثلجي على شكل قبة قطرها ثلاثة امتار على الاقل لها في اعلاها فتحة للتهوية وفي جوانبها نوافذ مستديرة تنير داخل البيت ، يستعاض فيها عن الزجاج بطبقة رقيقة من جليد المياه العذبة او من جلد رقيق مطلي بالزيت . اما الباب فعبارة عن نفق يصل داخل البيت بخارجة يغلق بواسطة كتلة من الجليد أو لوح من الخشب . وتفرش ارض البيت بجلود الفوك والوعل . وتستخدم الأشنيات وشحم الفوك وزيت السمك



الشكل (١٣) منظر آخر للاسكيمو يبنون اكواخهم الثلجية

في التدفئة والانارة . ويخلع الاسكيمو ثيابه حينما يدخل البيت ويبقى فيه عارياً تقريباً لأن الحرارة في الداخل وإن كانت قريبة من الصفر تظهر مرتفعة جداً بالنسبة للحرارة الخارجية التي تتراوح بين ـ ٣٠° و ـ ٤٠° احياناً . وينام الاسكيمو عارياً تماماً داخل كيس مصنوع من عدة طبقات لينة من جلد الوعل تحفظ في طياتها حرارة لطيفة.





(الشكل - ١٤)
في الاعلى منظر خارجي « للايكلو » على شكل قبة من الثلج المتجلد . في الاسفل مقطعه الشاقولي وتظهر فيه المصاطب الثلجية المرتفعة

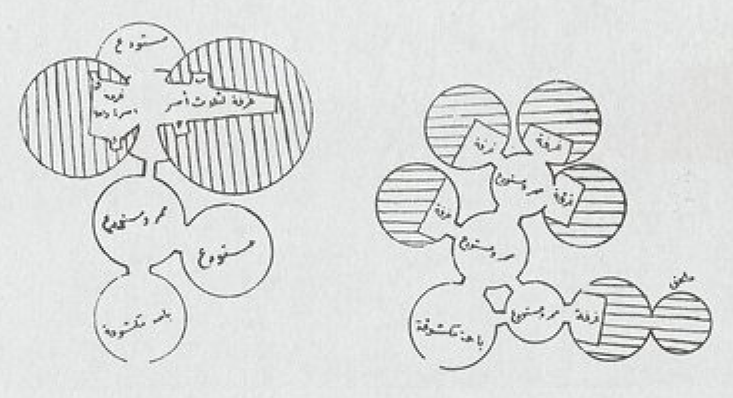
وهو قذر لا يعرف لقواعد الصحة والنظافة أي معنى . في زاوية من البيت تنظف الاسماك والطرائد وفي زاوية ثانية يقضي كل فرد من أفراد الاسرة حاجته .

هذا في الشتاء أما في الصيف من شهر أيار حتى ايلول تسكن قبائل الاسكيمو في خيام شبيهة بخيام الهنود الاميركيين ، مصنوعة من طبقتين من الجلد ، الطبقة الخارجية تتلقى زخات المطر القوية في هذا الفصل والطبقة الداخلية تبقى جافة تماماً وبين هاتين الطبقتين طبقة عازلة من الهواء .

ومن خصائص المناخ في بلاد الاسكيمو أن السنة مشطورة الى شطرين حياة الشتاء وحياة الصيف . الاولى حياة إقامة وعزلة ، والثانية حياة تنقل وعمل

واسفار . ومن المعروف أن قبائل الاسكيمو تعيش من الصيد البري والبحري وتنقل الحيوانات البرية والبحرية والاسماك له عـلاقته بالفصول . في الصيف تتفرق جماعات الفقمه متجهة داخل الخلجان العميقة « الفيوردات » فيصعب صيدها ، غير أن الاسماك تتكاثر في الانهار الداخلية وتنتشر قطعان الوعول والابقار . فالصيف اذن هو فصل الصيد والقنص البري ، فصل صيد الاسماك لاسيما صيد الحوت « بالينا » لتهيئة مؤونة الشتاء .

أما في الشتاء فتأوي جماعات الفقمه الى مصبات الانهار والى البحـيرات العذبة القريبة لتضع فيها صغارها ؛ في قرب هذه النقاط تقضي قبائل الاسكيمو فصل الشتاء .

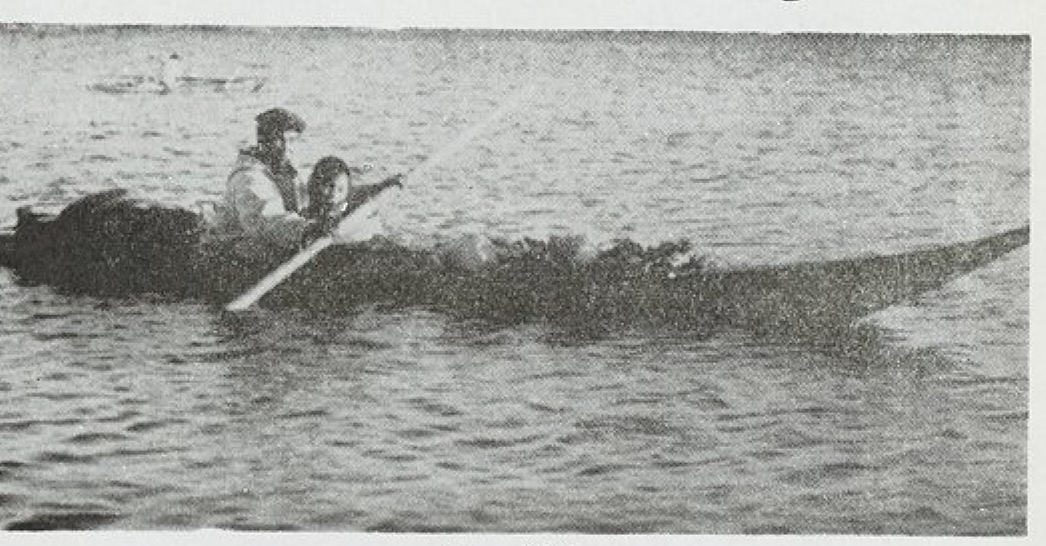


(الشكل - ١٥) (الشكل - ١٦)

الشكل (١٥) يمثل مجموعة من الاكواخ الثلجية كل غرفة تخص اسرة بكاملها وبين الغرف ممرات وساحات صغيرة تصل هذه الغرف ببعضها وتوضع بها المؤونة . تبنى هذه الاكواخ المتجمعة في الفصل البارد الذي يمتد من كانون الثاني حتى نيسان وهو فصل الليل القطبي

الشكل (١٦) يمثل هذا الشكل مسكن الاسكيمو من شهر تشرين الثاني الى كانون الثاني وهو فصل الثلوج والعواصف

الصناعة . — للاسكيموصناعة بدائيةغير أنهاعلى غاية من الدقة والبراعة. وهم يجهلون حتى اليوم استعمال المعادن ويستخدمون الحجر أو العظام والعاج أو قرون الوعل لصنع أسلحتهم وأدوات صيدهم وزحافاتهم وقواربهم التي منها الكاياك Kayak وهو قارب لشخص واحد والاومياك Umiak وهو قارب كبير يستوعب أسرة بكاملها . كلاهما مصنوع من جلد مشدود على هيكل من عظام الحوت « البالينا » . وأدواتهم الحجرية تشابه كل الشبه أدوات انسان ماقبل التاريخ في عصر الحجر المنحوت .



الشكل – ١٧
اسكيمو وابنته على كاياك في مياه خليج « هدسون »

ولم يتمكن ذكاؤهم الفطري أن ينمو ضمن شروط هذا الوسط الطبيعي القاسي وتحت تأثير هذا النمط من الحياة التي يعيشونها ، لذلك يستطيع الفرد منهم أن يعدّ حتى العشرين فقط مستعيناً بأصابع يديه وقدميه ، أما إذا تجاوز الرقم

العشرين فلا يستطيع ادراكه . ولا يعرفون الاشهر وانما يقسمون السنة الى فترات يستدلون عليها من وضع الشمس وعودة الطيور وبيوض انواعها المختلفة.

الحياة الاجتماعية . — أن توزع قبائل الاسكيمو في الصحارى القطبية الواسعة والنضال الدائم في سبيل الحياة ليس من شأنهما ايجاد نظام اجتماعي متين.

ولذا ليس للقبيلة من رئيس يقودها ، ونظام الاسرة هو السائد في فصل الصيف أما في فصل الشتاء فتتجمع بيوت الثلج وتضم أحياناً أسراً عديدة ينوف عدد أفرادها على الأربعين نفساً برأس الجماعة أكبر الرجال سناً أو والد أكثرهم مهارة في الصيد .

وهكذا يحل نظام العشيرة محل نظام الاسرة في فصل الشتاء . وترتبط الحياة الدينية نفسها بنظام الفصول . إذ بينما تقتصر في الصيف على الطقوس التي ترافق الولادة أو الموت ، نجدها تتناول في فصل الشتاء جميع نواحي الحياة . واختلاف نمط الحياة بين الصيف والشتاء أدى الى اختلاف في مفاهيم الحياة وأمورها حسب هذين الفصلين فنظام التملك مثلا الذي هو نظام فردي في فصل الصيف يصبح مشاعاً في فصل الشتاء بين جميع أفراد العشيرة .

البحث الثاني

القبائل الاسترالية القديمة

يمتاز السكان الاصليون لاستراليا بصفات قريبة من صفات الانسان القديم وربما كان السبب في ذلك عزلة القارة الاسترالية وبعدها عن المؤثرات البشرية

الخارجية ، وحسب الاحصاء الذي جرى في استراليا عام ۱۹۲۱ وعام ۱۹۲٦ بلغ عدد هؤلاء السكان الاصليين « ٦٠،٠٠٠ » نسمة تقريباً موزعين في منطقة تربو مساحتها على ﮮ مساحة أوروبا .

وقد اختلف في أصل سكان استراليا ، إذ بينما يرجعهم بعض العلماء الى البشرية القديمة ، يقول بعضهم الآخر مستنداً في قوله الى أنظمتهم الاجتماعية المعقدة ، أنهم ينحدرون من شعب قديم نصف متمدن ، أبعد الى منطقة فقيرة لا مورد فيها واجبر على التفكير قبل كل شيء في كيفية حفظ بقائه ثم انحط وضعف بتأثير الجوع والعطش .

وليس لهم طابع خاص بهم وذلك بسبب شروط المعيشة القاسية وبسبب اختلاطهم ببعض الشعوب الآسيوية كقبائل « الباو Papous » وسكان « ماليزيا » وجزر الهند الشرقية . ويعتقد انهم يمتون بصلة القربى الى سكان جزيرة « سيلان » والى بعض القبائل في الهند والهند الصينية وجزر المحيط الهادي . ويظن بعض العلماء أن للكثيرين منهم نفس صفات العنصر البشري فيما قبل التاريخ المسمى « نياندرتال » . وذلك لأن لهم بوجه الاجمال قامة دون الوسط رغم أن أطرافهم السفلية طويلة وهزيلة . أما بطونهم فضخمة بارزة والجمجمة صغيرة ومتطاولة الى الخلف مع جبين مائل . عيونهم الصغيرة ذات نظرات ثاقبة تكاد تختفي تحت عظم الحاجب الغليظ البارز . أما الانف فافطس عريض والفكان كبيران وبارزان الى الامام ومجهزان بأنياب طويلة كأنياب الحيوانات اللاحمة . وأجسامهم ذات بشرة سمراء قاتمة كلون « الشوكولاته » مستورة بطبقة كثيفة من الشعر الاسود الفاحم .

يخضع هؤلاء السكان ، كقبائل الاسكيمو ، خضوعاً تاماً للوسط الطبيعي .
ففي المناطق الحارة يعيشون عراة الاجسام بينما يضعون في المناطق المعتدلة ، على أوساطهم ستائر من جلود الحيوانات تنزل الى مافوق الركبة .
ويضطر الاسترالي ، بسبب فقر المناطق ، أن يقضي حياته متنقلا ولهذا فلا



الشكل (١٨) استرالي متوحش
من قبائل الادغال الداخلية

يأوي الى مسكن ثابت وانما ينام على أغصان الاشجار أو يفترش الارض ويلتحف بأوراق النباتات اليابسة كما تفعل بعض الحيوانات، واذا اضطر للاقامة طويلا بني لنفسه كوخاً بسيطاً من أغصان الاشجار . وان هطل المطر آوى الى هذا الكوخ وبقي فيه ، ان أوجب الامر ، عدة أيام من غير طعام ولا شراب حتى لا يبتل جسمه بماء المطر .

ويقتصر تفكير هؤلاء الاستراليين المتوحشين بالفطرة، كالوحوش تماماً، على تأمين الطعام والشراب وحراسة أنفسهم من شر الاعداء. والحصول على قوتهم اليومي معضلة محزنة وكثيراً ما يتألمون ويتضورون من الجوع؛ فيعمدون عندئذ الى أكل جيف الحيوانات وإن لم يجدوها ذبحوا أطفالهم ونساءهم وتغذوا بهم. ولا يدخرون عادة مؤونة وليس لهم زراعة وانما يعيشون من قطف الأثمار ومن الصيد. ووظيفة النساء عندهم التفتيش عن بيوض الطيور والنمل وجمع الديدان والجراد والحلزون وبعض جذور النباتات والاثمار البرية. اما الرجال فيعملون في المناطق الساحلية على صيد الاسماك بواسطة الشباك أو بواسطة الرماح ذات الحربة الحجرية المثلثة. وفي المناطق الداخلية يقتنصون الافاعي والحيوانات الكبيرة كالكنغر.

ويبدي الاسترالي في صيد الكنغر ضروباً من الحيل عجيبة، تارة يزحف على بطنه وجسمه مستور بالحشائش والاغصان حتى يقترب من فريسته، وتارة يلبس جلد الحيوان نفسه ويقلده في قفزاته حتى يقترب منه ويقتله. ويتغذون باللحوم بعد شوائها، وللحصول على النار يعمدون الى طرق بدائية صرفة. يحضر أحدهم قطعة خشب مبسطة يركز فوقها عصا من الخشب القاسي يفتلها بين يديه بسرعة فائقة فيحدث الاحتكاك حرارة توقد بالاستمرار نثرات الخشب الدقيقة الناتجة عن الحك ثم تمتد النار الى أوراق الاشجار اليابسة على جوانب نقطة الاحتكاك فتشتمل.

الصناعة. — لم يزل الاستراليون الاصليون يعيشون في العصر الحجري إذ أن القسم الاكبر من أدواتهم وأسلحتهم مصنوع من الحجر المنحوت وأحياناً

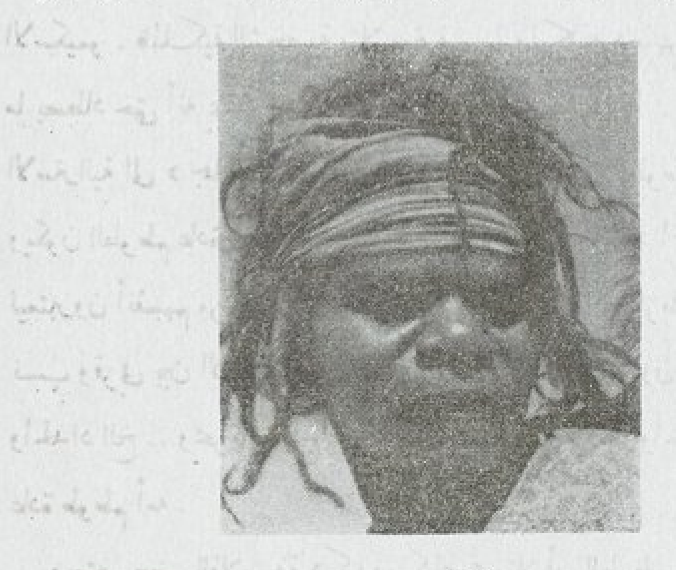
من الحجر المصقول . والى جانب الحجر يستعملون العظام لصنع حربات الرماح والسكاكين . كما يصنعون من الخشب السيوف والتروس والرماح . وليس بينهم من يعرف استعمال القوس الا القبائل التي نالت قسطاً من التطور والقاطنة في المنطقة الشمالية الشرقية من القارة .

الحياة الاجتماعية . — حياة الاستراليين الاجتماعية أكثر تعقيداً من حياة الاسكيمو . فالملكية الشخصية مثلا معترف بها ولكل فرد منهم الحق في تملك ما يصطاد حتى أنه يملك أحياناً الارض التي يصطاد عليها . وتقسم القبيلة الاسترالية الى « جماعات طوطمية » لكل جماعة رمز أو طوطم خاص بها . ويكون الطوطم عادة حيواناً أو نباتاً يسمى باسمه جميع أفراد الجماعة حتى أنهم ليعتبرون أنفسهم من نسله وذريته . ويخلق الانتساب الى طوطم واحد علاقة نسب وقربى بين الافراد ينجم عنها واجبات عديدة كالتعاون والاخذ بالثأر والحداد الخ .. ويحرم الزواج بين رجل وامرأة من طوطم واحد، ويرث الطفل عادة طوطم أمه .

ويعتبر بعض الفلاسفة « كدور كهايم » مثلا أن الطوطمية شكل بدائي للحياة الدينية . وتقتصر هذه الحياة الدينية على اعتقادات بسيطة غامضة . وهم يعتقدون بالسحر وتأثير الأرواح يصلون لها لترسل اليهم الغيث ويقدمون اليها الهبات والضحايا ابتغاء زيادة نوع من الحيوان الضروري لحياة السكان كالكنغر أو السمك أو أحد أنواع الطيور . والاعتقاد السائد هو أن الروح تفارق الجسد وقت النوم وتعود اليه وقت اليقظة ومن عادة قبائل وسط استراليا ختان الاطفال ويكون هذا اليوم يوم عيد مصحوب بتراتيل ورقص ديني .

والقبائل الاسترالية كثيرة العدد غير أن عدد أفرادها قليل ، ولبعضها رئيس يقودها ويسوسها ولبعضها الآخر مجلس يدير أمورها . أما النساء فليس لهن نصيب في الحياة الدينية . والمرأة في هذا المجتمع أمة وظيفتها حمل الامتعة وقت الاسفار .

والاستراليون محدودو الذكاء لا يستطيعون أن يعدوا لأكثر من خمس .



الشكل — ١٩
رأس امرأة من القبائل الاسترالية القديمة

نقوشهم ورسومهم بدائية غير أنهم أوجدوا طريقة للمراسلة بواسطة قطع من الخشب أو عصي تنقش عليها بعض الرسوم . ويمتازون بحدة الحواس إذ يكفيهم أن يتنشقوا كتلة من التراب حتى يقتفوا الاثر .

وحضارتهم جد متأخرة فهم يجهلون حتى اليوم صناعة الاوعية الفخارية ويستعيضون عن هذه الاوعية بسلال من القصب او من قشور الاشجار يطلونها

بالفضار لتصبح كتيمة تحتفظ بالماء . وأدواتهم الموسيقية عبارة عن طبل مصنوع من جلد الكنغر وصفيحة من الخشب الرقيق الرنان يضربون عليها بالعصي فتخرج أصواتاً مختلفة الايقاع بحسب موقع الضربة من الصفيحة . واللغة عندهم متعددة اللهجات بسبب انعزال القبائل وبعدها عن بعضها . غير أن قواعد اللغة كثيرة التعقيد مما دفع بعض العلماء على الظن أن هذا العرق انحدر من حضارة قديمة كانت أرفع مما هي عليه [1] اليوم .

البحث الثالث

زنوج الغابة العذراء وقبائل البانتو

يعيش في منطقة نهر « الكونغو » الواسعة أقوام كثيرة مختلفة الاصل . غير أنها جميعها تتصف ببعض الصفات المشتركة   واهم الصفات المشتركة لهذه الاقوام التي تعيش من الصيد البري أو البحري أو من الزراعة ورعي المواشي هي ضعف التفكير وعدم قدرتها على الاختراع . ولهذا نجدها تعيش اليوم كما كانت تعيش منذ آلاف السنين ، فالقرى تتشابه في جميع الاصقاع وتتألف من عدد من الاكواخ مصنوعة من أغصان الاشجار أو من الطين المجفف ، لها شكل مستطيل او مخروطي والحياة في جميع هذه القرى متشابهة في كنف طبيعة سمحة تجود بخيراتها من غير جهد أو تعب ، ولذا فالاعمال هينة بسيطة

---

(١) في لغتهم تعابير للدلالة على المثنى كما أن فيها تعابير خاصة للدلالة على احترام المخاطب وتمجيده .

تتألف من الصيد وقطف الأثمار ومن الرقص والكسل وبعض الاعمال الزراعية الصغيرة . هذا في الداخل أما على ضفاف الانهار والبحيرات حيث يكثر صيد الاسماك نرى السكان في قواربهم الضيقة الطويلة « Pirogues » المصنوعة من جزوع الاشجار الضخمة، يتجولون بخفة ورشاقة مع مهارة في مهنة الصيد والتجديف.

وتختلف هذه الاقوام من حيث تطورها الاجتماعي ومن حيث حضارتها . فأكثرها تأخراً هم اقزام الغابة الاستوائية العذراء ،وأكثرها تقدماً وأحسنها تنظيماً هي الاقوام الحامية أما أوفرها عدداً فهي قبائل « البانتو » التي تسود وتحتل معظم المناطق الافريقية .

أ — أقزام الغابة العذراء

وأشهرهم قبائل « البيكمه Pygmées ويظن أنهم من أقدم شعوب الارض ومن أول من هاجر من مناطق آسيا الجنوبية التي تعتبر مهد الانسانية الاول على أثر اقتحام أراضيهم من قبل عروق أسمى فساروا في اتجاهين متماكسين . بعضهم اتجه نحو الشرق وسار حتى وصل الى جزر « الفيليبين » وجذر « اندمان » وشبه جزيرة « مالاكا » ، والبعض الآخر سار نحو الغرب وبعد ان اجتازوا البحر الاحمر انتشروا في جميع افريقية . ثم اقتحمت أفريقية موجة ثانية من البشر مؤلفة من قبائل متعددة أهمها قبائل « البانتو » فالتجأت قبائل الاقزام، تحت ضغط الاقوام المهاجمة ، الى قلب الغابة العذراء الاستوائية والى المناطق المستنقعية او الصعبة الوصول كالجبال العالية حيث لم تزل بقاياهم تعيش حتى اليوم حياة بدائية متوحشة .

واهم الصفات الجسمية لهؤلاء الاقزام هي قصر القامة التي تتراوح دائماً بين (١٢٠ م و ١٥٠ م) وصغر الجمجمة وتحدب الجبين ، أما الشفاه فهي اقل غلظة من شفاه الزنوج الكبار . واخيراً يتصفون بقصر الاطراف السفلية وطول الاطراف العلوية ويكسو الشعر الكثيف جميع الجسم والاطراف .



الشكل – ٢٠
افراد من « البيكمة » امام كوخ مصنوع من أغصان الاشجار
في غابة من غابات منطقة « الاتيوزي » في الكونغو

يقتصر لباس هؤلاء الأقزام على حزام من اوراق النباتات مشدود الى وسطهم وتتدلى اطرافه الى مافوق الركبة . ولما لم يكن لهم مكان اقامة ثابت فهم يسكنون

الاكواخ المصنوعة من الاغصان أو ينامون على جذوع الاشجار ، وهم يجهلون الزراعة يتغذون من قطف الأثمار البرية ومن الصيد البري وصيد الاسماك ، ولهم طريقة عجيبة في قطف الاثمار اذ يعمدون الى الشجرة فيقطعونها



الشكل (١٨) رجلان من قبائل « البيكمه »
من سكان الغابة العذراء ، يلاحظ فيها قصر الاطراف السفلية
بالنسبة الى طول الجذع والاطراف العلوية

ليستولوا على جميع ثمارها من غير جهد وهذا ماسماه علماء الجغرافيا « بالاستثمار الوحشي » .

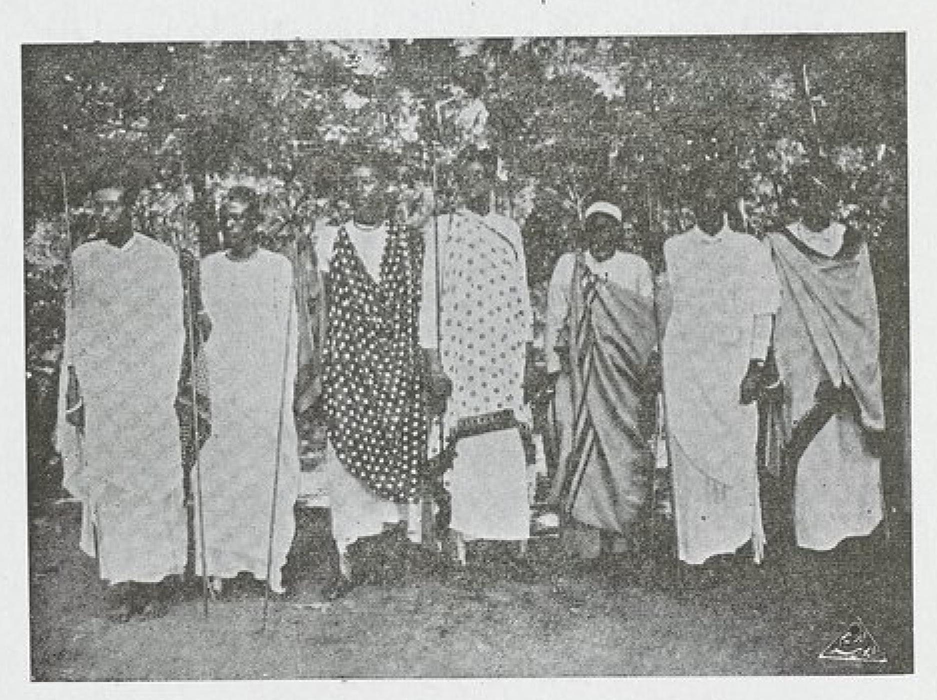
أما النساء فوظيفتهن التفتيش عن بعض الحشرات كالحلزون والنمل وهي من الاغذية العادية عندهم . وبقوا حتى زمن قريب يستعملون الفؤوس الحجرية غير أن سلاحهم الاول هو القوس والنبال المسمومة . وهم يجهلون كيفية ايقاد النار ، فان انطفأت نارهم انتظروا حدوث صاعقة تحرق بعض اشجار الغابة فيوقدون النار من جديد . يتاجرون احياناً مع بعض القبائل القاطنة على اطراف الغابة العذراء لاسيما قبائل « البانتو » وذلك بطريق المقايضة فاذا كان الصيد وافراً جمعوا كمية من اللحم المقدد ووضعوه في مكان متفق عليه سابقاً ثم ذهبوا وانتظروا في مكان قريب ، فيأتي رجال من « البانتو » ليأخذوا اللحم ويضعوا بدلاً عنه كمية من الموز أو الاواني الفخارية أو الحربات الحديدية لاستعمالها في الرماح أو السهام ، وبعد ذهابهم يأتي الاقزام فيأخذون هذه الامتعة والأدوات ويعودون بها الى مقرهم ولم يزل قسم منهم من آكلي لحوم البشر .

نظامهم الاجتماعي بدائي بسيط ، يعيشون جماعات قليلة العدد تحت قيادة رئيسهم الذي هو أمهر صياد بينهم . أما لغتهم فقريبة من لغة « البانتو » الاولية. واخطر الامراض المتفشية بينهم هو مرض « النوم » الذي تسببه الذبابة السامة المسماة « تسه ـ تسه Tsé - Tsé » والذي يذهب بعدد وافر منهم .

ب ـ الاقوام الحامية

تقطن هذه الاقوام بكثرة في مقاطعات « رواندا Rouanda » و

« اورونديUrundi » وهم قليلو العدد ، يظهر ان أصلهم من الحبشة واقدم القبائل التي هاجرت نحو الجنوب تدعى « اواهوما Ouahoma » ومعنى الكلمة « رجال الشمال » . يمتازون بطول القامة المفرط التي تبلغ عادة المترين . جلبوا معهم عادات وتقاليد جديدة كما أدخلوا تربية البقر ولم تكن معروفة في أفريقية الشرقية . ورغم تكلمهم لغة البانتو فقد احتفظوا بعاداتهم الخاصة ولم يختلطوا بهم ولا بأقزام الغابة العذراء . وكانوا يؤلفون طبقة حاكمة أرستقراطية يشتغلون برعي الماشية ، يستخدمون قبائل البانتو المجاورة لهم والتي تؤلف « الطبقة الشعبية » تلقاء حمايتهم لها .



شكل (١٩) رؤساء قبيلة « الواتوكي Ouatuki
وهي من القبائل الحامية القاطنة مقاطعة « رواندا »

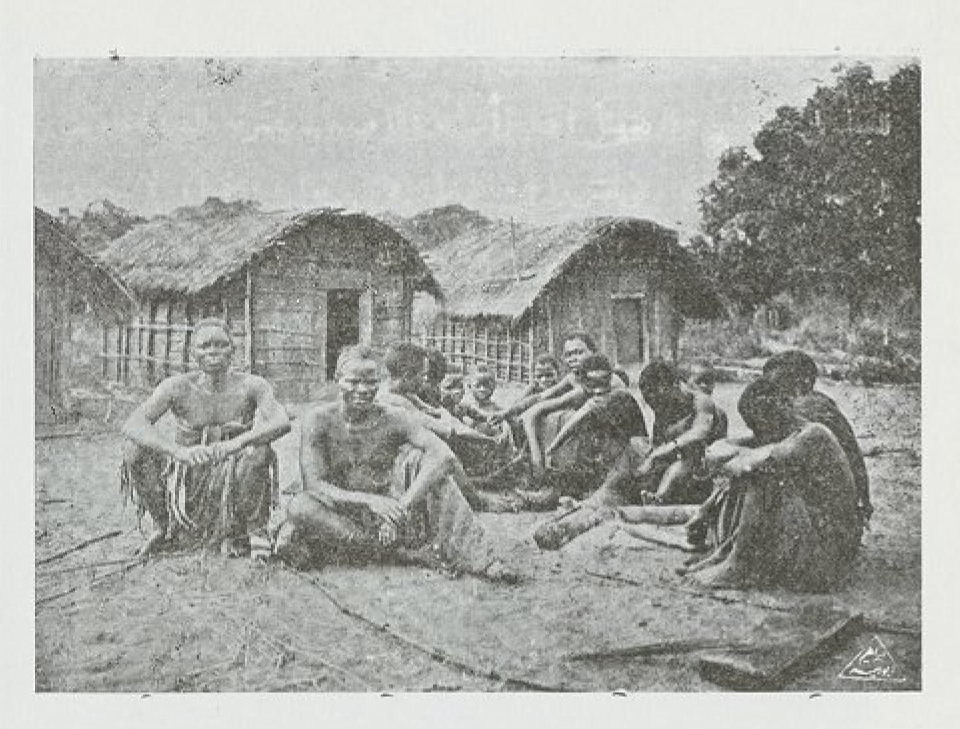
ج — قبائل البانتو

هم أكثر عدداً من غيرهم من الاقوام القاطنة أفريقية الاستوائية وفي الجزء الاعظم من أفريقية الجنوبية ، أقاموا في القديم على شواطيء أفريقية الشرقيـة وعلى نجودها العالية ، ثم زحفوا نحو الغرب في اتجاه جريان الانهار حتى وصلوا الى شواطيء المحيط الاطلسي ، وهكذا تحتل قبائل «البانتو» اليوم أفريقية الاستوائية بمجموعها .

ويمتازون بقصر الاطراف السفلية ، وبجبين مائل وشفاه غليظـة وببروز الفكين . شعرهم كثيف أجعد وبشرتهم سوداء قاتمة ؛ تجمعهم بعض الصفات الخلقية رغم تعدد القبائل واختلاف المناطق ، فهم بالاجمـال متوسطو الذكاء والحس ، قليلو الهمة تتغير طباعهم بسرعة عجيبة ولا يفهمون للنظام والتنظيم معنى .

يعملون جميعهم في الزراعة وتربية المواشي والصيد البري وصيد الاسمـاك لكنهم يجهلون فائدة السماد في الزراعة . صانعهم حاذق لاسيما في الحدادة ، يصنع مختلف الاسلحة من رماح وأقواس ونبال ومدى ، كما يصنع الادوات الزراعية البسيطة والفؤوس وأدوات الزينة للنساء كالقلائد والاساور والخلاخيل الخ .

الحياة الاجتماعية والدينية . — لم تزل الحياة الاجتماعية عند قبائل البانتو بدائية ، والاسرة هي المجموعة المنظمة الوحيدة في هذا المجتمع . غير أن تنظيم الاسرة هذا هو تنظيم اقتصادي خالص . فالرجل يعمل على ادارة جميع شؤون الاسرة ؛ يشتري ويبيع ويحكم كما يشاء على أفراد اسرته ، أما النساء فهن ملك الرجل ومتاعه الخاص يتصرف بهن كما يشاء ، يقمن بكل الاعمال الزراعيـة



الشكل (٢٠) قرية من قرى البانتو في منطقة الكونغو الاسفل

والصناعية وأعمال البيت . ويعتبر الولد عند بعض القبائل ملكا لابيه وعند بعضها الآخر لامه : والاسرة هي النواة الاساسية التي تتألف منها القرية ، غير أن حياة هذه القرية تتعلق بحياة رئيسها وسلطة الرئيس تأتي من قوته وذكائه ووفرة عدد أولاده ونسائه ؛ وهو مكلف بادارة شؤون قريته وحمايتها ، وهو القانون يحكم كما يريد ، وتعتبر أرض القرية وجميع سكانها ملكا له فاذا مات الرئيس أو فقد قوته ، لسبب ما ، ولم يكن هناك من يقوم مقامه انحلت القرية وتفرق افرادها والتحقوا بالقرى المجاورة :

أما المملكة المؤلفة من مجموع القرى تحت إمرة رئيس واحد فغير موجودة وان وجدت فحالة استثنائية موقتة وسريعة الزوال .

أما الاعتقادات الدينية فتختلط بجميع نواحي الحياة الاجتماعية وتقدم القرابين بكل مناسبة ويعتقدون بقدسية الطلاسم والتمائم التي تدفع عنهم الشر والاذى .

* * *

الفصل السادس

الحياة الرعويه

لم تعرف الحياة الرعوية إلا في صحارى وبوادي العالم القـديم ؛ وعلى الرغم من أن شعوب أمريكا الجنوبية عرفت ، قبل اكتشاف كولومب لهذه القارة ، حيوانات عديدة فانها مع ذلك لم تمـارس حياة الرعي . ولم تعرف أمريكا رعاة حقيقيين إلا بعد أن اكتشفها الاسبان وأدخلوا اليها الضأن والحصان .

ولقد ظهرت الحياة الرعوية في العالم القديم في مناطق ذات نباتات طبيعية ملائمة لحيوان معين فمناطق السافانا المدارية تنبت فيها أعشاب عالية تصلح لرعي الابقـار ، أما سهوب المناطق المعتدلة التي تنبت فيها الاعشاب القصيرة فتصلح لرعي الاغنام . ولا تصلح الغابات لحياة الرعي لذلك لانجد لها أثراً في أية غابة من الغابات سواء كانت في المنطقة الحارة أو المعتـدلة أو الباردة باستثناء غابات التايغا الموجودة على أطراف التوندرا حيث يعيش رعاة الرنة الذين يلتجئون للغابة خلال فصل الشتاء فقط .

وتشترك مناطق الرعي كلها في صفة مناخية واحدة هامة هي سقوط الامطار خلال فصل معين ثم يسود الجفاف خلال الفصل الآخر الذي يمتد على القسم الأكبر

من العام ، لذلك تقل الينابيع وينكمش الغطاء النباتي ومن هنا كانت ضرورة تلاؤم الحياة الرعوية مع هذه البيئة الخاصة . وقد تم فعلا هـذا التلاؤم بفضل



الشكل - (٢١) أحد السكان اللابون مع وعوله

حياة التنقل والترحال مع المواشي التي تربيها هذه الشعوب الرعاة ولذلك يعيشون في حركة دائمة بحثا عن الماء والكلأ .

هذا ويجب أن لاننسى أبداً أن البداوة الرعوية ليست مرحلة حضارية يمر بها كل شعب بالضرورة أثناء تطوره وتحضيره . ويخطيء كذلك من يظن

أن الزراعة تمثل مرحلة حضارة أرقى من مرحلة الرعي . فلقد أثبتت الدراسات والأبحاث الأثرية أن الانسان مارس استئناس الحيوان وتربيته في نفس الوقت الذي اهتدى فيه إلى انتقاء نباتات معينة صالحة لممارسة الزراعة .

ان الحياة الرعوية المترحلة هي بدون شك ظاهرة بشرية اجتماعية . ولكنها ناجمة عن أوضاع جغرافية معينة ، لذلك لا نستطيع أن تقول بأن حياة الرعي المتنقل من صفات أو من خصائص سلالة بشرية معينة أو شعب معين . فالى جانب البدو من العرب توجد شعوب وقبائل كثيرة تعتمد على الرعي والتنقل كالكيرغيظ والكالموك من شعوب الاتحاد السوفياتي

ان حياة الرعي المترحلة مرتبطة في كل مكان بالطبيعة بشكل واضح ، وقد جاءت هذه الحياة في الواقع متلائمة مع شروط البيئة الطبيعية ، فهي الشكل الوحيد الذي يمكن أن يقوم في البوادي - في درجة معينة من الحضارة - من بين كل اشكال المعيشة المختلفة . لقد تلاءم هؤلاء الرعاة مع الوسط الجاف بابسط الطرق وبدون اي جهد .. انهم يتنقلون مع مواشيهم الى حيث تهطل الامطار ويتوفر الماء وينمو العشب .غير ان حياة هؤلاء الرعاة بائسة واقتصادهم فقير ومضطرب لا انتظام فيه لان الشروط الجوية هي التي تتحكم بحياتهم ، فاذا جادت عليهم السماء وهطلت الامطار نما العشب وعاشوا عيشة رضية وإلا ساءت أحوالهم وعاشوا حياة الفاقة والضيق وهلك قسم كبير من مواشيهم ، ومع ذلك فليست الزراعة أكثر ربحاً من الرعي بصورة دائمة وقد لوحظ بالفعل ان بعض الرعاة في شمال أفريقية ، أحسن حالاً من الزراع لأن الرعاة اختاروا حرفة اكثر ملاءمة للبيئة .

وفي جبال الألب والهملايا وفي كثير من المناطق الجبلية الاخرى لايجد السكان مفراً من ممارسة الرعي لأن التربة الزراعية لاتتشكل على المنحدرات الشديدة ، ولأن بناء المدرجات الضرورية لحفظ التربة من الانجراف يتطلب نفقات كبيرة . أضف الى ذلك أن تربية المواشي واستغلالها يعطيان دخلا اوفر مما يمكن أن تعطيه الزراعة في تلك المناطق الجبلية الفقيرة التربة .

ويمكن تقسيم المجتمعات الرعوية حسب الحيوان الرئيسي الذي يسود قطعانهم ، وعلى هذا فهناك مربو الأبقار والاغنام والابل والخيل والرنة ... وسندرس من بينها مجتمعات معينة .

١ ـ رعاة البقر

الأبقار حيوانات كبيرة لاتكتفي من أجل غذائها بالأعشاب القصيرة التي تنمو في السهوب التي ترعى فيها عادة قطعان الأغنام ، ولا تستطيع الأبقار أن تنمو وتتكاثر في المناطق الاستوائية ، رغم وفرة الغذاء فيها ، بسبب ذبابة تسه ـ تسه التي تقضي عليها . وعلى هذا فالأبقار تكثر عادة في المناطق المدارية وفي مراعي السافانا الموجودة على أطراف الغابة العذراء وخاصة في القارة الافريقية .

وعلى هذا فان الشعوب والقبائل التي تعيش في سهول السافانا تمارس مهنة رعي الأبقار ، غير أن الرعي لايمثل دائماً فعاليتهم الوحيدة بل تكون مقرونة بزراعة بدائية في أغلب الأحيان .

لتربية الماشية ، أهمية اجتماعية كبرى الى جانب أهميتها الاقتصادية ، لذلك تختص بها الشعوب القوية مثل (الزولو والأكسوزا في جنوب افريقية)

ويترك هؤلاء الزراعة للجماعات المستضعفة التي تعمل خدماً وعبيداً لديهم .
وتعتبر الحيوانات عند هذه الشعوب معيار الغنى والجاه لأن ملكية الأرض لاشأن لها عندهم .

وتعتبر الأبقار بمثابة رأسمال حقيقي ، لذلك يرتبطون بها بعاطفة قوية تصل الى حد التقديس أحياناً : فهم يرعونها بحنان وينتظرون ولادتها بشغف ويسبب موتها لديهم حزناً بالغاً ، ويضعون الحيوانات المريضة في حظائر خاصة ويعالجونها حتى تشفى أو تموت..

ومن الامور الغريبة عند معظم رعاة البقر في أفريقية أنهم لايطيقون أكل لحمها بالرغم من أنه لاتوجد عندهم موانع دينية كما في الهند . وهنالك شعوب أخرى تأكل لحوم الأبقار ، فقبائل Gallas مثلا في افريقية الشرقية لايترددون في تناول اللحم ، وينتقون المواشي المخصصة للذبح من مجموع القطيع ويعنون بها عناية خاصة كعنايتهم بتلك المخصصة للملك أو رؤساء القبائل ، فيوفرون لها المأوى وغذاء يومياً خاصاً ويعطونها قليلا من الملح حتى تزداد شهيتها ويتحسن لحمها .

أما اللبن فهو الانتاج الرئيسي للابقار ويشكل الأساس الغذائي لكل الشعوب التي تمارس الرعي ، لذا يضطر هؤلاء للحصول على كميات كافية من اللبن الى تربية قطعان عديدة من البقر . ومن الطرف المعروفة أن الرجال يقتصرون على تناول لبن البقر أما النساء فبامكانهن تناول لبن البقر والغنم على حد سواء .

تعتبر الأبقار عند رعاتها بمثابة النقد ، فهم يستخدمونها للشراء ودفع الدية

أو المهر ، يحرصون كل الحرص على الاحتفاظ بأكبر عدد منها ، لذلك لا يتخلون عنها الا عند الضرورة القصوى ، وقد تغدو هـذه الحيوانات عجفاء لاقيمة اقتصادية لها ومع ذلك لاتذبح بل تترك حتى تهرم وتموت .

ويتأثر نمط حياة رعاة الابقار بمهنتهم تأثراً واضحاً ، ويبدو ذلك الأثر خاصة في طراز مساكنهم وتنقلاتهم الفصلية . لـكل صاحب قطيـع من الابقـار مسكن يعرف باسم « كرال Kraal او Rougo وهو عبارة عن باحة واسعة مقسمة الى اجزاء عديدة يحيط بها سياج من النباتات الشوكية او اعمدة خشبية أو جدران مبنية من الاحجار وتخصص هذه الباحة لايواء الابقار ليلا بعد عودتها من المرعى وتنتظم حول الباحة أكواخ مستديرة مبنية من الاغصان على شكل قباب يخصص أكبرها لصاحب الماشية و تستخدم باقي الاكواخ لسكنى الخدم والرعاة أو لخزن المؤن . ويتناسب حسن بناء السكن وتزيينه مع غنى صاحب القطيـع .

وتمتد حول « الكرال » أراضي الرعي ويمتلك أصحاب المواشي هـذه المراعي التي تحيط « بالكرال » مباشرة ، أما المراعي البعيدة فليست مقسمة تنتقل اليها قطعان المالكين خلال فصل الجفاف تحت إشراف راعٍ مشترك وتقضي الحيوانات لياليها عندئذ في المراعي ، أما خلال الفصل الماطر وعندما ترجع الى حيث توجد المساكن فانهـا تأوي عادة الى « الكرال » كل مساء .

رغم هذه التنقلات الفصلية فان حياة رعاة البقر في افريقية ليست حياة ترحل بكل معنى الكلمة ، فان المساكن ثابتة الى حد ما والابقـار هي التي

تنتقل مع رعاتها فقط ، وتفرض قبائل « الماساي » على شبانها مرافقة القطعان الى المراعي خلال فترة معينة من حياتهم فيتعودون خلالها على التنقل والترحال والعيش بعيداً عن مساكن القبيلة. وبعد اداء هذه المهمة التي هي بمثابة الخدمة العسكرية عندهم يستطيع الشبان أن يقيموا في المساكن وينتقل واجب مرافقة القطعان لمن هم دونهم في السن .

يتعلق مدى التنقلات الفصلية بالظروف المناخية وبأحوال المراعي خلال الفصول المختلفة ولذلك فأشكال هذه التنقلات متنوعة جداً ، وتأخذ في الاماكن التي لا تهطل فيها الامطار بصورة منتظمة وكافية ، شكل التنقلات البدوية الحقيقية .

ويؤدي تنقل القطعان بحثاً عن المراعي الى التنافس وأحياناً كثيرة إلى النزاع بين أصحاب الابقار وخاصة خلال الفصل الجاف حين يفتقد الكلأ ومن هنا جاءت ضرورة استعدادهم للحرب بصورة دائمة ، وان مجتمع الشعوب الرعوية قائم على نظام الطبقات يحتل فيه المحاربون المدافعون عن القطعان أعلى الدرجات الاجتماعية والى جانب الرعاة المحاربين الذين يقودون القبيلة وقت الحرب ، يتمتع الشيوخ المسنون باحترام بالغ لان حرفة الراعي تعتمد قبل كل شيء على الخبرة المكتسبة خلال زمن طويل والتي تسمح بحسن معرفة وانتقاء المراعي المناسبه خلال فصول السنة .

٢ ــ رعاة الابل ـ الطوارق .

الطوارق قبائل بربرية تعيش في الصحراء الكبرى الافريقية ، وأفراد هذه

القبائل طوال القامة ، لهم بشرة صفراء ضاربة للحمرة وشعر متموج وعيون قاتمة . ويلبسون أردية قطنية فضفاضة ومصبوغة بالنيلة ، ويسترون وجوههم بلثام لا يتركونه حتى أثناء النوم وتصبغ النسوة أظافرهن بالحناء التي تنمو في الصحراء على شكل شجيرات .

ويعتمد الطوارق في حياتهم على تربية الابل بالدرجة الأولى ، وينتقلون في الصحراء الكبرى مع ابلهم السريعة السير Dromadaires وتعب هذه الجمال من الماء حوالي ٢٠ ليتراً دفعة واحدة وتأكل كميات كبيرة من الغذاء في العلفة الواحدة، ولها مقابل ذلك صبر عظيم على العطش والجوع ؛ وخف الجمل الواسع يساعده على السير على رمال الصحراء .

والابل هي ثروة الطوارق الرئيسية. والجمل هو حيوان الحمل والجر، ويتخذون من لبنه ولحمه غذاء ومن وبره ينسجون البرانس والخيام ومن جلده يصنعون النعال والأسرجة وقرب الماء ، ويستعملون روثه المجفف للوقود . ويمتلك الطوارق الى جانب قطعان الابل بعض الغنم والماعز .

ولما كانت هذه القبائل تعتمد على تربية الماشية في منطقة جافة وفقيرة فهي مضطرة للتنقل بحثاً عن الأماكن التي يتوافر فيها الماء والكلاء . ففي الشتاء تنزح القبائل جنوباً الى وديان منطقة الاحجار (Hohgar) في جنوب الصحراء حيث ترعى الجمال نباتات كثيرة على شكل شجيرات . ويصعدون صيفاً نحو الشمال حتى الواحات المزروعة .

وكان لهم مورد إضافي يأتي من السطو على القوافل العابرة للصحراء وكانوا يفرضون أتاوات على القوافل بحجة حمايتها. ولا يزال عرب الطوارق يسيطرون على

سكان الواحات يبتاعون منهم اكثر منتوجاتهم من التمور والحبوب . وقد استخدمتهم السلطات الفرنسية الاستعمارية فجعلت منهم قوة مسلحة لحفظ الأمن في الصحراء .

وفي بادية الشام قبائل تعنى بالابل يطلق عليها اسم كبار البدو لأنهم يقطعون في رحلات الانتجاع مسافات تتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ كم . وكبار البدو هؤلاء لا يقصدون المعمورة الا نادراً وثروتهم الكبرى هي الابل وهي عندهم موضع فخر واعتزاز . وهم في قرارة نفوسهم يحتقرون رعاة الأغنام أي الشاوية ، ومع ذلك فبعضهم يملك قطعاناً كبيرة من الأغنام ، ومن أعظم العشائر الجمالة في سورية العنزة .

٣ ــ رعاة الاغنام :

تمارس كثير من القبائل العربية مثلاً في الشرق الأدنى والمغرب العربي رعي الأغنام أو الشاة لذلك يطلق عليهم أحياناً اسم الشوايا . وتكون رحلاتهم الانتجاعية محدودة المجال اذا ما قورنت برحلات كبار البدو أو رعاة الابل . إن رعاة الأغنام أو صغار البدو لا يبتعدون أكثر من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ كم عن المعمورة ، ويبقى هؤلاء الرعاة على تماس دائم مع الحضر ، وكثيراً ما يوكل اليهم اهل الحضر رعي قطعانهم لقاء أجر معين متعارف عليه يشمل الصوف والسمن والخرفان .

ويعيش هؤلاء البدو الصغار أو رعاة الأغنام في حركة مستمرة بحثاً عن الكلأ والماء ، وهذه التنقلات فصلية وشائعة في شمال افريقية بشكل خاص . ولكل قبيلة أرض معينة ترعى فيها أغنامها ، ويتم التنقل عادة بين الجبال

والسهول ، ففي فصل الصيف تنتقل القطعان نحو الجبال ثم تهبط إلى السهول خلال الشتاء .



الشكل - (٢٢) قطيع من الاغنام مع الراعي في جبال اليونان

إن الأراضي التي تملكها القبيلة بصورة جماعية ليست واسعة حتى تستطيع قطعان القبيلة أن تجد فيها مراعي كافية طيلة أيام السنة . إن رعاة السهوب الموجودة على أطراف الصحراء ورعاة السهوب العليا كانوا ولا يزالون مضطرين للبحث عن مراع صيفية لأغنامهم، سواء في الجبال القريبة ، في الأطلس الأعلى أو الأطلس الصحراوي أو الظهرة التونسية أو في منطقة التل ابتداء من شرقي

تونس حتى المغرب . أما رعاة الجبال فيملكون المراعي الصيفية وعليهم أن يبحثوا عن مراعي شتوية في السهول المجاورة . ومهما كان تنوع هذه التنقلات فانها تتجاوز على أية حال حدود القبيله ، لذلك يجب الاتفاق مع القبائل التي تسيطر على الأراضي والمراعي . ان الاتفاقيات متنوعة جداً بين هذه القبائل مما يسمح مثلاً لبعض القبائل بالتنقل والرعي مجاناً وبدون مقابل . ويلازم هذه الاتفاقيات أحياناً أخرى تبادل في الخدمات أو تبادل في السماح بالرعي .

إن الرعاة الذين يقضون الصيف في منطقة « التل » يصلون اليها وقت الحصاد وبيع المحصولات فيساعدون المزارعين في عمليات الحصاد ونقل الغلال على جمالهم وفي نفس الوقت تترك أغنامهم روثها المخصب في الأرض .

ويبادل الرعاة الأغنام والأصواف والسجاد والتمور الآتية من الجنوب بحبوب ومصنوعات المزارعين القاطنين في الشمال، وفي كل الأحوال يستفيد أصحاب الأرض من روث الأغنام ومن الألبان إذا كان الرعاة هم وحدهم الذين يرافقون القطعان .

وهناك مشكلة عامة يعاني منها رعاة الغنم في البلاد العربية خاصة ومنذ زمن ليس بالقصير هي توسع الزراعة الذي يتم في الواقع على حساب البدو وماشيتهم فالمراعي تضيق تدريجياً كلما تقدمت حدود المنطقة المزروعة وتم القضاء على البور ، إن هذه المشكلة شديدة الوطأة على البدو في شمال افريقية بصورة خاصة لأن المستعمرين استولوا على المراعي القديمة والحديثة في الجهات الشمالية وأرغموا البدو على الحياة في البقاع الجافة المحدودة الموارد .

رعاة الخيل في التركستان :

المقصود برعاة الخيل في التركستان هم شعوب الكيرغيظ والقازان الذين يعيشون في السهول والصحارى الممتدة بين بحر قزوين وبحر آرال وما جاورهما . تنتقل هذه الشعوب كغيرها من القبائل الرعوية الاخرى ، بحثاً عن الكلأ والماء او فراراً من البرد أو الحر . في الصيف يهربون من الحر اللافح في السهول الى الربى والسفوح حيث يجدون العشب ، وفي الشتاء تتجمد الأرض ويتجلد الماء في المرتفعات فينسحبون الى الوديان الدافئة .

والعمل في هذه البيئة القاسية موزع بين النساء والرجال من أفراد القبيلة ، فالفتيات يشتغلن بالغزل والنسيج داخل الخيمة والعجائز يطبخن اللحم ويحضرن الزبدة ، ويسرح الشباب مع قطعان الماشية وينصرف الشيوخ الى صنع الاواني والأدوات المنزلية ويصلحون سروج الخيل والاحذية . والحيوانات المألوفة عندهم هي الخيول بالدرجة الأولى وهم ماهرون جداً في امتطائها ، ثم الغنم والماعز .

ويعتقد الاستاذ Burkit أن هذه المنطقة من سهوب أسيا الوسطى هي اقدم مناطق الرعي في العالم ، وذلك منذ أن عرف الانسان استئناس الحيوان ، وفي رأيه أن هذه المنطقة هي احدى المناطق التي عرفت لأول مرة حياة الرعي والزراعة .

« ومشكلة الرعاة في هذه البيئة هي أيضاً الماء (١) ـ كما هي الحال في كل

---

(١) راجع كتاب « البيئة والمجتمع» للدكتور محمد سعيد غلاب .

اقليم جاف ـ وذلك في فصل الصيف ، أما في الربيع وأوائل الصيف فان السهوب ترصعها غدران متباعدة ، وقد تبقى بعض الغدران طول الفصل الجاف ، ولكن مياهها تزداد ملوحة كلما توغلنا في فصل الصيف ، لذلك كان لابد من الرحيل بسرعة إلى مجاري الأنهار عندما يحل فصل الجفاف ،وتتعرض المراعي احياناً للفيضانات المرتفعة إذا كانت كمية الثلوج المتساقطة في الشتاء كبيرة ثم حل الدفء فجأة في فصل الربيع . يضطر الراعي في هذه البيئة الى دوام الحركة والارتحال معظم أيام السنة سعياً وراء المرعى والكلأ من مكان لآخر ، فالحشائش لاتكفي القطعان الكبيرة في أية بقعة فترة طويلة من الزمن ولابد من الظعن والارتحال . ولا يستقر الرعاة في أكواخ ثابتة الا في فصل الشتاء ومع تباشير الربيع تتسلل كل اسرة أو عشيرة إلى مرعى بعيد ، وكلما تقدم الصيف كلما ازدادت حركة التنقل من مكان لآخر ، ولكن هطول بعض الأمطار في أواخر الصيف وهبوط درجة الحرارة في شهري ايلول وتشرين الأول يخفف من حمى الرحيل وتبدأ القبائل في لم شملها وتقام الموالد والأعياد العامة .

وأفراد شعوب الكيرغيظ والقازان لايملكون متاعاً كثيراً يعيق حركتهم السريعة ، فواحدهم لا يملك سوى خيمة خفيفة من الوبر (اليورت) من أجل الصيف وأثاثهم بسيط يسهل حمله . وتنحصر ثروتهم في قطعان الضأن والماشية والخيل ، والخيل عندهم أغلى قيمة وأعلى شأناً من غيرها من الحيوانات . وهم يتعلمون الفروسية منذ الصغر ، وكأنهم يولدون على ظهور الخيل وطعامهم

الرئيسي هو الحليب يشربونه طازجاً أو يصنعون منه الجبن والزبدة ... الخ . ويقتصر اغنياؤهم على شرب اللبن الخميص فقط وهو لبن الفرس ، أما عامتهم فيشربون اللبن مخلوطاً بالماء ويقال أنه يخفف الظمأ . ولا يأكلون اللحم الا في المواسم والمناسبات الاجتماعية .

ويتبادل الرعاة مع سكان الواحات المستقرين (سكان مدينة بخارى مثلا) مالديهم من منتوجات الماشية والمصنوعات الجلدية الثمينة والسجاد ويشترون منهم الحبوب والأدوات والشاي والبن .

هذا ولم تعد المجتمعات الرعوية تعيش اليوم بمعزل عن المجتمعات الاخرى المتقدمة في مضمار الحضارة ، وقد ادى احتكاكها بها الى تطور حياتها الرعوية التقليدية ليس فقط من ناحية الأسلوب بل من حيث الغاية أيضاً . إن أحسن مثل عن تطور المجتمعات الرعوية يمكن أن يؤخذ في آسيا الوسطى حيث تم الاحتكاك بين القبائل الرعوية والنظم السوفياتية الجديدة . لقد دخل العلم الى حرفة الرعي فبدأوا بتهجين سلالات جديدة من الماشية والخيول والأغنام لها ميزات اقتصادية خاصة وتتم تربيتها باعداد كبيرة بغية تموين وسد حاجة أسواق الاستهلاك الجديدة التي اقيمت هناك بسبب ظهور المراكز الصناعية الجديدة .

إن راعي الأمس كان يحتفظ بحيواناته ويعنى بها من أجل تباه وتفاخر وهميين ومن أجل الحصول على أود حياته .. أما راعي اليوم فانه يهدف الى الربح التجاري قبل كل شيء آخر لذلك يدخل على مواشيه مامن شأنه أن يزيد من قيمتها التجارية ومن أعدادها .

الفصل السابع

الحضارة الزراعية

الزراعة مجموعة اعمال يمارسها الانسان ليحصل على نباتات اوفر كمية وأجود نوعاً مما يجده في الطبيعة ، ويمكن ان نوجز مجموعة هذه الاعمال بناحيتين اساسيتين :

١ – انتخاب النبات المراد اكثاره دون غيره ، فزراعة القمح مثلا تتطلب ان ينظف الحقل من النباتات والحشائش الغريبة ، ثم تبذر حبوب القمح وحده . ويجب ان يكون نوع النبات المنتخب موافقاً لطبيعة الارض ، فتربة المانيا الشمالية مثلا لا تصلح لزراعة القمح لكنها خير ارض لزراعة البطاطا لان لان هذه الزراعة تعطي مردودا كبيراً في الاراضي الرملية . ويسعى المزارع في البلاد المتمدنة لزراعة نوع واحد من النبات ثبت بالتجربة انه خير مايزرع في هذه الارض ، فنحصل بذلك على مايسمى بالزراعة الوحيدة Monoculture . ولا يمكن للزراعة الوحيدة ان تنجح الا في البلاد التجارية الراقية التي تستطيع تصدير الفائض من انتاجها الى الاسواق العالمية او تبادل به بما يعوزها من المواد الاولية . فسهول اللانغدوك في جنوب فرنسا لاتزرع فيها الا الكرمة كما ان حكومة سان باولو في البرازيل لاتزرع الا البن .

٢ - اتباع طرق خاصة لتحسين الانتاج وزيادة المردود . كأن يعمد مثلا الى الري في المناطق الجافة والى بناء الجدران (الجروف) في المناطق الجبلية ذات السفوح الشديدة الانحدار والى استعمال الاسمدة المتنوعة ليعيد الى الارض خصبها الذي استنفذته النباتات المزروعة ، واخيرا الى انتخاب اجود انواع البذور واستعمال الادوات الآلية .

والزراعة نوعان منها **الزراعة الواسعة** ، ويعتمدون فيها على سعة المساحة اكثر من اعتمادهم على المردود ، ومنها **الزراعة الحثيثة** والاعتماد هنا على ارتفاع المردود لاعلى المساحة .

بعد ان القينا نظرة عجلى على ماهية الزراعة وانواعها الكبرى ، لندرس الآن ميزات الحضارة الزراعية ، وخير مثال لهذه الحضارة الصين لانها تعتبر بحق موطن المزراعين المقيمين الذين يمتهنون نوعاً من الزراعة اشبه شيء بالبستنة ، غير ان نوع حياتهم هذا وصل الى درجة رفيعة من الكمال ثم توقف عند هذا الحد منذ الوف السنين حتى الثورة الاشتراكية الصينية . ويظن أن السبب في ذلك يعود الى الامطار الموسمية التي تروي الارض والمزروعات في فصل الصيف وتجلب الخير العميم ، فلم يعد المزارع الصيني بحاجة الى جهد وتفكير جديدين للتفتيش عن وسائل جديدة لتحسين زراعته ، ورغم التطور الحديث الذي بدأت طلائعه في الصين لم تزل هذه البلادفي طور الحضارة الزراعية التى لم تغيرها بعد الصناعة الحديثة .

وخلافاً لما يعتقده بعض المؤرخين ليست الحضارة الصينية القديمةفيوادي النهر الاصفر Houang-Ho حضارة دخيلة اتى بها الغزاة الفاتحون . واما

هي تطور موضعي للزراعة الصينية البدائية . وهي اقرب الى حضارة القسم الجنوبي الشرقي من آسيا منها الى حضارات آسيا الوسطى او الشمالية . وكانت تبدو مظاهر هذا التقارب في الناحية اللغوية والناحية الدينية المرتبطة بالزراعة وفي نوع الحياة الزراعية المقيمة واخيرا كانت تبدو واضحة في ناحية النظام السياسي الارستقراطي الذي قامت اسسه على الصفة الدينية المقدسة في امتلاك الارض . ومهد هذه الحضارة هو السهل الكبير في القسم الشرقي من الصين في مقاطعتي هو- نان Ho-Nan وشان تونغ Chan-Tung ، حيث تتفرع اذرع النهر الاصفر المتعددة . ويعتبر هذا السهل من اخصب الارض الصينية لتلقيه الامطار الموسمية الصيفية ولتركيب تربته من اللوس ومن الطمي الذي يأتي به النهر الاصفر .

ويشتهر هذا السهل بزراعة الذرة البيضاء والارز والقمح ، وقد اصبح مركزاً للهجرة يؤمه سكان المناطق القريبة . وبما ان استثمار الارض واستثمارها محدودان نحو الشمال لوجود الصحراء فقد امتد استثمارها نحو الجنوب والجنوب الغربي ، وذلك منذ القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد . وقد تم فتح الحوض المتوسط للنهر الاصفر وتمدين سكانه في عصر الصين القديمة . اما تحضير القبائل في حوض النهر الازرق Yang-Tsé -Kiang وفي المقاطعات الجنوبية فيعود الى صين القرون الوسطى والقرون الحديثة .

الصفات الرئيسية للحضارة في الصين .

لم تختلف طرق الزراعة في الصين منذ العصور التاريخية حتى اليوم ،

ويستدل على ذلك من بعض الصور التي يرجع تاريخها الى (١٢١٠) سنوات قبل ميلاد المسيح ، ويرى في هذه الصور نفس المحراث المستعمل اليوم من قبل الفلاح الصيني يشده جاموس واحد ، كذلك نرى نفس الادوات الزراعية وادوات الري ، حتى ان الطرق التي يعمد اليها اليوم في زراعة الارز وشجر التوت وطرق الاعتناء بتربية دودة الحرير لم تزل جميعها على ما كانت منذ عشرات القرون . على ان كثيراً من الزراعات الهامة في الصين اتت من البلاد الاجنبية كزراعة القطن التي اتت من الهندوزراعة الارز التي اتت من الهند ومن الدلتات التي تتتابع بين الهند والانام وقدانتشرت هذه الزراعات ببطء و بأزمنة متتابعة .

تمتاز الزراعة الصينية بعدم اعتناء المزارعين بتربية المواشي رغم صلاح اكثر المناطق للرعي ، وذلك لان الشعب الصيني اصبح شعباً زراعياً بخلاف الشعوب الرعاة المتنقله المجاورة له ، كالموغول والتتر وسكان منشوريا على ان بعض المزراعين يملك عدداً ضئيلا من الابقار في المناطق الشمالية ومن الجاموس في مناطق الوسط والجنوب ، غير ان استخدام هذه الحيوانات يقتصر على الجر فقط اما الحيوانات المخصصة للتغذية فهي الخنازير والدواجن .

كذلك من ميزات هذه الزراعة قلة الاشجار المغروسة اذ قضى تقريباً على غابات المناطق الجبلية العالية اما في السهول فلا ترى الا بعض الاشجار بالقرب من المنازل وفي المقابر وذلك للحاجة الى الارض لزرعها بالارز والحبوب .

أما الملكية السائدة فقد كانت الملكية الصغرى للأرض فثلث الحقول مثلاً في

منطقة النهر الازرق لاتتجاوز مساحة الواحد منها (٤٠) آراً أي مساحة مربع ضلعه (٦٥) متراً . كما لاتتجاوز مساحة الحقل في الثلث الثاني (٨٠) آراً . و $\frac{١}{٥}$ الارض فقط تتجاوز مساحة الحقل فيه الهكتار والنصف . ولا نجد سوى مزرعة واحدة على خمسمائة تربو مساحتها على ثلاث هكتارات .

ولا تزرع قطعة الارض المخصصة للاسرة زراعة كاملة لان قبور الاجداد تحتل ما يقارب $\frac{١}{١٢}$ من مساحة الارض . وقلما يملك الفلاح الارض التي يزرعها وانما يستغلها كمستأجر فقط ويدفع أجرها غالياً . إذا أضفنا الى ذلك ثقل الضرائب الكثيرة عرفنا لماذا كان يسعى الفلاح الصيني أن تنتج ارضه غاية ما يمكنها أن تعطي . ويستعيض عن الادوات الزراعية الحديثة بمهارته الفائقة وباعتنائه بزراعته الاعتناء الدقيق المتواصل .

ويعتني الصيني بسقاية الارض اكبر العناية أيضاً ، ويعمد لذلك الى طرق متعددة لرفع الماء من الانهار والآبار بواسطة المضخات او بواسطة النواعير المختلفة الاشكال وتتوزع المياه بشبكة من الاقنية متراصة ومعقدة ، وللتوزيع قواعد وطرق خاصة قديمة تعود الى فجر التاريخ تقريباً .

أما الاسمدة الحيوانية أو الكيمياوية فغير متوفرة ولا مستعملة ويستعاض عنها عادة بالسماد البشري وبمختلف الفضلات الحيوانية والنباتية ، حتى أن هذا السماد يباع ويشرى في المدن في الصباح الباكر من كل يوم ، كذلك يستفاد من الرمال والاتربة التي تستخرج من الاقنية عند تنظيفها فتحمل الى الارض لتسميدها .

إن هذا النوع من الزراعة المسمى بالبستنة الذي يمارسه الصينيون يتطلب أيد عاملة عديدة، وقد استطاعت الاسرة الصينية القيام به بسبب كثرة افرادها وتعطي الارض الصينية محصولاً وافراً ومتعدداً حتى أنها في المقاطعات الجنوبية تعطي ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة. المحصول الاول للارز ويأتي في اواخر الصيف والمحصول الثاني للقمح أو الشعير أو الخضار والمحصول الثالث كان يخصص للافيون في فصل الربيع. ولو اتبع الصيني في زراعته الطرق الاوروبية في في الحراثة والتسميد لاستطاعت الارض ان تعطي محصولا اوفر. لان الهكتار الواحد المزروع بالارز يعطى :

في الصين	١٨،٩	كنتالا
في الولايات المتحدة	٢٢،٧	»
في اليابان	٣٥،٩	»
في ايطاليا	٤٦،٧	»

ومن البديهي أن التربة الصينية، رغم خصبها الطبيعي، فقدت قسما كبيراً من قوتها الانباتية لاستغلالها المتواصل منذ مئات الاجيال. فاذا لم تعدل فيها الطرق الزراعية، ولم تسمد بالاسمدة المناسبة فلا شك انها ستتراجع وتتقهقر ويضعف مردودها.

وقد أدرك الفلاح الصيني هذا الخطر، فعمد الى جانب زراعة حقله الى ممارسة الصناعة البيتية وذلك ليستطيع ان يكفي نفسه واسرته. ويستخدم من اجل ذلك ادوات بسيطة ويتبع طرقاً بدائية كما هي الحال تماماً في الزراعة التي يعانيها وهذه الطرق البدائية لا تقتصر على بعض الصناعات البسيطة الثانوية كصناعة

الصدف والفخار وانما تمتد الى اكبر الصناعات وأوسعها .

فنصف انتاج الفحم الحجري مثلا كان يأتي من مناجم صغيرة حيث يجري استخراج الفحم ونقله بالايدي ومن غير استخدام الآلات . كذلك نصف انتاج الحديد يأتي من افران تستخدم فحم الحطب عوضاً عن فحم الكوك . كما ان مجموع انتاج الصناعة الحريرية و $\frac{4}{5}$ المنسوجات القطنية كانت تصنع على أنوال يدوية .

لقد كانت نتيجة هذا الوضع في الزراعة والصناعة ان نسبة سكان الارياف تزيد عن سكان المدن زيادة هائلة . اذ نجد ٨٨٪ من السكان يعيشون في القرى كما ان القسم الاكبر من المدن ليس في الحقيقة سوى قرى كبيرة . وتكثر القرى عادة في المناطق ذات الزراعة الحثيثة . وتحاط القرى في المناطق الشمالية باشجار الحور والصفصاف أما في المناطق الجنوبية فتحاط باشجار البامبو



الشكل (٢٣)

قرية صينية بالقرب من « كانتون » ترى بيوت القرية تحيط بها بعض الاشجار وحقول الارض المسقية لغرس اشتال الارز .

والاشجار المثمرة . وتبنى القرى عادة في الاماكن المرتفعة ليسهل الدفاع عنها ولتكون بمأمن من الفيضان .

والمساكن في القرية متجمعة متراصة ويتناسب هذا الوضع مع فكرة الجماعة الصينية التي تفضل الحياة التعاونية في كل شيء . فهم يتعاونون في حراثة الارض وزراعتها ، وفي حراستها وإقامة الاسواق التجارية ويمتازون بحب الاستعارة والاعارة .

وتتفرع من القرية طرقات متعددة تربطها بالقرى المجاورة واكثر هذه الطرق مهمل غير معبد ، وأهم صفاتها انها ضيقة لاتتسع في اكثر نقاطها لمرور اكثر من عربة واحدة . وذلك لان صاحب الارض لايتنازل الاعن قسم ضيق من ارضه يساوي نصف عرض الطريق وعلى صاحب الارض المقابلة ان يتنازل عن النصف الآخر .



الشكل (٢٤)
فلاح صيني من منطقة « كيانغ - سو »
بملابسه الشتوية

ويستعمل الصينيون لغذائهم ولباسهم ، في اغلب الاحيان ، المواد الاولية النباتية اكثر من استعمالهم للمواد الحيوانية . ويقتصرون في الغذاء على الاسماك بالدرجة الاولى وعلى الخنازير والدواجن ولا سيما

البط . اما الاغذية الاساسية فهي الحبوب ويأتي الارز بالدرجة الاولى ثم الشوفان والقمح ويأتي بعد ذلك الحمص والفاصوليا (الصويا) ثم الخضار . أما الشراب الشعبي فهو الشاي غير أن اسراً صينية كثيرة تستعيض عنه بأنواع اخرى اقل ثمناً. اما لباسهم فيتألف في اغلب الاحيان من القطن والحرير .

لاشك بأنه كانت للحضارة الزراعية في الصين اشكالا كثيرة تختلف بحسب المناطق ولكنها ، بصورة عامة ، لم تتطور بعد بالنسبة لقدمها . وتظهر في العالم اليوم وكأنها بقية حضارة قديمة ولنوع من أنواع الحياة المنتشر في الهند وافريقية وبعض مناطق البحر الابيض المتوسط ، ولكن هذا النوع من الحياة في طريق الزوال لاسيما على شكله الاولي الذي عرف به .

هذا ما كانت عليه الحياة الزراعية في الصين قبل الثورة الاشتراكية ، أما اليوم فقد تطورت الحياة في الصين تطوراً كبيراً اساسياً . والصين اليوم في طريق التصنيع حتى انها ارتفعت في انتاج الفحم الحجري مثلاً الى الدرجة الاولى بين الدول .

* * *

الفصل الثامن

الحضارة الصناعية

الصناعة هي تحويل المواد الاولية الطبيعية ، من حيوانية و نباتية ومعدنية الى مواد وادوات نافعة للانسان . كالاغذية والاقمشة والادوات المعدنية والمحركات والمواد الكيماوية الخ ... وللصناعة اشكال مختلفة يمكن تصنيفها في ثلاث زمر .

١ ـ الصناعة البيتية ٢ ـ الصناعة الصغرى ٣ ـ الصناعة الكبرى

ففي الصناعة البيتية يعمل أفراد الاسرة على صنع ماهم بحاجة الية فقط . وظهر هذا الشكل من الصناعة عند الأقوام البدائية منذ ان فكر الانسان بتحويل المواد الأولية . وبقيت الصناعة على هذا الشكل قروناً وأجيالا عديدة ؛ وهي لم تزل حتى اليوم عند الأقوام غير المتمدنة وفي القرى النائية حيث يقوم الفرد بجميع المهن الضرورية لمقومات حياته فهو زراع وبناء وحداد وخباز وقصاب وحائك الخ . . ثم اخذ التخصص يدخل الصناعة وينمو شيئاً فشيئاً كما اخذت الجماعة تصنع كمية تفوق حاجتها فترسل الفائض عنها الى السوق لبيعه . ثم خصصت ضمن الدار مكاناً لصنع هذه الحوائج وبيعها غير انها لم تستخدم،

في بادىء الامر ، عمالا باجرو انما كان افراد الأسرة هم وحدهم يقومون بالعمل مع بعض الأجراء الصغار .

بقيت هذه الصناعة الصغرى حتى يومنا هذا ، حتى اننا لنشاهد الآن انتعاش مثل هذه الصناعات بسبب استعمال الطاقة الكهربائية المحركة التي يمكن إيصالها الى ابعد المناطق .

ثم اخذت الصناعة الكبرى ، بفضل الآلة ، ، تحل محل الصناعة الصغرى ، وتنتج بكميات هائلة أنواع المصنوعات بأثمان زهيدة . وتتعلق الصناعة الكبرى ، كالصناعة الصغرى ، بالشروط الطبيعية من حيث حاجتها الى المواد الاولية والمحروقات ؛ لكنها تتعلق من ناحية ثانية بشروط أخرى مستقلة عن الطبيعة ؛ مثلا تتعلق بشروط اليد العاملة لأنها بحاجة الى عدد وافر من العمال المتعلمين . تتعلق كذلك بشرط رأس المال لأن تأسيس المعامل الكبيرة يتطلب رؤوس أموال ضخمة . وقلما يستطيع الأفراد الانفاق على مثل هذه المشاريع. لذلك تتألف الشركات تدعمها المصارف الكبرى وتسلفها المال الملازم لقاء قسم من الارباح . كذلك تتعلق الصناعة الكبرى بشرط المواصلات ووسائل النقل الضرورية لجلب المواد الأولية والمحروقات الى المعمل ولتصدير المواد المصنوعة، وأخيراً تتعلق بالتنظيم لتنسيق العمل وتأمين سيره وبالاختراع الآلي لانها بحاجة دائماً الى آلات قوية ، سريعة الانتاج ودقيقه الصنع .

وللصناعه الكبرى اليوم ميزتان أساسيتان هما التكاثف الصناعي ونفوذ العلم الى الصناعة باستمرار متزايد .

فالتكاثف الصناعي يظهر في الطرق الفنية المستعملة وفي الناحيتين

الجغرافية والمالية. فقدا تسعت المعامل وأصبحت تجمع ألوف العمال الاختصاصيين. كما تجمعت في المناطق الملائمة اما بالقرب من المواد الاولية او بالقرب من القوة المحركة او اليد العاملة او طرق المواصلات الهامة أو أخيراً قرب الصناعات الاخرى لان الصناعة تجتذب الصناعة. هذا من الناحية الجغرافية أما من الناحية المالية فالمعامل بحاجة الى آلات باهظة الثمن ولذا فهي بحاجة الى رووس أموال ضخمة. وأدى ذلك الى التكاثف المالي، واتباع نظام الشركات الرأسمالية. ثم أخذت هذه الشركات نفسها تتحد وتتجمع تحت أسماء مختلفة كالنقابات او الكارتل او التروست او الكونسورسيوم. وقد تجاوزت حدودها القومية ودخلت نطاق التكاثف العالمي وتضم مجموعات من الصناعات المتماثلة او المتشابهة او المتممة

واشترك في العمل المخبر والمعمل معاً حتى ان المشاريع الكبرى انشأت الى جانبها مخابر خاصة وظيفتها ان تخرج الى عالم الوجود وعلى شكل صناعي عملي ما يكتشفه العلماء والباحثون في مخابرهم ونفوذ العلم الى المعمل لايقتصر فقط على ناحية الاكتشافات والاختراعات انما تطرق أيضاً الى الناحية العملية ليخفف من جهد العامل ويزيد في مردوده وقد توصل العلم الى الاشياء الآتية:

اولا – الى توحيد نوع المصنوعات Standardisation

أي توحيد شكلها وصنعها بكميات كبيرة مع الاعتناء بدراستها من الناحيتين الفنية والعملية.

ثانياً — الى تنظيم العمل Organisation بانتقاء العمال وتدريبهم الصناعي

مع تحديد حركات العامل أحياناً بشكل يقلل من جهده ويزيد في انتاجه « طريقة تايلور »

ثالثاً — الى تنسيق مختلف المشاريع مع بعضها Coordination وذلك لتوفير الزمن والمال والعمل .

رابعاً — تحديد الانتاج حسب قانون العرض والطلب :

ويعطى اليوم الى مجموع هذه الطرق العلمية في التنظيم الصناعي اسم « الطريقة العقلية أو العقلانية » .

وقد نفذت الطريقة الصناعية الى أكثر اشكال استثمار المواد الطبيعية . فصيد الاسماك مثلا أصبح اليوم صناعة تزاول بواسطة قوارب مجهزة بأدوات الصيد والتبريد . باستطاعة هذه السفن ان تصطاد مئات الاطنان من السمك في اليوم الواحد . كذلك أصبح صيد الحيوانات ذات الفراء في المناطق القطبية والباردة صناعة قائمة بذاتها يشترك فيها عدد ضخم من العمال تساعدهم الطائرات . ومثل ذلك في قطع أشجار الغابات و نشر الاخشاب كما هي الحال في كندا والبلاد السكاندينافية وروسيا حيث يعمل في المنشرة عدة آلاف من العمال . وهكذا فالزراعة وتربية المواشي تسيران على نفس الطريق وتستعمل كل منهما الادوات الآلية وتتبع نفس الطرق العملية .

حضارة الولايات المتحدة حضارة صناعية

اما وقد رأينا تطور الصناعة بمراحلها المختلفة واطلعنا على قوانينها الكبرى الحديثة لا بد لنا الآن من دراسة الحياة في احدى الدول الصناعية الكبرى لنقارن بين الحضارة الزراعية، التي شاهدنا نموذجاً لها في الصين القديمة، والحضارة الصناعية . وسنختار انموذجاً لها الولايات المتحدة الاميركية على الشاطىء الثاني للمحيط الهادي . لقد اتبعت الولايات المتحدة طريقة جديدة في الانتاج انبعث عنها مفهوم جديد للحياة ، وهذه الطريقة الحديثة ، التي ترتكز اسسها على استخدام الآلة والتنظيم العقلي ، لم تعد وقفاً على الولايات المتحدة الاميركية وانما هي المرحلة الحاضرة والعامة للتطور العالمي الذي ترجع اصوله الى الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر . وتتصف هذه المرحلة بالتقدم المادي وبانتصار الانسان على قوى الطبيعة بواسطة العلم والاستثمار الحثيث لموارد الثروة الطبيعية على وجه الارض . غير ان الولايات المتحدة تمتاز عن غيرها من الامم بدرجة تجهيزها الصناعي الذي بلغ حداً رفيعاً من الكمال حتى غدا طريقة جديدة او نوعاً جديداً من انواع الحياة .

الوسط الطبيعي لهذه الحضارة :

تعتبر الولايات المتحدة بالنسبة لسعتها قارة قائمة بذاتها اذ تبلغ مساحتها $\frac{3}{4}$ مساحة اوروبا . وتربو المسافة بين ساحلها الشرقي وساحلها الغربي على (٥٠٠٠) كم.

لم تبدأ البشرية باستغلال هذه القارة الضخمة الا منذ امدقريب ولم يتم استعمارها الا في القرن التاسع عشر . وهي قليلة السكان اذ لا يتجاوز عدد سكانها اليوم ١٨١ مليون نسمة مما يجعل الكثافة فيها (١٩) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد .

ولا نجد في الولايات المتحدة ، باستثناء الجبال الصخرية في قسمها الغربي ، غير سلسلة جبال الابالاش ، بعيدة عن الشاطىء الشرقي وقليلة الارتفاع فلا تشكل عثرة أمام المواصلات الداخلية التي تعد اليوم من أهم عوامل النشاط للامم الحديثة . في هذه البوتقة الواسعة عاشت جموع المهاجرين التي وفدت الى القارة الجديدة ، نوع حياة واحدة ، وبنت مدنها على طراز واحد ، كما لاقى المهاجرون صعوبات متشابهة واستفادوا من تسهيلات متشابهة أيضاً . ولذا فليس من المستغرب اذن ان تتوصل هذه الجماعات المختلفة بعقليتها وطبيعتها الى التكاتف والتآزر بالعمل .

أما الثروة الطبيعية في الولايات المتحدة فهائلة . التربة السطحية غنية وفيرة الخصب تمتد على مساحات شاسعة وتصلح لزراعات متعددة ، وهي غنية ايضاً بمعادنها المتنوعة ففيها الفحم والبترول والحديد والنحاس والبوكسيت والرصاص بكميات كبيرة بالاضافة الى الذهب والفضة . وقدحسب علماء الاقتصاد ان الولايات المتحدة التي تضم $\frac{١}{١٧}$ من نفوس البشرية تستثمر ٣٠ ٪ من المواد الأولية المستعملة في العالم .

وعلينا أن نرى في هذه الثروة الضخمة العظيمة وفي اختلاف مواردها الأسباب الرئيسية في تفوق الولايات المتحدة :

المناهج المتبعة :

لقد اتبع هذا الشعب الجديد بعناصره البشرية وفي هـذه البلاد الجديدة مجموعة من الطرائق العلمية والفنية اطلقنا عليها اسم الطريقة العقلية او العقلانية . فاستخدموا اليد العاملة ضمن شروط تستطيع معها ان تعطي اكبر مردود ممكن وذلك بتطبيق كل تقدم علمي ، مهما كانت قيمته ، على الصناعة ، وهذا ما جعل المعمل على اتصال دائم بالمخبر وبتوسيع استعمال الآلة ، التي تخفف من جهد العامل وتقلل من عدد العمال ، قللوا بالتالي من كلفة المواد المصنوعة . وادخلوا طريقة تايلور على الصناعة ، وتتلخص هذه الطريقة بتحديد حركات العامل اثناء عمله وجعلها متناسقة مع الآلة وذلك بحذف كل الحركات التي من شأنها ضياع الوقت سدى . كذلك وحدوا نوع المادة المصنوعة وشكلها مما سمح للمعمل ان يصنع كميات كبيرة من انموذج واحد او انموذجين . وكثفوا رؤوس الأموال مما زاد في تجهيز المعامل بالآلات الضرورية وجعلوا لها ادارة موحدة تستطيع توجيه العمل حسب الحاجة والطلب وتمنع المنافسة التجاريه التي قد تذهب أحياناً ببعض رؤوس الأموال .

الى هذه الصفات الرئيسية العامة للصناعة الاميركية يمكن أن نضيف بعض الميزات الخاصة . كارتفاع اجور العمال لدعم القوة الشرائية لأكبر عدد ممكن من المستهلكين . وانقاص ساعات العمل ليتركوا للعامل وقتاً كافياً من الفراغ يستهلك أثناءه اكبر كمية من الانتاج . وتسهيل البيع بالدين على أقساط . وأخيراً باشراك العمال بربح المعمل مما يكفل تداخل مصالح جميع

العناصر الأساسية للانتاج وهي رأس المال واليد العاملة والمستهلك ويجعلها متضامنة متكاتفة .

الصفات الاساسية للحضارة الاميركية

نفذت هذه المناهج التي ذكرناها الى جميع نواحي الانتاج والحياة الاميركية لا سيما الى الصناعة التي تعد اليوم أقوى الصناعات في العالم . وتتبوأ اميركا الدرجة الأولى في العالم في انتاج الفحم والبترول والحديد والصلب والنحاس والرصاص والتوتياء والحرير الاصطناعي . تصنع معاملها ٤٠ ٪ من الحرير الطبيعي في العالم . وفيها ٢١ ٪ من عدد الأنوال لغزل القطن في العالم . اما الصناعات الغذائية كالمطاحن ومعامل تعليب اللحوم والخضار والفواكه والأسماك فقد اتسعت بشكل لم تعرفه بلد من بلاد العالم بعد . وانا لنجد نفس التوسع والتضخم في الصناعات الحديثة كصناعة الورق والكاوتشوك والجلود والصناعات الكيماوية والكهربائية والسينمائية الخ ..

وتختص اكثر المعامل بصنع مادة واحدة معينة تنتجها بكميات كبيرة . وفيها عدد كبير من « التروستات » اشهرها تروست الصلب والبترول واللحوم ، ولا تملك هذه الشركات الكبرى مواد الانتاج فقط وانما تملك ايضاً الآبار والأنابيب وجميع وسائل النقل لتصدير هذه المواد أو لتوزيعها في الداخل كالخطوط الحديدية والبواخر والسيارات الخ .

الزراعة : تعتبر الزراعة في الولايات المتحدة صناعة كغيرها من الصناعات كانت قديماً من نوع الزراعة الواسعة بسبب المساحات الكبرى وضآلة عدد

السكان ثم اخذت تتطور شيئاً فشيئاً نحو الزراعة الحثيثة . اذ نجدها تلجأ اليوم الى الطرائق العملية في اصطفاء الأنواع واتباع الدورة الزراعية واستعمال السماد الكيماوي ومكافحة الحشرات المضرة بواسطة الطائرات أحياناً ، واتباع طرائق الزراعة في الأراضي الجافة والري الاصطناعي ، كذلك تستخدم أحدث الآلات الزراعية من محاريث وحصادات وبذارات وغراسات وقاطفات القطن الخ .

ولا نجد في الولايات المتحدة ذلك الفلاح المتعلق بأرضه يحرثها ويزرعها بحب ويعمل جهده لتحسينها وحفظها ورعايتها كالفلاح الصيني مثلاً أو كفلاح حوض البحر الأبيض المتوسط أو بعض البلاد الأوروبية . ووصف أحد الكتاب « هرمان دو كيسرلينغ Herman de Keserling » الفلاح الاميركي بقوله : كلما تقدمت نحو الشرق (شرق الولايات المتحدة) كلما صارت الزراعة حثيثة وكلما بدا الانسان مستقلا غير خاضع للوسط الطبيعي ، حتى ليخيل للمتأمل انه هو الذي يحدث الأشياء عوضاً من أن يتأثر بها . نجده يستعيض عن قلة الأمطار بما بناه من اقنية وسدود وبما يستعمل من اسمدة . واحتاط لنفسه ضد مصائب الطبيعة بواسطة شركات التأمين ؛ حتى أن حقله لا ينتج ما يستطيع انتاجه بل يعطي ما يجب أن ينتج . وأبقاره تعطي من الحليب أكثر مما يمكن لنوعها أن يعطي . ولهذا فلا عجب اذا كانت الولايات المتحدة في مقدمة دول العالم في انتاج الذرة والقمح والقطن واللحوم الخ .

المواصلات : دوماً بفضل التقدم الصناعي ، بلغت المواصلات بأنواعها المختلفة حداً من الاتقان والامتداد والدقة لم تبلغه دولة من الدول بعد . فشبكة الخطوط الحديدية ، التي تعتبر وسيلة الاعمار الاول ، يزيد طولها على (٤٠٠)

الف كم أي أطول من مجموع الشبكة الاوروبية كذلك يعتبر الاسطول التجاري بعد الحرب العالمية الاولى الثاني في العالم ؛ أما اليوم فقد اصبح الاول في العالم من غير منازع اما السيارات فقد تجاوز عددها « ٧٣ » مليون سيارة ويكون بذلك لكل ثلاثة اشخاص سيارة اما الهاتف والراديو فيوجد في كل بيت ، ومن النادر أن نجد أسرة ليس عندها آلة راديو .

يعتبر هذا التقدم في وسائل النقل والمواصلات عامل واحد من العوامل العديدة التي تساهم في رفع سوية الحياة في الولايات المتحدة . ولا يمكن التبسط في هذا المجال ولكن لا بد من القول أن الماء الجاري وغرفة الاستحمام والتدفئة المركزية والكهرباء والمصعد الآلي أصبح ضرورة لازمة واساسية في كل منزل .

الاستهلاك : ان نسبة استهلاك الولايات المتحدة للمواد الاولية الصناعية مرتفعة جداً اذا ماقورنت بالاستهلاك العالمي . فهي تستهلك مثلا :

٣/٤ الكاوتشوك في العالم و ٢/٣ الحرير و ١/٣ القطن و ١/٤ السكر و ٣/٤ البترول الناتج في العالم .

كثير من السكان يقطن الارياف غير أن عدد المدن الكبرى مرتفع جداً وفي الولايات المتحدة «٥٠» مدينة كبرى تضم ١/٥ مجموع السكان . ويمتاز القسم الاكبر من هذه المدن باتساعه ونموه السريع وبشوارعه المستقيمة المتقاطعة مع بعضها بزوايا قائمة كما يمتاز بابنيته ذات الطوابق المتعددة وبناطحات السحاب ؛ وبازدحام شوارعه بالمارة وبعدد السيارات الضخم . وكتب الاستاذ سيكفريد Siegfried يصف بعض نواحي المجتمع الامريكي فقال « يسير العالم باستمرار

نحو مفهوم آلي صناعي للحياة . اننا نجد بعض الاعمال في فرنسا لم تزل فردية شخصية كالسكن والطبخ ، او روحانية كالاسرة مثلاً ؛ كل هذا يكاد يصبح عاماً في الولايات المتحدة ويصنع للمجموع على السواء . حتى التعليم نفسه يكاد يصبح صناعيا لأن الغاية منه في الولايات المتحدة ليست في خلق رجال الفكر بمقدار ماهي موجهة لايجاد رجال فنيين ولتلقين نوع من العلوم » .

يمكن القول الآن ان الحضارة الامريكية تعطينا بمجموعها صورة مثالية للحضارة الصناعية . كما يظهر أنها في طريقها لخلق عصرٍ جديدٍ من عصور البشرية « عصر الانتاج الضخم » الذي حشد الانسان بكليته في سبيل الانتصار على المادة . ولم يعرف التاريخ بعد ان تحقق حشد للقوى الاجتماعية على مثل هذا القياس الواسع أو بمثل هذه القوة . وميزة هذا العصر الحقيقية ليست بضخامة الثروة التي اوجدت بمقدار ماتتمثل في قوة النشاط البشري الذي هب دفعة واحدة لتفجير هذه الثروة واستغلالها .

* * *

الفصل التاسع

المراكز الصناعية الكبرى

أما وقد ألمحنا بكلمة موجزة عن انواع الصناعة وعن ميزاتها الحديثة وعن النهج الذي تسلكه اليوم ؛ واعطينا مثالا على هذه الحضارة الجديدة ، الولايات المتحدة الاميركية ، في بعض نواحي نشاطها الاقتصادي في تطبيق الطريقة الصناعية على الزراعة والمواصلات والاستهلاك ، لابد لنا من ذكر شيء عن حياة المراكز الصناعية الكبرى في العالم لنوضح صفات هذه المراكز واسباب نموها ونتائج هذا النمو على السكان . وسنقتصر في بحثنا على ثلاثة مراكز كبرى هي بيتسبورغ في الولايات المتحدة وحوض الرور في المانيا وحوض لانكشاير في انكلترة .

١ — اسباب نمو المراكز الصناعية

تنمو المراكز الصناعية حينما تتوفر بعض الشروط الطبيعيـة او البشرية لانتشار صناعة واحدة أو عدة صناعات مختلفة . واهم هذه الشروط هو وجود الوقود او القوة المحركة ووجود المواد الاولية الصناعية واليد العاملة المختصة

يضاف الى هذه الشروط شرط توفر المواصلات والنقل ووجود سوق تجاري يستطيع تصريف المواد المصنوعة .

تتعلق بعض هذه الشروط بطبيعة المنطقة من حيث بنيتها وتركيبها الجيولوجي وبعضها الآخر له علاقته بالناحية البشرية .

فوجود المحروقات « الفحم » كان في القرن التاسع عشر من الاسباب الرئيسية في انشاء المراكز الصناعية وذلك لان الفحم الحجري يستطيع خلق القوة المحركة بفضل المحركات البخارية كما يعتبر مادة اولية اساسية لصنع الحديد . لذلك بقي الفحم الحجري ، حتى ظهور الكهرباء ، شرطاً أساسياً وضروريا لوجود الصناعة الكبرى . ويعتبر القرن التاسع عشر بفضل الفحم قرن البخار والحديد .

غير أن الفحم ثقيل الوزن ويكلف نقله نفقات باهظة ترفع من ثمنه الا اذا توفرت لنقله شروط خاصة كالطرق المائية مثلا . لهذا توضعت المراكز الصناعية الكبرى قرب مناجم الفحم تستورد الى قربها المواد الاولية المراد صنعها . وهكذا فحوض « ستافورد شير » الفحمي في انكلترة كان السبب في تكوين المركز الصناعي الكبير برمنغهام تحيط به مجموعة من المدن التابعة كمدينة اولفر هامتون Wolverhampton مدينة الافران العالية والسيارات . كذلك كان حوض الشمال الفحمي في فرنسا سبباً في خلق منطقة تزدحم فيها المراكز الصناعية مثل مركز ليل lille وروبه Roubaix وتوركوان Tourcoing . ويمكن ان نقول نفس هذا القول عن حوض بلجيكا الفحمي وحوض الرور Ruhr .

واخذت الكهرباء ، منذ اوائل القرن العشرين ، توجد مراكز صناعية جديدة لاسيما في المناطق الجبلية الغنية بالشلالات . ويحيط ببعض الجبال شريط من المراكز الصناعية كما هي الحال في المنطقة الصناعية الكبرى التي تمتد على الحدود الفاصلة بين سهل البو وجبال الالب حيث يقوم في وسطها مركز ميلانو Milan وحيث يقوم على السفح الافرنسي مركز غرونوبل grenoble الذي اخذ يتسع بفضل الصناعات الحديثة التي تعمل على الكهرباء .

على ان سهولة نقل القوى المحركة الكهربائية تعمل على جعل المراكز الصناعية التي تعمل على الكهرباء أقل كثافة بالسكان وأقل تجمعاً من المراكز التي تستخدم الفحم .

هذا ونجد أحياناً بعض المراكز الصناعية تتكون وتنمو ليس بالقرب من الوقود وانما بالقرب من المواد الاولية عندما تكون هذه المواد وفيرة أو ثقيلة الوزن يصعب نقلها بمقدار مايصعب نقل الفحم كما هي الحال في صناعة الحديد لاسيما عندما يؤلف الفحم محمول العودة في البواخر التي كانت محملة بالفلزات ، كما هي الحال في اللورين حيث انتصبت الافران العالية بالقرب من مركزي لونغوي Lnogwy وبريي Briey . كذلك نشأ مركز دولوث Duluth في الولايات المتحدة على حوض ميسابي Mésabi الحديدي .

ولكن أفضل الاماكن لنمو الصناعة الثقيلة هي التي تحتوي على معدني الفحم والحديد معاً كمركز بيتسبورغ Pittsburg في الولايات المتحدة والكروزو Creusot في فرنسا .

ويعتبر الميناء ، في بلد ليس فيه محروقات ولا مواد صناعيه ، المكان

الاساسي لقيام الصناعة وذلك لسهولة النقل وانخفاض اجوره كما هي الحال مثلا في مرسيليا حيث قامت صناعة تصفية البترول و بناء السفن وطحن الحبوب الخ ... ولنفس الاسباب تكاثرت المراكز الصناعية على شواطيء البحيرات الكبرى في الولايات المتحدة لسهولة وصول الفحم وفلزات الحديد بالطرق المائية .

ولليد العاملة أهمية ايضاً في خلق المراكز الصناعية . فمدينة كليرمون - فران Clermont - Ferrand مثلاً قدمت لمعامل الكاوتشوك ميشلان ، كل ماتحتاجه من اليد العاملة حتى غدت اليوم عاصمة الكاوتشوك في فرنسا . ولكن اليد العاملة في أغلب الاحيان تعمل على بقاء المركز الصناعي جغرافياً أكثر مما تعمل على تكوينه حتى ولو نفذت المواد الاولية التي كانت السبب في انشائه. وذلك لأن لليد العاملة في المركز القديم ثقافة عملية وتجربة تعطيانها قيمة خاصة ربما لاتوجد عند عمال المركز الجديد المراد انشاؤه ، ولهذا السبب بقيت صناعة الحرير في مدينة «ليون» في فرنسا رغم انقطاع المنطقة تقريباً عن انتاج شرانق الحرير .

وأخيراً تنشأ المراكز الصناعية في المدن التجارية الكبرى مثل باريس ، لندن ، نيويورك . واذا كانت هذه المدن صناعية في جزء منها فيعود ذلك لحاجة سكان هذه المدن العديدين لصناعات عديدة كصناعة السيارات والادوات الكهربائية وصناعة الالبسة والمواد الغذائية والكيماوية الخ ..التي تتجمع في بعض الأحياء المجاورة ، واهمية هذه الصناعات في المدن الكبرى ناشئة ليست عن وزن المواد المصنوعة وانما عن ثمن هذه البضائع الكمالية او الاساسية لغذاء السكان .

٢ - صفات المراكز الصناعية

تشترك المراكز الصناعية في بعض النواحي بالصفات العامة للمدن من حيث كتلتها وشكلها وسرعة نموها وكثافة السكان فيها، لكنها تتميز عنها بصفات اساسية لاسيما اذا اقيمت في اصلها مراكز للصناعة حول احواض الفحم ولم تكن مدناً قديمة تاريخية دخلتها الصناعة فيما بعد كباريس او لندن. وشكل المركز الصناعي يدل على عمله، وعنصره الأساسي هو المعمل بأبنيته الواسعة التي لا جمال فيها ولا رشاقة، تشرف عليها مداخن مرتفعة تنفث دخانها الكثيف الذي يتوضع، لما فيه من ذرات الفحم، على واجهات الابنية والبيوت، فيحولها مع الزمن الى سوداء قاتمة. وتقوم حول المعمل أحياء العمال، صاخبة كثيفة بدورها الواطئة المتشابهة الممتدة على جوانب الطرقات المستقيمة الطويلة وتبذل اليوم جهود كبيرة لمعالجة طراز هذه الأبنية القبيحة المنظر، ويعمل المهندسون على تزيين هذه المدن بالحدائق والاشجار لادخال شيء من المرح على شكلها الكئيب. كذلك يتميز المركز الصناعي بعدم وجود منطقة متوسطة ينمو حولها ويتسع، لذلك نجده يمتد حسب امتداد منجم الفحم او حسب اتجاه النهر المولد للقوى المحركة التي كانت سبب وجوده.

وأخيراً، يشكل المركز الصناعي، على عكس المدينة التي تجتذب كل حياة ونشاط في المنطقة المحيطة بها، نقطة التعظم في المنطقة تحيط به وتقوم الى جانبه مراكز أخرى تنمو وتتسع حتى يتصل بعضها ببعض ويؤلف المجموع، في النهاية، منطقة صناعية واسعة كما هي الحال في منطقة الرور حيث يقوم الى

جانب مركز إسن Essen الكبير رشاش من المراكز الصناعية التي تتفشى وتتسع كنقطة من الزيت على قطعة من الورق . كذلك الامر في منطقة الشمال في فرنسا ومنطقة لانكشاير في انكلترة .

٣ ـ نتائج نمو المراكز الصناعية .

يؤدي نمو المراكز الصناعية الى نتائج عديدة أهمها التوسع التجاري في المنطقة . لان المواد المصنوعة في هذه المراكز ترسل للتصدير ، فليدس Leeds مثلاً تصدر منسوجاتها الصوفية وليل Lille قاطراتها وشيكاغو تبيع أوائلها الزراعية وباريس تصدر سياراتها ولكي تستطيع تصدير هذه البضائع تحتاج المراكز الصناعية الى استيراد الفحم أو المواد الأولية . وقد يتأتى للمركز الصناعي الذي انشىء لاستغلال مادة من المواد الاولية أن يأتي بعد زمن على كل مايحتويه المنجم من هذه المادة .. ولما كان من الصعب نقل الآلات ذات الأثمان الباهظة ونقل الايدي العاملة الى مكان آخر ، يضطر عندئذ الى استيراد المادة الاولية التي تنقصه من خارج المنطقة . فمركز برمينغهام مثلاً يشتري الحديد اليوم من السويد ويستورد مركز سانت ـ اتين st-Etienne حديده من اللورين أو من الجزائر . غير أن كلفة المواد المصنوعة ترتفع بسبب استيراد المواد الأولية من مسافات بعيدة . ولذا يضطر المركز الصناعي غالباً الى تبديل نوع المواد التي كان يصنعها من قبل . وهذا ماحدث في مركز بيتسبورغ الذي كان يصنع الصلب لوجود الحديد في المناجم القريبة منه عندما ترك صنع هذه المادة الى مركز دولوث وتحول هو الى صنع الأدوات الفولاذية .

نفس الشيء حدث في مركز الكروزو Le Creusot الذي تنازل عن صنع الصلب والحديد الى صنع الأدوات الحديدية والفولاذية الغالية الثمن .

الى جانب التجارة الخارجية ، يعتبر المركز الصناعي ، من أهم دواعي تنشيط التجارة الداخلية وذلك لوفرة سكانه ولما يتطلب هؤلاء السكان من مواد غذائية والبسة ومواد مصنوعة .

والتوسع التجاري يؤدي حتماً الى توسع شبكة المواصلات والنقل . ولذا تخرج من المركز الصناعي شبكة متراصة من الخطوط الحديدية والطرق والاقنية ، وأخيراً يؤدي توسع المركز الصناعي الى تزايد كثافة السكان ، فبرمنغهام مثلا كانت تعد عام ١٨٩٦ أربعمائة الف نسمة يزيد عدد سكانها اليوم على ١،١١٢،٠٠٠ نسمة كذلك شيكاغو ارتفع عدد سكانها من (٧٠) نسمة عام ١٨٣٠ الى (٣٩،٠٠٠) عام ١٨٥٠ ثم الى ٣،٦٢١،٠٠٠ عام ١٩٦٠ .

٤ — مركز بيتسبورغ

تمتد منطقة بيتسبورغ الصناعية في النهاية الشمالية من حوض الابالاش الفحمي وفي القسم الغربي من ولاية بنسلفانيا ، وأهم ميزات هـذه المنطقة بالنسبة الى الولايات المتحدة أنها أقدم المناطق الصناعية فيها .

ومن أهم الأسباب في توسع هذه المنطقة هو وجود الحوض الفحمي الكبير فيها . يتوضع الفحم في هذا الحوض على شكل طبقات أفقية سميكة منتظمة وقريبة من سطح الأرض ، تتراوح ثخانة الطبقة الواحدة بين متر واحد وثلاثة أمتار ونصف وتمتد على شكل مربع طول ضلعه (٨٠) كم . وأدى حت المياه

الجارية في هذا الحوض الى تقسيمه الى أجزاء كثيرة مكنت من استغلال طبقة الفحم بالعراء من غير أن يعمد الى حفر الآبار العميقة . وقد جهز العمال بادوات حديثة تتحرك بالكهرباء أو بالهواء المضغوط ثم ينقل الفحم بعربات خاصة . ونتيجة لهذا التجهيز الفني ارتفع مردود العامل أربع أو ست أمثال مردود العامل في المناجم الأوروبية .

ومما ساعد هذه المنطقة على توسيعها الصناعي اكتشاف طبقة من البترول ومن الغاز الطبيعي فيها، وقد نفذتا اليوم بعد أن ساهمتا الى حد بعيد في ازدهار الصناعة في بيتسبورغ .

تحتوي المنطقة الى جانب الفحم والغاز والبترول حوضاً كبيراً لفلزات الحديد ضمن طبقة الصخور الكلسية العائدة للزمن الأول الجيولوجي . وبقيت مناجم الحديد هذه المورد الوحيد تقريباً للولايات المتحدة حتى اكتشاف مناجم الحديد حول البحيرة العليا . وهذا ما جعل بيتسبورغ أقدم مركز للصناعات الحديدية مما أكسبها قوة بالنسبة الى المراكز الحديثة التي تزاحمها اليوم كمركز برمينغهام في ولاية الاباما Alabama . أما اليوم فتستورد بيتسبورغ فلزات الحديد من مناجم البحيرة العليا وذلك لسهولة النقل عبر البحيرات .

ومما يساعد مركز بيتسبورغ على ازدهاره الصناعي وجوده أولاً في قلب المنطقة الصناعية الكبرى وقربه ثانياً من الأسواق المستهلكة الموجودة على الساحل الشرقي . كما أن موقع بيتسبورغ الجغرافي انتخب في نقطة تلاقي نهرين كبيرين هما أليغاني Alleghany والمونونغاليا Moongahéla يؤلفان باتحادهما نهر الاوهايو Ohio ، وتشكل الأنهار الثلاثة وسط هذا النجد الصعب المسالك

طرقاً ممتازة كانت سبباً في تخفيض ثمن الفحم الحجري وبالتالي كلفة المواد المصنوعة .

أما صفات هذا المركز فستمدة من شروط نموه وتوسعه . فالمدينة جميلة تتسلق سفوح الوديان التي كانت السبب في وجودها ، تشقها طرق ملتوية وقطر كهربائية خاصة لتسلق السفوح المنحدرة (Funiculaire) ، وعند ملتقى النهرين تقوم أحياء ناطحات السحاب الضخمة تطل على حركة المراكب المخصصة لنقل الفحم والتي لا تنقطع ليلاً نهاراً. الشكل (٢٥) .

يقابل هذه الأحياء الجميلة ، أحياء ملوك الفحم ، أحياء عمال المناجم القبيحة الكئيبة القذرة . وتنهمر على جميع الأحياء سحب من الدخان المتصاعد من مداخن المعامل الجبارة كمعامل كارنجي ومعامل وستينكهاوس الخ .. أما في الليل فتضيء المدينة ألسنة اللهيب وذرات الفحم المشتعلة المتصاعدة من مداخن الافران العالية الشامخة ومن أفران صهر الحديد ، وتنعكس الأنوار جميعها في مياه الأنهار القريبة .

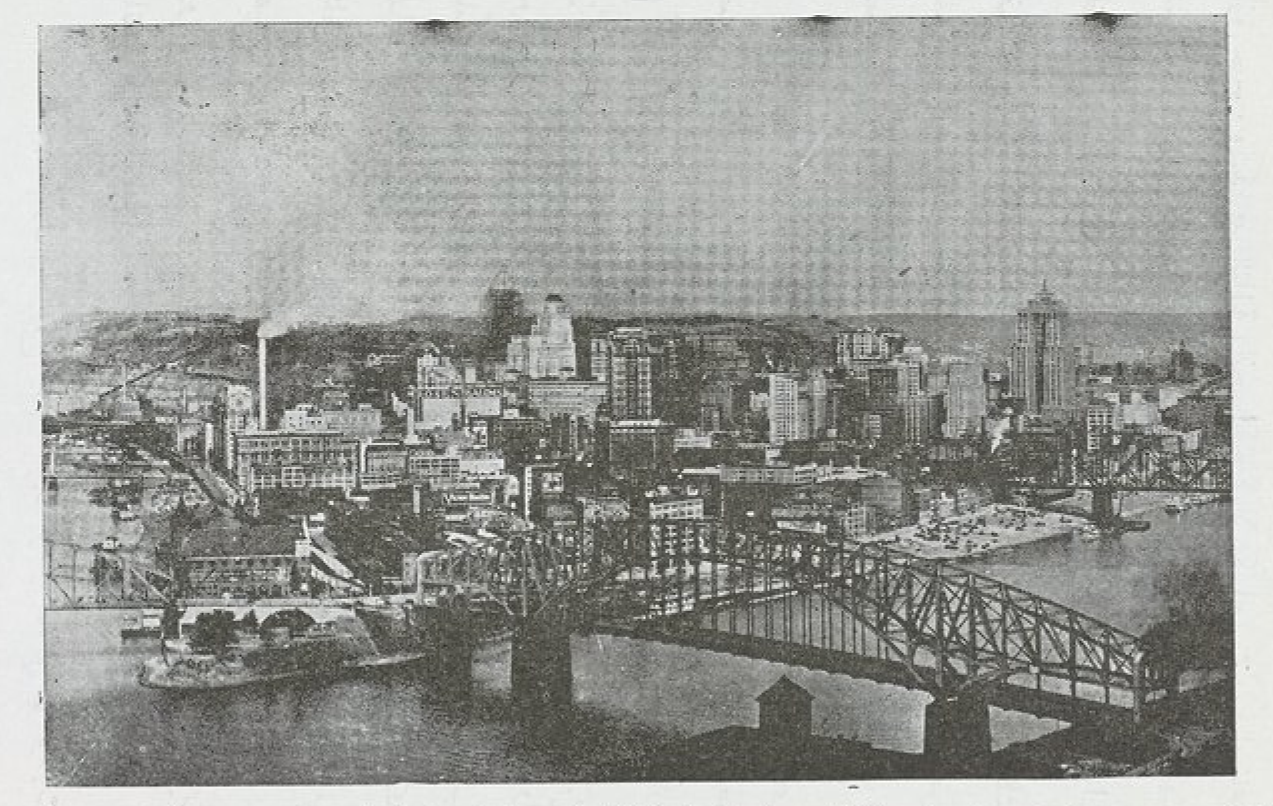
وتمتد المراكز الصناعية التابعة لبيتسبورغ على طول مجرى الأنهار الى مسافات بعيدة . وتقدر مساحة هذا المركز مع توابعه بمساحة دائرة مركزها بيتسبورغ وطول نصف قطرها (٥٠) كم .

وتعتبر المدينة من مراكز الكثافات الكبرى في الولايات المتحدة اذ يزيد عدد نفوسها مع ضواحيها على « ١،٤٠٠،٠٠٠ » نسمة . وهي أكبر مركز عالمي لصناعة الحديد والصلب . تنتج المنطقة ٢٧٪ من الانتاج العالمي للصلب

لا شك ان نفاذ فلزات الحديد من مناجم المنطقة ومنافسة دولوث لها أوقعها بمأزق حرج . ولكن فقر الثانية بالفحم الحجري لا يمكنها من ممارسة الصناعة التحويلية ولذا ينقل نتاج صناعتها الثقيلة الى بيتسبورغ لتحويله وصنع الأدوات المختلفة . وقد قدر موظفو الاحصاء أن هذا المركز ينتج لوحده $\frac{١}{١٠}$ الأدوات الفولاذية والحديدية المصنوعة في الولايات المتحدة، كالمحركات البخارية والسكك الحديدية والأعمدة والأسلحة والأواني المختلفة ، كذلك توجد فيها بعض الصناعات التابعة لصناعة الحديد ، كالطباعة وصناعة الادوات الزجاجية الخ . .

الى جانب أهميتها الصناعية تشتهر بيتسبورغ بمركزها التجاري الكبير فهي تصدر منتوجاتها الصناعية المتنوعة وتستورد المواد الغذائية من السهول المتوسطة ثم توزعها في جميع أرجاء المنطقة الصناعية في بنسلفانيا. ومما يسهل هذه التجارة ويزيد في قوتها شبكة مواصلات كثيفة ومتنوعة . تستعمل الطرق المائية فيها لتوزيع الفحم على المراكز الصناعية المختلفة ، كما تلعب هذه الشبكة دوراً هاماً في نقل فحم الكوك والرمل والكلس . وقد بلغ وزن محمول المراكب الداخلة الى بيتسبورغ والخارجة منها (٢٥) مليون طن . كذلك لشبكة الخطوط الحديدية أكبر الأهمية في حياة بيتسبورغ وازدهارها ؛ تتشعب في جميع المنطقة وتمتد نحو الشرق أي نحو الساحل الشرقي ومدنه الكبرى نيويورك وفيلادلفيا . أما الطرق فحديثة العهد أي منذ اوائل القرن العشرين وانتشار صناعة السيارات .

الخلاصة : — لم تزل بيتسبورغ اليوم أكبر مركز صناعي في الولايات



(الشكل - ٢٥) مدينة بيتسبورغ ويظهر فيها التقاء نهر الاليغاني (الى اليسار) نهر المونانغاليا (الى اليمين) حيث يقوم الحي التجاري الكبير

المتحدة لغناها بالفحم ولقربها من فلزات الحديد ، ولقدمها واختصاصها بصناعته وأخيراً لموقعها الجغرافي الممتاز بين المنطقة الساحلية والمنطقة الشمالية الغربية ذات السهول الواسعة ،والمدينة كثيفة السكان ، غير أن سكانها فقراء يتكلمون شيئاً ضئيلا من اللغة الانكليزية .

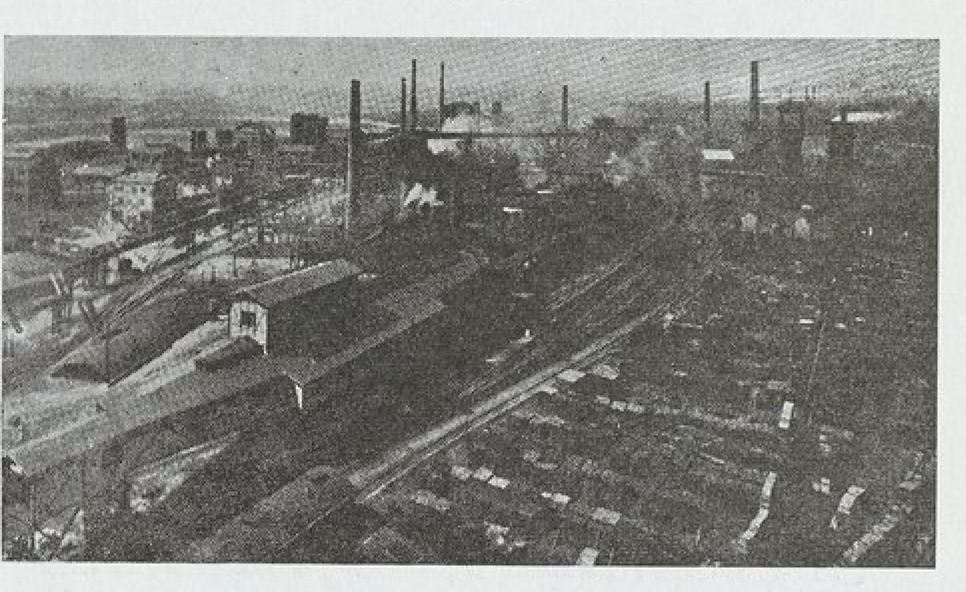
٥ ـ حوض الرور :

يمتد على السفح الشمالي من جبال الرين الشيستية وعلى السهل المنبسط في أسفل هذا السفح ، حوض فحمي واسع تبلغ مساحته (١٠) آلاف كم٢ أي بقدر مساحة لبنان . وقد بدأت مناجم القسم الجنوبي بالنفاذ بينما لم تزل أقسامه الشمالية في عهد الشباب رغم استغلالها المتواصل . ويؤلف استخراج الفحم في هذا القسم النشاط الاساسي . أما المنطقة الصناعية الكبرى فتقع في القسم المتوسط تمتد على مساحة تتراوح بين (٥و٦) آلاف كم٢ . ويزيد عدد نفوسها على (٧) ملايين نسمة بكثافة متوسطه ترتفع الى (١٢٠٠) نسمة في الكم٢ الواحد . تتتابع المدن الى جانب بعضها وتتصل أحياناً بضواحيها . ويشاهد الناظر من الطائرة رشاشاً من المساكن والمباني ويتتابع على مسافة تقرب من (١٠٠) كم منظر واحد يكاد لا يتغير هو منظر الاخشاب المعدة للمناجم ، فالمداخن الشاهقة فأكوام شوائب الفحم فالافران العالية تليها دور المعدنين . ثم تمتد هنا وهناك عدد هائل من الخطوط الحديدية والاقنية والأنهار ذات المياه السوداء . ويغطي هذا كله سماء مثقلة بالدخان وبهواء مملوء بذرات الفحم . الشكل (٢٦) .

وأسباب أهمية هذا الحوض هو غناه بالفحم وقربه من مناجم الحديد في اللورين. يحوي حوض الرور في أحشائه (٩٤) طبقة من الفحم متوضع بعضها فوق بعض ويبلغ مجموع عمقها (٧٩) متراً تعطي مختلف أنواع الفحم الذي يصنع منه الكوك لا سيما في القسم المتوسط من الحوض.

وقد ارتفع انتاج الفحم في حوض الرور من (١٢) مليون طن عام ١٨٧٠ الى (١١٨) مليون طن عام ١٩٢٩ .

أما مناجم الحديد الموجودة في نفس المنطقة وأشهرها مناجم « **سيغرلاند** siegerland » فغير كافية ويكلف استخراج الفلزات منها غالياً . وكان حوض اللورين الذي ضمته المانيا لاراضيها عام **١٨٧١** يقدم للرور عام **١٩١٣** — ٤٠٪

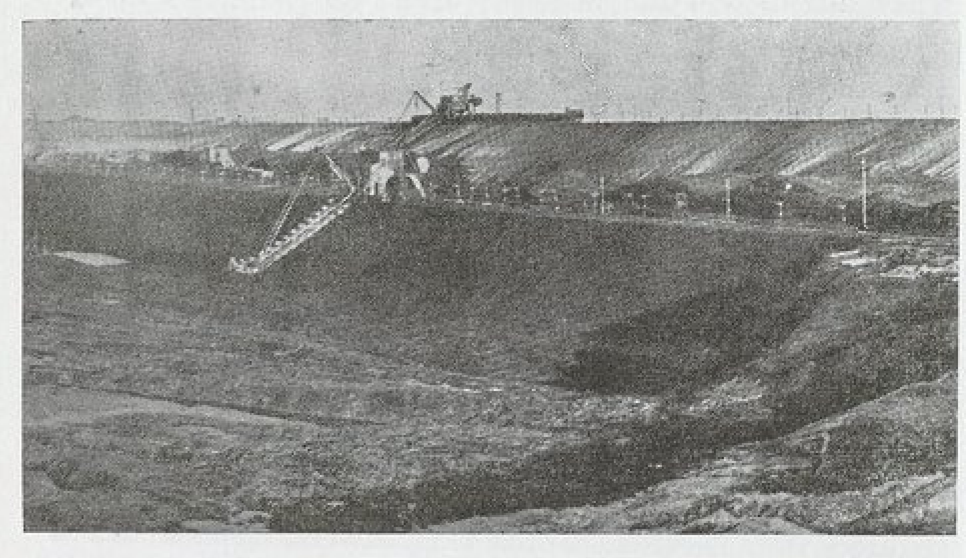


(شكل - ٢٦)

منجم من مناجم حوض الرور يرى الى اليمين مستودعات الاخشاب المخصصة لدعم الانفاق في المنجم ، والى اليسار أنابيب الغاز الذاهبة من أفران فحم الكوك الى معامل الفولاذ

من استهلاكه لفلزات الحديد و يستورد الباقي من اسكانديناڤيا واسبانيا الخ . على بواخر خاصة تصعد نهر الرين حتى مراكز الافران العالية . وبعد الحرب العالمية الاولى اتجهت المانيا نحو اسكانديناڤيا لتموينها بفلزات الحديد . وقد اشترت المانيا عام ١٩٢٩ (٨) ملايين طن من الفلزات من اسكانديناڤيا و (٣،٢٥) ملايين طن من فرنسا و (٣) ملايين طن من اسبانيا و (١) مليون طن من الجزائر وتونس .

ويمتاز هذا الحوض أخيراً ، بوقوعه على نهر الرين الذي يعد أهم الطرق المائية في اوروبا ، وبواسطته يمكن للمواد الاولية الصناعية وللمواد الغذائية أن تصل الى حوض الرور كما يستطيع هذا الحوض تصدير الفحم باحسن الشروط الاقتصادية وأوفرها الشكل (٢٧) .

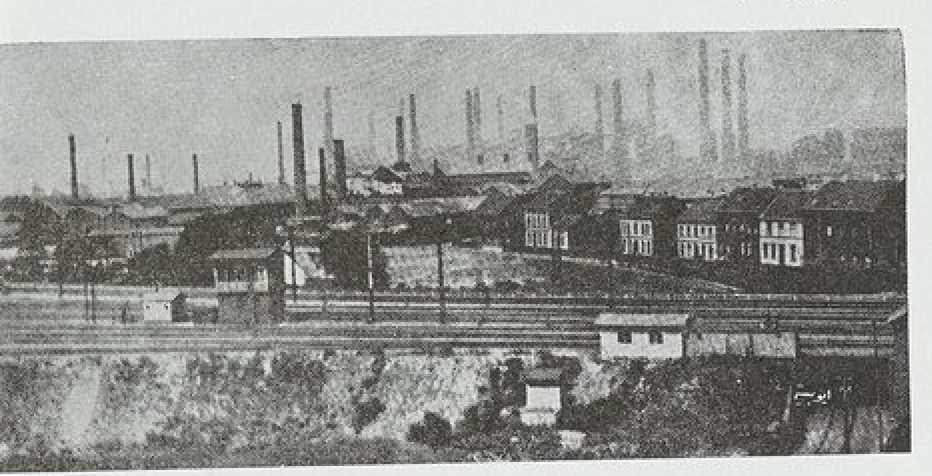


(الشكل - ٢٧)

منجم لفحم الليغنيت في حوض «بون » الفحمي

نرى في وسط الشكل غرافتين الاولى ترفع الفحم من المنطقة المنخفضة الى المنطقة المرتفعة والثانية تحمل الفحم لتفرغه في شاحنات القطار

أما صفات هذه المنطقة الصناعية الاساسية فهي مجموع صفات التوسع الهائل وتظهر آثار هذا التوسع في كمية الانتاج الهائلة والمنتظمة في استخراج الفحم وفي محصول الصناعة الحديدية والنسيجية . كذلك يظهر التوسع بتضخم شبكة المواصلات ووسائل النقل . فالخطوط الحديدية العامة أو الخاصة بالمنجم والمعامل بلغت ، بعددها وتقاطعها واتصالاتها ، درجة من التعقيد لا يستطيع إدارتها إلا من قضى زمناً طويلا في السهر على تأمين سير المواصلات في منطقة الرور . الى جانب الخطوط الحديدية تأتي الطرق المائيـة التي تتعاون مع الاولى : ويشكل **نهر الرين** العنصر الرئيسي لهذه الشبكة . وقد تجاوز محمول البواخر الى مركزي (روهرورت — دويسبورغ Ruhrort-Duisburg) قبل الحرب العالمية الثانية العشرين مليون طن . كما تجاوز محمول المراكب على القناة الممتدة من روهرورت الى دورتموند Dortmund العشرة ملايين طن ، الشكل (٢٨) .



(الشكل - ٢٨)
منظر عام لبعض مناطق المعامل في مدينة « روهرورت Ruhrort »

هذا وقد تبعت زيادة السكان زيادة الانتاج الصناعي ؛ فكلما فتح بئر لمنجم جديد نشأت حوله مدينة جديدة تضم عدة آلاف من السكان كما هي الحال في مدينة « هامبورن hamborn » التي خلقت من العدم والتي ارتفع عدد سكانها الى (١١) الف نسمة عام ١٨٩٥ ثم الى (١٢٦٠٠٠) عام ١٩٢٥ .

وقد شاهدت هذه المنطقة الصناعية تضخم مدنها الكبرى أولا بين عام ١٨٥٠ — ١٨٦٠ عندما شيدت تلك الابنية الضخمة السوداء التي تتسع لعشرات من اسر العمال المتراصة فوق بعضها ، ثانياً بعد عام ١٨٧٠ عندما بدىء ببناء مدن العمال حيث تتألف من دور صغيرة تتسع لاسرتين تحيط بها الحدائق المخصصة لزراعة الخضار والاشجار المثمرة . وتتجمع هذه المساكن حول المدرسة والكنيسة والمكتبة العامة .

ويؤمن تموين المنطقة في جزء منه محلياً حيث تمتد الزراعة الخثيثة في الوديان المنخفضة يضاف اليها تربية المواشي لا سيما البقر الحلوب .

غير ان القسم الاعظم من المواد الغذائية يجلب اما من بقية المناطق الالمانية كالبطاطا والقمح الاسود ، وإما يستورد من البلاد الاجنبية . ويؤلف نهر الرين الطريق الكبير التي تسلكه اكثر الواردات .

وتعتبر « اسن Essen » اكبر مدينة في حوض الرور واقدم مركز صناعي فيه . كذلك هي مركز كامل لوجود الفحم وصناعة الحديد معاً . ويرجع تاريخ اول المناجم التي فتحت وأول المعامل التي شيدت في المدينة الى عام (١٨١٥) ولم تكن نفوس المدينة حينذاك تربو على (٤٠٠٠) نسمة . فازداد نموها ببطء في بادىء الامر حتى عام (١٨٥٠) ثم اخذ يتسارع بعد ذلك لا سيما بعد

ان تمت الوحدة الالمانية عام (١٨٧١) وارتبطت مقدرات معامل كروب Krupp بمقدرات الامبراطورية الالمانية . حتى ان نفوس المدينة ارتفعت قبل الحرب العالمية الاولى الى ما يزيد على النصف مليون نسمة . واستفادت إسّن من تكتل الصناعات وتجمعها في جميع انحاء حوض الرور على شكل شركات كبرى جعلت مركزها الرئيسي مدينة إسن . وا كبر هذه الشركات هي شركة « كروب » التي توسعت وازدهرت اعمالها بعد ان عمدت الى صنع المدافع الفولاذية . وهي شركة كبرى فيها كل ما يصنع من الحديد والفحم من استخراج الفحم حتى بناء ا كبر وحدات الاسطول الالماني ، ومعامل « جرمانيا » الشهيرة في مدينة كيل Kiel تابعة لهذه الشركة . وقد بلغ طول الجدار المحيط بمعامل استحصال الصلب التابع لها (١١) كم حتى كأن منطقة معامل الشركة تؤلف لوحدها مدينة داخل مدينة إسن . كذلك فيها المركز الرئيسي لنقابة اصحاب مناجم الفحم ، وتظهر إسن ، لما فيها من مراكز الشركات المختلفة ، كأنها المركز الرئيسي الموجه لاقتصاديات حوض الرور ، غير ان هذه الميزة لا تقتصر على هذه المدينة فقط ولغيرها من مدن الحوض مثل « دوسلدورف Dusseldorf أهميــة كبرى أيضاً لما فيها من المدارس العالية والمتاحف الثمينة ومراكز الشركات . الى جانب أهميتها الصناعية بمادة الحديد والفحم تعتبر إسن ا كبر المراكز التجارية في الحوض تقوم بتموين هذا العدد الهائل من العمال .

وتستند حركة المدينة الصناعية والتجارية على شبكة مترامية للمواصلات فالخطوط الحديدية بقطاراتها الخاصة بالعمال وبقطارات الشحن العديدة التي تخترق المدينة تساعدها حافلات الترامواي الكهربائية وسيارات « الأوتوبوس » تدل

على حمى الحركة اليومية للبضائع والسكان . حتى بلغ عـدد محطات القطارات المخصصة للركاب (٢٧) محطة وعـدد المحطات المخصصة لشحن البضائع (٢٦) محطة . وجميعها في حركة دائمة في الليل والنهار . وهكذا تمثل إسن مظهر الصناعة الألمانية بأوضح وجوهها واكمل نشاطها .

٦ ــ منطقة لانكشاير

تعد منطقة لانكشاير Lancashire من المناطق الصناعيـة الكبرى في انكلترة ، وللتجارة في هذه المنطقة بمقدار ما للصناعة من اهمية . والعاملان الرئيسيان في نشاط المنطقة وازدهارها هما ميناء ليفر بول ومدينة مانشستر .

ولم يكن الفحم هنا أساساً في توسع المنطقة كما كان الحال في مدينتي بيتسبورغ وإسن وانما جاءت الأهمية من موقع ليفربول نفسها على مصب نهر « المرسي Mersey . وكانت علاقاتها التجارية مع ارلندة ، ثم تشعبت هـذه العلاقات بسبب اتجارها بالمواد الأولية التي تستوردها من المستعمرات ومن تجارة الرقيق.

هذا ، واذا كانت التجارة هي الأساس في نشاط ميناء ليفربول فالصناعة هي التي خلقت اهمية مانشستر . وقد قامت فيها بادىء الأمر صناعة نسيج الصوف بسبب وجود قطعان الأغنام المنتشرة على سفوح سلسلة « البنين Pénnine » . وساعد الصوف المستورد من ارلندة على تضخم هذه الصناعة التي أخذت بعد ذلك تنسج الكتان الى جانب الصوف .

ثم ادخلت صناعة القطن عام ١٦٤١ م وازدادت اهمية هذه الصناعة بسبب علاقات انكلترة بالهند . وبسبب سهولة تموين المنطقة بالقطن عن طريق البحر

بواسطة ميناء ليفربول . ولوجود الانهار العديدة الغزيرة الهابطة من سلسلة البنين التي تولد القوة المحركة لتسيير آلات الغزل .

كما استفادت في عصر المحركات البخارية من وجود الحوض الفحمي الكبير الى جانبها في نفس المنطقه . أضف الى ذلك كله رطوبة المناخ التي تساعد على غزل ادق الخيوط ، وللمنطقة شهرة خاصة بالخيوط القطنية الدقيقة التي لاتوجد في غيرها من مناطق الغزل .

وليفربول اليوم مدينة واسعة فسيحة يؤلف نهر الموسى فيها الشارع الرئيسي . وقد غدت القرى المحيطة بها مدناً هامة مثل « بوتل Bootl » و « سيفورث Seaforth و « واترلو Waterloo » و « بيركنهايد Birkenhead » على الشاطيء الأيسر . وقد توسعت المدينة بسرعة من غير ان تهتم بتجميل شوارعها وساحاتها. اما سكانها فمن عناصر مختلفة: انكليز وارلنديين وايكوسيين . وارتفع عددهم من (١٠٠٠) نسمة عام ١٧٥٠ الى (١٦٥٠٠٠٠) عام ١٨٣١ حتى بلغ قبيل الحرب العالمية الأولى (٩٠٠٠٠٠) تقريباً .

اما مانشستر فكان توسعها الحقيقي في القرنين التاسع عشر والعشرين . ونفوسها التي لم تكن تتجاوز (٢٠٠٠٠) نسمة عام ١٧٦٠ ارتفع عددها الى (٩٥٠٠٠) عام ١٨٠١ وبلغت نفوس المدينة مع ضواحيها بعد الحرب العالمية الاولى مليون نسمة .

الى جانب المدينة الصناعية تقوم مدن كبيرة عديدة ومتقاربة من بعضها مثل أشتون Ashton وغلوسوب Glossop و ستوكبور Stockport .

ثم على السفح الشمالي لحوض المرسي قامت مدينة سانت هيلين St - Helens و « ويغان Wigan » و « بولتون Bolton » و « أولدهام Oldham » وتجمعت في حوض نهر الريبل Ribble عدة مدن اشهرها « بلاكبورن Blackburn » و « برستون Preston ».

هذا ويمكن معرفة حركة منطقة لانكشاير و نشاطها التجاري والصناعي من بعض الأرقام الخاصة بميناء ليفربول اذ بلغ وزن البضائع فيه قبل الحرب العالمية الثانية (٢١،٦٩٠،٠٠٠) طن من البضائع . وذلك لأن ليفربول مع لندن هما الميناءان الوحيدان في انكلترة اللذان يستوردان مختلف البضائع من الامبراطورية لتوزيعها على بقية المناطق و المدن الانكليزية .

ويعتبر ميناء ليفربول ايضاً ميناء منطقة لانكشاير الخاص اذ يستورد لوحده $\frac{٥}{٧}$ كمية القطن التي تصنع في هذه المنطقة. و يستورد كذلك الصوف والقنب وفلزات الحديد وجميع المواد الغذائية الضرورية لحياة المنطقة .

اما حركة التصدير فليست مقتصرة على انتاج المنطقة نفسها اذ نجد الى جانب المنسوجات القطنية وخيوط الغزل التي تصنع في مانشستر انوال الغزل والنسيج التي تصنع وسط انكلترة والمنسوجات الصوفية المصنوعة في يوركشاير حتى أن مقدار الصادرات يفوق كمية الواردات الى الميناء .

ومن الصفات الهامة لمنطقة مانشستر تراص المراكز الصناعية فيها على مساحة صغيرة من الأرض وتخصص المعامل بنوع واحد من العمل . فمعامل الغزل مثلا تجمعت في الجنوب ومعامل النسيج في الشمال . وذهب الاختصاص

بالمعامل الى ابعد من ذلك ، مثلا اختصت معامل « أولدهام » وضواحيها بغزل الخيوط القطنية المتوسطة الثخانة ، واختصت معامل « بولتون » بغزل الخيوط الدقيقة ، كما ان المنسوجات القطنية المصدرة للصين والهند تنسج في معامل « بلاكبورن » وينسج المخمل في معامل « اولدهام » وما هذا الاختصاص الواسع في الغزل والنسيج سوى صدى لسعة السوق التجاري الانكليزي في جميع انحاء العالم ، اذ لكل نوع من المنسوجات او من الغزل اسواق تستنفد كل ما يصنع في انكلترة .

وهناك اختصاص من نوع آخر ، اذ بينما تهاجر معامل الغزل والنسيج من مانشستر الى المراكز المحيطة بها نجد تجارة المنسوجات تتركز في المدينة نفسها . ولذا « فبورصة » مانشستر هي التي تحدد اسعار الغزل والمنسوجات القطنية .

اما وسائل النقل والمواصلات في المنطقة فكثيفة وسريعة واهم هذه الوسائل كلها خليج المرسي . وبعد ان بقيت مانشستر مدة طويلة تابعة لميناء ليفربول في كل ما تستورد او تصدر ارادت ان تتحرر فبنت لنفسها قناة بحرية خاصة طولها (٧٥) كم تم فتحها عام ١٨٩٤ تصلها مباشرة بخليج المرسي وتمر على بعد (٩،٥) كم الى الجنوب من ليفربول .

وتتشعب الخطوط الحديدية في جميع انحاء المنطقة وتخرج من مدينة مانشستر على شكل نجمة تتوزع اشعتها في كل ناحية .

ويمكن القول ان جميع المدن الكبيرة الواقعة في القسم الجنوبي من لانكشاير

تؤلف منطقة صناعية فريدة ابرزت للعالم لأول مرة انموذجاً من الحضارة الجديدة، حضارة جماعات العمال الذين يعيشون حياة رفاه وسعة لا تستعبدهم هموم اعمالهم اليومية ، ذوي افكار حرة يهتمون بسعادتهم ويحبون السفر والسياحة ويطمحون دوماً الى سوية حياة ارفع مما هم عليه اليوم .



الفصل العاشر

سكان العالم وتوزيعهم الجغرافي

البحث الأوّل

سكان العالم

حسب الاحصاءات الرسمية للبلاد المتحضرة وحسب التخمينات التي اجراها بعض الخبراء عن البلاد غير المتحضرة ، يقدر عدد السكان على سطح الأرض لعام ١٩٦٠ بـ (٢٢٩٥) مليون نسمة توزع على القارات كما يلي :

آسيا (باستثناء الاتحاد السوفياتي)	١٦٧٩	مليون نسمة
اوروبا » » » »	٤٢٧	» »
امريكا	٤٠٥	» »
افريقية	٢٥٤	» »
اوقيانوسيا	١٦٫٥	» »
الاتحاد السوفييتي	٢١٤٫٤	» »

ولكن اي قيمة يمكن ان تعطى لهذه الأرقام ؟ نحن نعلم ان البلاد المتحضرة تجري احصاءات منظمة في فترات محدودة من الزمن . ولكن قد لا تخلو هذه

الاحصاءات من بعض الأخطاء كاغفال قيد بعض المواطنين او بالعكس احصائهم مرتين في مكانين مختلفين ، المرة الأولى في مكان اقامتهم والمرة الثانية في مكان ولادتهم الخ ... غير انهذه الأخطاءطفيفة يمكن التغاضي عنها ، وتعطي المقارنة بنتائج احصاءات متعددة لبلد ما ، صورة واضحة عن تغير عدد سكانها كما تبين عدد الولادات والوفيات وعدد المهاجرين النازحين عنها او العائدين اليها .

ان أكثر البلاد الأوروبية تحصي عدد سكانها مرة في كل عدة سنوات ، ففي فرنسة والمانية وبلجيكا احصاء يجري كل خمس سنوات ، وفي انكلترة والنروج كل عشرة سنوات ، ولبقية الدول الأوربية احصاءات متعددة وان لم تكن في فترات محددة كما هي الحال في البلاد التي ذكرناها ، لذلك نستطيع ان نعرف بقدر كاف من الصحة عدد السكان في اوروبا . كذلك الامر في امريكا حيث تجري في كندا احصاءات مماثلة للاحصاءات التي تجري في انكلترة . واكثر جمهوريات امريكا الوسطى والجنوبية تجرى فيها احصاءات منتظمة دع عنك احصاءات الولايات المتحدة التي فاقت بدقتها وضبطها الاحصاءات الأوربية ، حتى بلغ فيها عدد موظفي الاحصاء الدائمين (١١٠٠٠٠) موظف ، غير ان مهمة هذه الدوائر لا تقتصر على احصاء عدد السكان فقط وانما تتعداها الى اجراء احصاءات لجميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

اما بقية القارات كآسيا وأفريقية واوقيانوسيا ، اذا استثنينا اليابان وبعض الممتلكات الأوروبية ، لا نجد لها احصاءات منظمة ، وقد قامت بعض الدول في هذه القارات باحصاء عدد سكانها كالصين مثلا ولكن النتائج مشكوك

بصحتها ، واول احصاء دقيق منظم جرى في تركيا عام (١٩٢٧) عنـدما منع السكان من مغادرة منازلهم واوقفت حركة السير والنقـل بين جميع المقاطعات لمدة (٢٤) ساعة ، وذلك كما حدث في سورية عام (١٩٤٧) ، ففي هـذه البلاد يستعاض عن الاحصاء بالتخمين ، ولـكن التخمين يختلف من شخص الى آخر حسب المدة التي قضاها الخبير في البلد الذي يريد معرفة عدد سكانه وحسب الطريق التي سلكها في تجواله والمعلومات التي جمعها عنهـا ، فالتخمينات التي جرت لتقدير عدد سكان جزيرة « مدغشقر » مثلا كانت تتراوح بين المليون والست ملايين ، حتى اذا ما جرى فيها احصاء حكومي منتظم حدد عـدد سكانها بـ (٣،٧٠٠،٠٠٠) نسمة .

وعدد سكان الأرض غير ثابت ورغم الأسباب الـكثيرة التي من شأنهـا ان تنقص عدد السكان كالأوبئة (الطاعون والـكوليرا الخ ..) ومصائب الطبيعة (كالزلازل وانفجار البراكين والمجاعات الناشئة عن انحباس الأمطار) ورغم الثورات والحروب (يقدر عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية بـ «٣٤» مليون نسمة وعدد المشوهين بـ «٢٧» مليون نسمة) فان سكان الأرض في ازدياد مستمر . وقـد اصبحت هذه الزيادة محسوسة منذ ابتداء القرن التاسع عشر . وحسب ما جاء في موسوعة « لوسيان فيفر Lucien Febver » عن عـدد سكان الأرض نجد عددهم عام :

١٦٥٠	٤٦٥	مليون نسمة	
١٧٥٠	٦٦٠	«	«
١٨٥٠	١٠٩٨	«	«
١٩٠٠	١٥٥١	«	«
١٩٥٠	٢٤١١	«	«
١٩٦١	٣٠١٢	«	«

اذن ارتفع عدد سكان العالم الى اكثر من ستة أضعاف في مدة ثلاثة قرون كما انه ارتفع الى ثلاثة أمثال تقريباً خلال المائة سنة الأخيرة . ولم يزل هذا العدد يزداد بسرعة فائقة تدعو الى القلق .

وهذا مادعا بعض العلماء لطرح السؤال الآتي : كم تستطيع الأرض أن تستوعب من السكان ؟

ان على سطح الأرض مناطق فسيحة لم تستغل بعد ، وتقدم العلوم بما فيها الزراعية والكيمياوية ، يساعد على تقوية التربة وزيادة الانتاج . ومما لاشك فيه ان ازدياد سكان الأرض لايمكن أن يستمر حتى اللانهاية . غير اننا لم نزل في عصر يصعب علينا ان نفكر بتوقف هذه الزيادة قبل زمن بعيد جداً .

١ ـ اسباب زيادة السكان :

تعتبر الآلة والطريقة العلمية العقلانية في الاستغلال السبب الرئيسي في هذا التزايد لما وضعت تحت تصرف الانسان من قدرات الطبيعة مثل البخار والكهرباء والبترول والقدرة النووية ؛ هذه القدرات التي سببت تضخماً هائلا في الانتاج .

كما أن الطريقة العقلانية والتنظيم في جميع نواحي النشاط الاقتصادي زادا في كمية المواد المنتجة وعملا على ايجاد الوسائل المختلفة لتبادل الانتاج على مستوى عالمي واسع .

٢ - التوزيع الجغرافي للسكان

اذا نظرنا الى توزيع السكان حسب المناطق الجغرافية نلاحظ أن الصفة البارزة فيه هي التفاوت الكبير في الكثافة بالنسبة للمناطق المختلفة . واذا أجرينا عملية حسابية بسيطة على الكثافات الكبيرة والمساحة التي تشغلها نجد أن ٣/٤ السكان يزدحمون في مناطق لاتزيد مساحتها على ١/١٠ مساحة الأرض الطافية. بينما نجد مناطق أخرى شبه خالية من السكان أو ذات كثافة متوسطة . ومن هنا نلاحظ الخطأ الكبير في الركون الى متوسط الكثافة ولا يمكن الوقوف على التوزيع الحقيقي للسكان الا بوضع مصورات خاصة للكثافة .

فالمناطق الخالية من السكان هي التي تنقص الكثافة فيها عن نسمة واحدة في الكيلو متر المربع الواحد ، كالمناطق القطبية أو الصحارى (الصحراء الافريقية والصحراء العربية وصحراء كالاهاري والصحراء الاسترالية) أو الغابات الكبرى كالغابة العذراء في افريقية وأمريكا الجنوبية أو كالغابات الشمالية الباردة الكندية والسيبرية .

وتعتبر المناطق نصف خالية اذا كانت كثافة سكانها تتراوح بين (١ و ١٠) نسمات في الكيلو متر المربع الواحد . كمناطق السهوب في الولايات

المتحدة وكندا وسيبريا وأطراف الغابات الكبرى والمناطق الداخليـة في اوستراليا وأمريكا الجنوبية .

أما المناطق الكثيفة السكان فتقسم الى ثلاثة أقسام :

أ — المناطق المنخفضة الكثافة وهي التي تتراوح كثافة السكان فيها بين (١٠ و ٥٠) نسمة في الكيلو متر مربع كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبلاد الدومينيون وبعض مناطق افريقية .

٢ ـ المناطق المرتفعة الكثافة وتتراوح كثافة السكان فيها بين (٥٠ و ١٠٠) نسمة في الكيلو متر المربع كمناطق اوروبا الوسطى والغربية والمنطقـة الساحلية في شرق الولايات المتحدة .

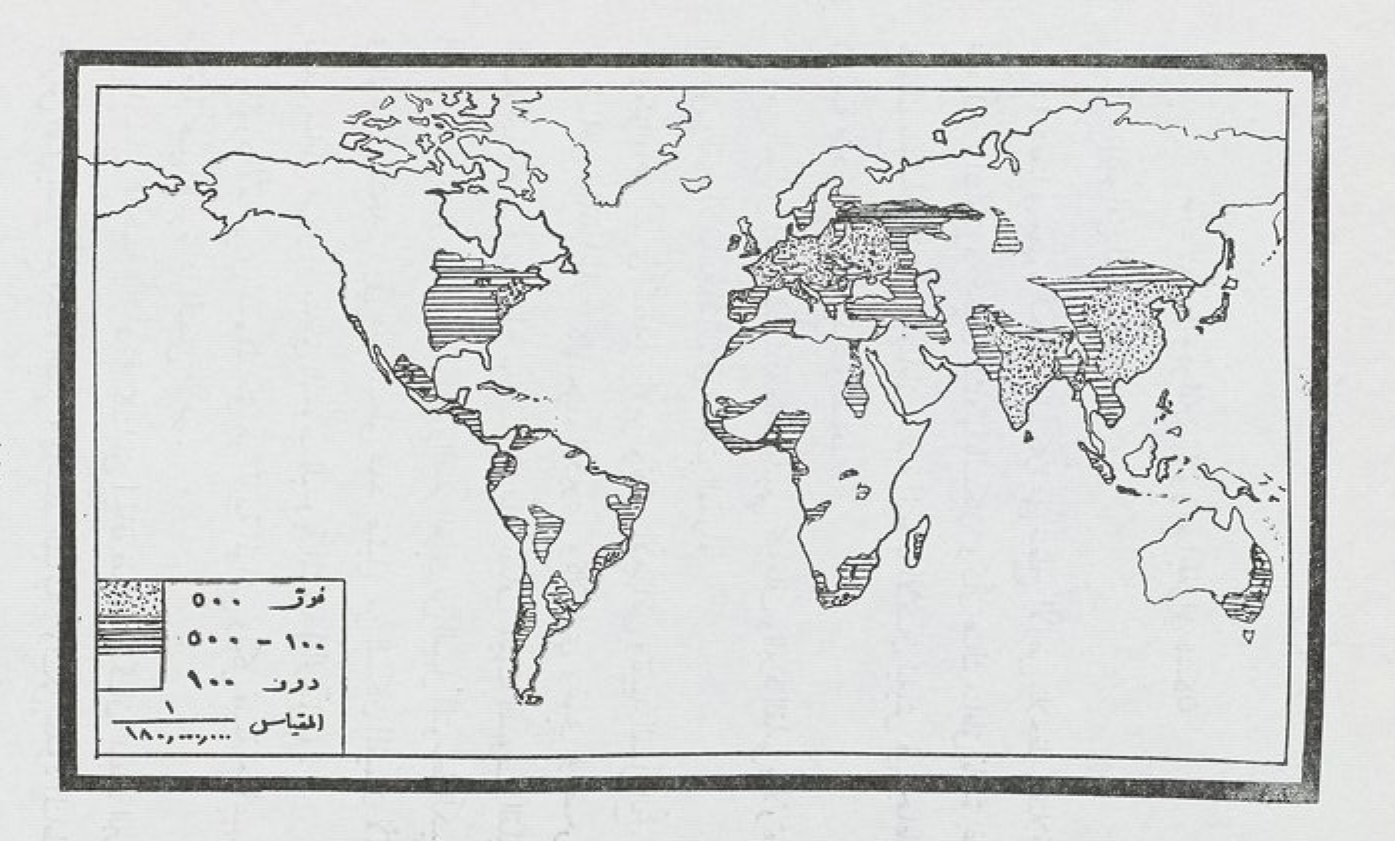
٣ — واخيرا المناطق المزدحمة السكان ويتراوح عدد النفوس في الكيلو متر المربع بين (١٠٠ و ٥٠٠) نسمة ، كالمراكز الصناعية الكبرى (حوض الرور ، ومنطقة ميدلانس والفلاندر) وبعض المناطق الصناعيـة في الولايات المتحدة ودلتا النيل والدلتات الآسيوية ووديان الأنهار الكبرى في الصين واليابان الخ ..

أما الكثافة في المدن الكبرى فتبلغ أحياناً حداً هائلا قد يتجاز (٦٥٫٠٠٠) نسمة ، كما هي الحال في « أوزاكا » في اليابان كما يمكن أن يرتفع الى (١٠٠٫٠٠٠) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ، كما هي الحال في بعض أحياء مدينة باريس Pré st gervais

هذا ونجد ضمن المنطقة الواحدة ، من المناطق التي ذكرناها ، أماكن تختلف

بكثافتها اختلافاً كبيراً . ففي الهند مثلا نجد فرقاً كبيراً بين وادي الغانج والسواحل الغاصة بالسكان وبين هضبة « الدكان » المنخفضة الكثافة كذلك الأمر في اليابان حيث نجد البون شاسعاً بين السهول الصغيرة والمناطق الساحلية المرتفعة الكثافة وبين مناطق الجبال الفقيرة بالنفوس . الشكل (٢٦) .

***



الشكل (٢٩) يمثل الشكل كثافة السكان موزعة على المناطق الجغرافية في العالم

٣ - شروط وقوانين التوزيع الجغرافي للسكان

أ - العوامل المعيقه للكثافة

اذا دققنا في مصور لكثافة السكان على سطح الأرض نلاحظ اختلافاً ظاهراً بين المناطق من حيث كثافتها بالسكان وكأن هناك مناطق نابذة غير قابلة لتوسع الحياة البشرية ومناطق جاذبة انتخبها الانسان ليعيش فيها جماعات متراصة مزدحمة لاتنفك تزداد وتتضخم .

ومن العوامل المعيقة للكثافة ماهو طبيعي كالجفاف والبرد القاسي والارتفاع الشاهق والقوه الانباتية الهائلة في الغابات العذراء .

ومنها ماهو بشري كفقدان الأمن وتفشي الأمراض وتقييد النسل الخ..

فالمناطق الجافة الحارة كالصحراء الكبرى وكالاهاري وغوبي والصحراء الاسترالية وهذه جميعها خالية من الماء تقريباً . يضاف اليها السهوب القليلة الأمطار كسهوب تركستان والسودان والقسم الغربي من السهل المتوسط الكبير في الولايات المتحدة ، وفي هذه المناطق عدد ضئيل من السكان المقيمين لأنها تؤلف مناطق مرور أو مناطق الشعوب البدوية المتنقلة (الرحّل) .

والمورد الأساسي في هذه المناطق هو تربية المواشي ولكل قبيلة مراعيها الخاصة تحميها بالقوة اذا اقتضى الأمر .

والمناطق القطبية الباردة كالمناطق الجافة فقيرة بالسكان بسبب البرد القارس الذي يتنافى مع الحياة البشرية والحياة النباتية . ولكن حدود المناطق

القطبية تختلف في نصفي الكرة ، ففي النصف الشمالي تمتد المنطقة القطبية بالقرب من حدود القارات ويقيم في هذه المنطقة عدد قليل من السكان « اللابون » و« الصاموئيد» و« الاسكيمو » يتنقلون على مسافات شاسعة ويتقدمون أحياناً حتى درجة عرض (٨١°) في ملاحقة القمة . أما في النصف الجنوبي فلا نجد سكاناً بعد أرض النار الاميركية بسبب اتساع المحيط المتجمد الجنوبي الذي فصل القارة القطبية الجنوبية عن القارات المسكونة .

اما مناطق الغابات الكثيفة فهي قليلة السكان أيضاً وكثافتها متناسبة عكساً مع القوة الانباتية للارض . فالغابات العذراء يصعب اكتساحها والنفوذ اليها ولا تصلح لسكنى الانسان . ولم تكتسح هذه الغابة الا في بعض الجزر كجزيرتي « سيلان » و « جاوا » . ولم تزل الغابات في كندا وسيبريا تستر مساحات واسعة خالية من السكان تقريباً .

كذلك المناطق الجبلية العالية تكون غالباً قليلة السكان بسبب قانون تناقص الشروط الضرورية للحياة في الأماكن المرتفعة . ولا يستثنى من هذه القاعدة إلاجبال المنطقة المدارية كالمكسيك والحبشة . ولكن انتشار الصناعة والكهرباء زادا في كثافة المناطق الجبلية .

واذا انتقلنا للبحار لا نجد لها سكاناً دائمي الاقامة . غير أن الاحصاءات التي اجريت لبعض البحار أثبتت أن لبعضها حركة هائلة في الملاحة حتى لتعتبر تقريباً كأنها مسكونة طيلة أيام السنة ، وهكذا حُسب أن كثافة النفوس في بحر الشمال تقرب من (١٦) نسمة في الكيلو متر المربع .

أما العوامل البشرية ومنها فقدان الامن فلها أهميتها ايضاً لأن الحروب

والقرصنة والسرقة والفتن الداخلية والثورات والحكم الفاسد كلها تدفع بالسكان على هجر المنطقة والنزوح عنها للتوطن في غيرها. كذلك الأمر عندما تكون المنطقة موبوءة بالامراض كنطقة المستنقعات الايطالية حيث تعصف الملاريا بحياة الألوف من السكان. وأخيراً من جملة العوامل البشرية تقييد النسل وقد أصبح شائعاً في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية كما انتشر ايضاً في المناطق المتحضرة من الاقاليم المعتدلة، واتبعت طرائق خاصة من شأنها منع الحمل وتحديد النسل والتحكم فيه. حتى أن قضية النسل في بعض البلاد الأوروبية أضحت قضية حسابية اقتصادية كما أصبح هذا العامل من أهم الوسائل المؤدية الى تقليل عدد السكان والحد من نموه. غير ان جميع هذه العوامل قابلة للتبدل حسب الظروف وحسب درجة الحضارة.

والصفة العامة للمناطق القليلة الكثافة هي عدم الأنتظام في توزيع السكان فيها لأنهم يعيشون غالباً في اماكن متفرقة متباعدة، كالواحات الصحراوية والأودية الجبلية او القرى المنعزلة على امتداد الشواطىء القطبية أو في بعض جزر المحيطات.

ب – العوامل المساعدة على الكثافة

اكثر المناطق كثافة بالسكان هي أغناها بموارد الثروة الطبيعية، فالتربة الخصبة والمناخ الملائم والأمطار المنتظمة تساعد على زيادة السكان باتباع طرق الزراعة الحثيثة. والمنطقة الواقعة بين مدار السرطان ودرجة عرض (٤٠°) شمالا تتوفر فيها جميع هذه الشروط. فحرارتها كافية لنمو انواع عديدة من

النباتات كما ان أنهارها الكبرى لعبت دوراً هاماً في جذب البشر اليها كما هي الحال في مصر والهند والصين واليابان . أما في غير هذه الانحاء فالبشر تكاثر في المناطق الجافة نوعاً ما غير انه استفاد من مياه الجبال المجاورة أو من المياه الباطنية السهلة الوصول كما في مناطق البحر الأبيض المتوسط .

يأتي بالدرجة الثانية وقوع المنطقة على الحدود بين منطقتين متممتين لبعضها اقتصادياً كالمناطق الواقعة بين السهل والجبل أو بين الساحل والداخل ، وذلك بسبب التبادل التجاري الذي يحصل عادة في مثل هذه المناطق مما يزيد في كثافتها .

ومن العوامل المساعدة على الكثافة أيضاً اقامة نظام سياسي يحقق الامن والطمأنينة وينشر العدالة بين الناس ويهتم بالشؤون الصحية والاجتماعية والأقتصاديه وذلك بوضع برامج يجري تحقيقها على مراحل معينة .

وأخيراً وأهم هذه العوامل جميعها قيام الثورة الصناعية التي تعتبر من اكبر العوامل في خلق الكثافات الأوروبية في المناطق الصناعية . وكان من شروط الصناعة في القرن التاسع عشر أن تكاثف السكان بصورة خاصة على أحواض الفحم الحجري الذي كان مصدر القدرة الاساسي في هذا القرن . ولذا فخريطة الفحم تنطبق تمام الانطباق على خريطة المراكز الصناعية وتنتشر على امتداد الالتواءات الهرسينية .

كذلك تكاثف السكان في النقاط التي يمكن ان تصلها المواد الاولية بسهولة كالموانيء ومصبات الأنهار والوديان والسهول . وفي مراكز توزيع المواد المصنوعة واماكن تجمع رؤوس الاموال .

ان تكاثف السكان هذا هو انموذج الحضارة الغربيـة المرتبط بحضارة الآلة والذي يختلف تمام الأختلاف عن التكاثف الآسيوي القائم على الحضارة الزراعية .

هذا وعلينا أن لا ننسى العامل النفساني الذي يلعب دوراً هاماً في توزيع السكان على سطح الأرض وقديماً قيل « الانسان يجذب الانسان » وذلك اما بعامل التقليد أو بقوة الغريزة الاجتماعية نرى الانسان يقيم ويعيش حيث أقام أمثاله حتى ولو كانت الشروط الطبيعية في المناطق المجاورة اكثر ملاءمة لطبيعته .

جميع هذه العوامل قابلة للتبدل ايضاً ونخص بالذكر الكثافات الصناعية المتجمعة على احواض الفحم بسبب دخول انواع جديدة من القدرات كالكهرباء والبترول أو بسبب القدرات الممكنة في المستقبل كالقدرة الناشئة عن أشعة الشمس أو عن المد والجزر او القدرة الذرية .

٤ – توزيع السكان حسب القارات

علينا ان نلاحظ في هذا التوزيع ثلاثة أسس هامة : المساحة وعدد السكان والكثافة الكيلو مترية .

أولاً – مساحة القارات بالكيلو متر المربع ومساحة كل قارة بالنسبة الى الأرض الطافية :

آسيا ٤١،٩١٠،٠٠٠ كم مما يساوي ٣١،٥٠ ٪ منها

آسيا باستثناء الاتحاد السوفياتي ٢٦٩٢٨،٠٠٠ كم «

امريكا	٤٢،٥٤١،٠٠٠	كم	»	٣١،٦./٠	»
افريقية	٣٠،٢٩٠،٠٠٠	كم	»	٢١،٩./٠	»
اوروبا	١١،٤٢٤،٠٠٠	كم	»	٨،٥ ./٠	»
اوربا باستثناء الاتحاد السوفيتي	٤،٩٥٣،٠٠٠	كم	»		
اوقانوسيا	٨،٥٥٨،٠٠٠	كم	»	٦،٤ ./٠	»
الاتحاد السوفيتي	٢٢،٤٠٢،٠٠٠	كم	»		

نلاحظ من هذا الجدول ان قارتين كبيرتين لوحدهما (آسيا وامريكا) تعادلان ٦٣،١./٠ من المجموع . وان اوروبا واوقيانوسيا لا تزيدان على ١٥./٠ من الارض الطافية .

ثانيا – عدد السكان بالنسبة لجداول الاحصاء لعام ١٩٦٠ :

آسيا باستثناء الاتحاد السوفيتي	١٦٧٩	٥٦./٠
اوروبا	٤٢٧	١٤./٠
امريكا	٤٠٥	١٣./٠
افريقية	٢٥٤	٨،٤./٠
اوقيانوسيا	١٥،٦	٠،٥./٠
اتحاد سوفيتي	٢١٤،٤	٧،١./٠

مجموع سكان الارض (٢٩٩٥) مليون نسمة . وقد ارتفع الرقم إلى أكثر من (٣) مليارات نسمة عام ١٩٦١

نلاحظ من هذا الجدول أن نسبة عدد السكان في آسيا واوروبا تبلغ اكثر من ثلثي المجموع أي ٧٠./٠ وبقية القارات (امريكا وافريقية واوقيانوسيا)

لا تتجاوز بمجموعها ١/٣ فقط أي ٣٠٪ من مجموع السكان .

ثالثاً الكثافة في الكيلو متر المربع

آسيا	٦٢	نسمة
أوروبا	٨٦	»
امريكا	١٠	»
افريقية	٨	»
اوقيانوسيا	٢	»
الاتحاد السوفيتي	١٠	»

أخذت الكثافة الكيلو مترية للقارات وللاتحاد السوفيتي بالنسبة لعام ١٩٦٠. نلاحظ من هذا الجدول ان هناك قارتين مرتفعتي الكثافة هما اوروبا وآسيا وثلاث قارات قليلة السكان هي امريكا وافريقية وأوقانوسيا .

يقوم هذا التوازن العالمي في توزيع السكان في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين على التجارة والتبادل العالمي للمواد المتممة . فالقارات الصغيرة هي القارات المستهلكة والقارات الكبيرة هي التي تمون بالادوات والمواد المصنوعة . غير ان هذا التوازن على وشك الانهيار والمعضلة الكبرى هي في ايجاد توازن جديد لتوزيع السكان في العالم وقد يؤول الى هلاك قسم كبير من البشرية .

أما وقد رأينا توزيع السكان الجغرافي بالنسبة للقارات لندرس الآن مع شيء من التفصيل بعض الكثافات الكبرى في العالم .

المبحث الثاني

مناطق الكثافات البشرية الكبرى في العالم

أ – الهند

سكنت الهند منذ القديم ثم هوجمت مرات عديدة من قبل اقوام آتية من آسيا الجافة أي من منطقة الواحات الى منطقة الأمطار الموسمية . وكانت هذه الأقوام مدفوعة بجاذبية الثروة النباتية التي تزداد غنى كلما تقدم الانسان نحو المناطق الغزيرة الأمطار

والهند من المناطق المرتفعة الكثافة إذ يبلغ عدد نفوسها حسب إحصاء عام (١٩٦٠) ٤٣٢،٥ مليون نسمة وذلك باستثناء الباكستان . ومساحتها ٣٢٠٤٠٢٢٠ كم² مما يجعل كثافتها المتوسطة (١٣٦) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد . غير أن توزيع السكان والكثافة يختلفان بين منطقة وأخرى . إذ بينما تنحط الكثافة الى نسمتين في الكم² في منطقة « راجبوتانا Radjpoutana » الواقعة في القسم المتوسط الغربي من الهند وإلى (١٥) نسمة في جبال كشمير نجدها ترتفع إلى (٤٠٠) في البنغال والى (٧٠٠) نسمة على الساحل الجنوبي الغربي في نهاية هضبة الدكان .

تتعلق هذه الكثافة بالدرجة الاولى بغنى المنطقة بالمحاصيل الزراعية أي بغزارة

الأمطار . ونجد في الهند مطابقة غريبة بين مصور الأمطار ومصور كثافة السكان . غير أن هذه المطابقة غير تامة إذ أن الري الاصطناعي يصحح أحياناً قلة الأمطار . وما الكثافات المرتفعة على الساحل الشرقي إلا نتيجة انتشار السدود وأقنية الري . أما كثافات السهول فنشأت عن الآبار والأقنية .

هذا ولتوزيع الأمطار على أشهر السنة من الأهمية ما لكميتها وذلك لأن هذا التوزيع ينظم الانتاج ويحدد ، بالتالي ، كمية المواد الغذائية التي يمكن تأمينها للسكان .

والمناطق المرتفعة الكثافة في الهند هي في غالب الأحيان مناطق زراعة الأرز لاسيما في « الدكان » والدلتات الشرقية . ويمكن إنتاج محصولين للأرز في السنة في منطقة « البنغال » المحصول الأول بين تموز وايلول في الأراضي المرتفعة والثاني بين تشرين الثاني وكانون الثاني في الأراضي المنخفضة . ويلاحظ في مصور توزيع السكان في الهند تفوق الأرز على القمح في خلق الكثافات البشرية كما نجد أن أشد المناطق كثافة بالنفوس هي التي تزرع القمح الى جانب الأرز أو التي تعتني أيضاً بزراعات مخصصة للتصدير كالقطن والمطاط والكينا كما هي الحال في مناطق « بيهار الشمالية » و « البنغال الشرقية » و « الساحل الجنوبي الغربي » الشكل (٣٠) .

ورغم المدن الكبرى المنتشرة بكثرة تعيش أغلبية السكان في القرى ولذا تبلغ نسبة سكان الأرياف ٩٠٪ من مجموع السكان . ونسبة زيادة السكان في الهند غير متناسبة مع كثرة الولادات وذلك بسبب وفيات الأطفال الهائلة .

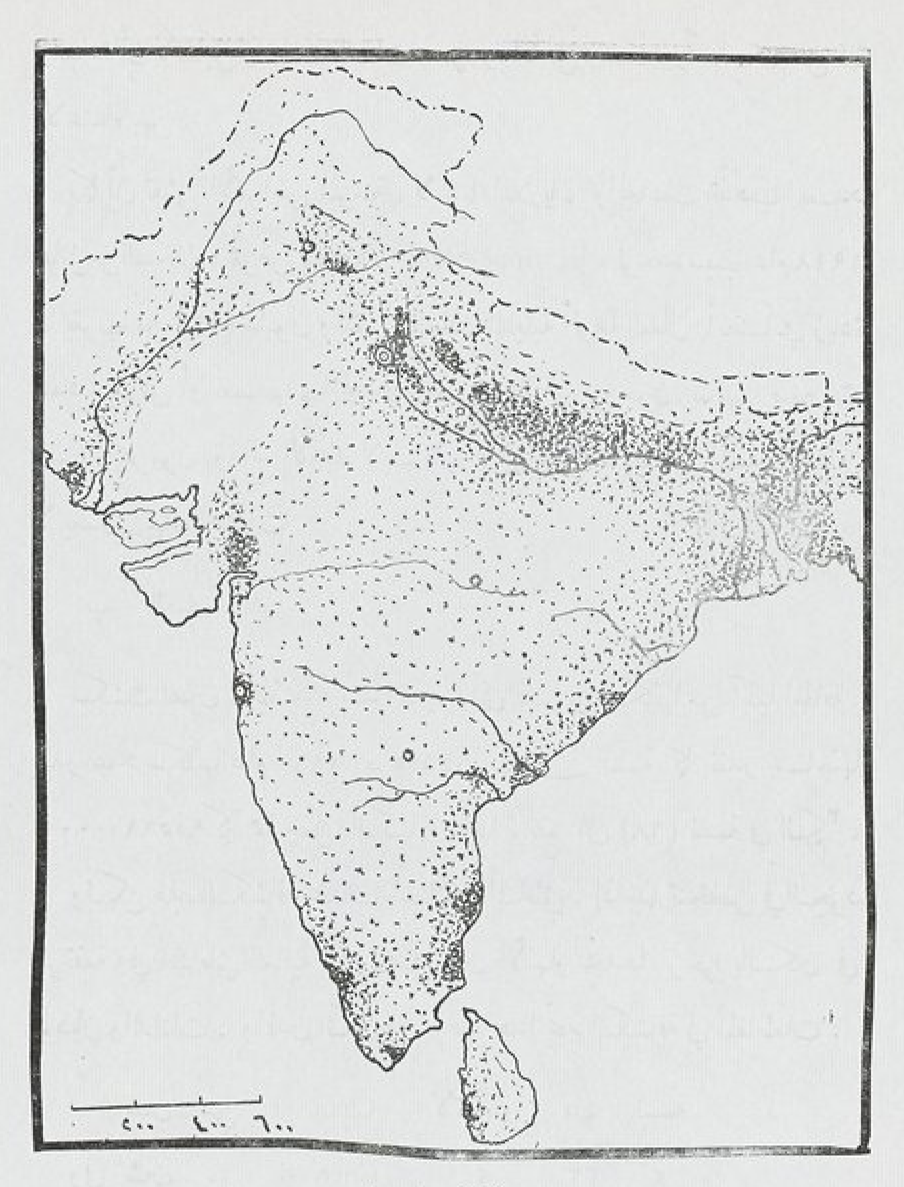
والعادة أن لاتقابل ولادات البنات بسرور الأهل وكثيراً ما يمتن من قلة الاعتناء بهن .

كما أن تفشي الأمراض المزمنة ، لا سيا الملاريا ، والمجاعات تذهب بعدد هائل من السكان ، فمرض « النزلة الوافدة la grippe » لوحده سبب عام ١٩١٨ ما يقرب من (١٢) مليون وفاة . وللتعاليم الدينية أثرها الفعال أيضاً في زيادة عدد النفوس أو نقصانها ، فالهندوس مثلاً الذين يزوجون بناتهم صغيرات السن ويحرمون زواج الأرملة لايتكاثرون بمثل ما يتكاثر المسلمون الذين لا يعملون بهذه العادات .

ب - الصين .

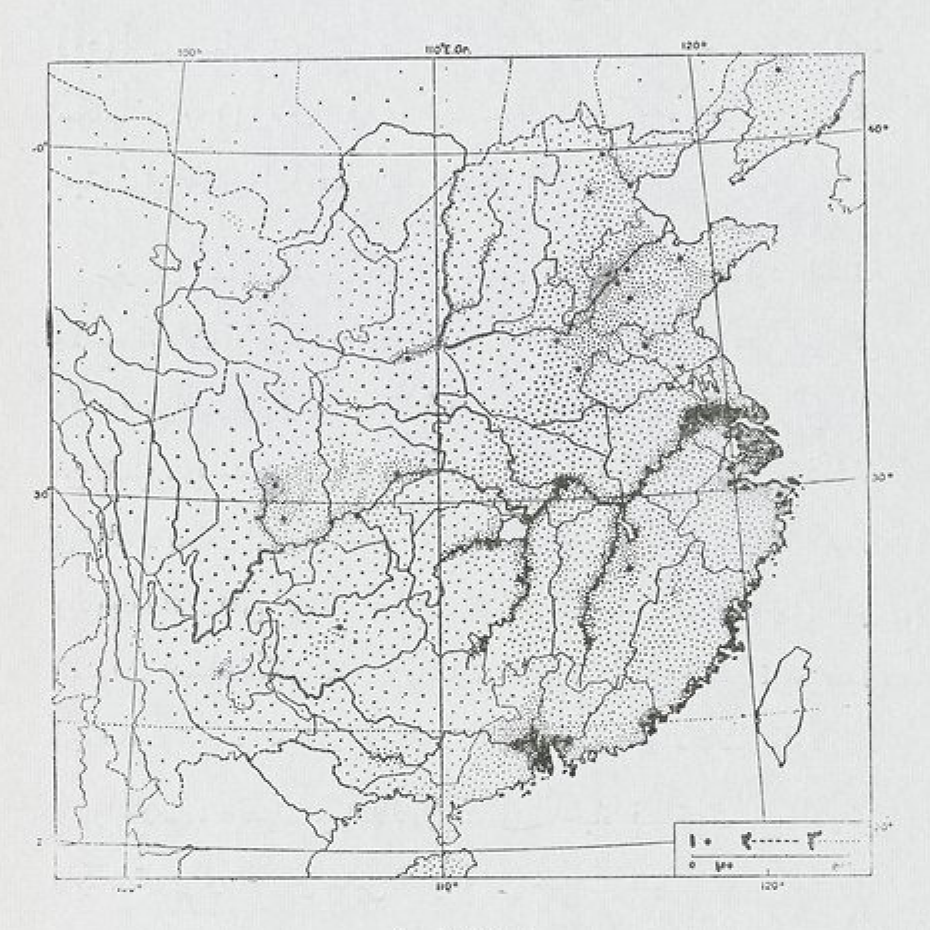
سكنت الصين ، كالهند ، منذ القديم وأتى قسم من سكانها من آسيا الجافة . يقدر عدد سكانها عام ١٩٦٠ بـ ٦٤٦٫٥ مليون نسمة كما تقدر مساحتها بـ ٩٫٥٦١٫٠٠٠ كم² مما جعل الكثافة فيها ترتفع الى (٦٨) نسمة في الكم² ، ولكن هذه الكثافة تختلف باختلاف المناطق . إذ بينما تنخفض في النجود المرتفعة وفي المناطق العالية التي تفصل بين الأنهار نجدها تزخر بالسكان في الوديان والدلتات . والمدن الكبرى . وعلى هذا نجد الكثافة في المقاطعات :

شان - سي	Chan - si	لاتتجاوز	٤٥	نسمة
وفي شين - سي	Chen - si	«	٣٣	«
وفي كوانغ - سي	Kouang - si	«	٢٥	«
وفي اليونان	Yuunan	«	٢٠	«



الشكل (٣٠)
يلاحظ في الشكل تكاثف السكان الشديد في مناطق الامطار الموسمية وفي أحواض الانهار الكبرى ودلتاتها وفي الاماكن المروية اصطناعياً كما في حوض البنجاب والساحل الجنوبي الشرقي

بينما هي ترتفع في بعض الأحواض الداخلية كسهل «**شين - تو** Tcheng-Tou» في وسط مقاطعة « **سه - تشوان** Se-Tchouen » الى (٣٥٠) نسمة وتبلغ (١٤٧٥) نسمة في الكيلو متر المربع في جزيرة «**تشون - مينغ** Tchongming»



الشكل (٣١)

يمثل الشكل كثافة السكان الشديدة في أحواض الانهار الكبرى
وفي الدلتات وهي مناطق زراعة الارز ، كما تظهر في الشكل المدن ، التي يزيد
عدد سكانها على (١٠٠,٠٠٠) نسمة . مقياس الخارطة (١/٢٠,٠٠٠,٠٠٠)

وهذا ما جعل الصين من أكبر بلاد الهجرة في آسيا .

ويشتغل القسم الأعظم من السكان بالزراعة . أما سكان المدن فعددهم ضئيل جداً إذ تقدر بـ ٦./ فقط نسبة السكان التي تعيش في مدن تزيد نفوسها على (٥٠) ألف نسمة و ٦./ أيضاً نسبة السكان التي تعيش في مدن يتراوح عدد سكانها بين (١٠) آلاف و (٥٠) ألف نسمة . والباقي وهو ٨٨./ من السكان يعيشون في القرى والأرياف ، انظر الشكل (٣١) .

غير أن نسبة زيادة السكان في الصين لا تتناسب مع الموارد الغذائية ولا مع العادات الاجتماعية والدينية المتبعة ؛ [جوائز تعطى للأسر عند كل ولادة وضرائب على الرجل والمرأة العذب] ، ثم عادة الزواج الباكر والإكثار من النسل ؛ وذلك بسبب وفيات الأطفال التي تشابه بارتفاع نسبتها ما ذكرناه في الهند . يضاف الى ذلك عدم الاعتناء بقواعد الصحة واستعمال الأفيون والأوبئة والأمراض المزمنة والمجاعات التي تتوالى بسبب قلة الأمطار في بعض السنوات . هذا وسكان الصين في المناطق المجاورة للأنهار الكبيرة معرضون الى مصائب عديدة كفيضان الانهار لاسيما النهر الأصفر ، والأعاصير والزلازل .

والخلاصة ، فالصين من البلاد التي كأن الحياة فيها تنبت من الأرض ولكنها تعود الى الأرض بنفس السرعة التي خرجت منها .

ج - حوض البحر الأبيض المتوسط .

تؤلف شواطيء البحر الأبيض المتوسط مراكز هامة لكثافة السكان غير

أنها أقل ضخامة من الهند والصين وتختلف عنها ببعض الصفات . لاشك أن العامل الأساسي في الكثافة واحد هو غنى الأرض بالموارد الزراعية الغذائية ، لكن المبدأ في كثافة النفوس في حوض البحر الأبيض المتوسط هو زراعة الأشجار المثمرة وكانت في الأصل زراعة أشجار الزيتون والتين والكرمة . وأحسن المناطق لمثل هذه الزراعات هي الارض الجافة التي تروي اصطناعياً . وأكثر المناطق كثافة في حوض المتوسط هي **السهول الشاطئية** المستندة الى الجبال الساحلية المرتفعة حيث تقوم الزراعة على السفوح المدرجة والمحمية من الرياح الباردة والجافة التي تهب من الداخل . يلي ذلك **المناطق الجبلية المتوسطة الارتفاع** بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠م الصالحة لزراعة الأشجار. وأخيراً **السهول المنخفضة** التي تسقى بمياه الجبال القريبة منها كسهل « **البقاع** » وسهل « **الروسيون** » وسهل « **غرناطة** » .

وكان للانسان الفضل الاكبر في توزيع السكان وخلق مراكز الكثافة على حوض هذا البحر تارة بواسطة التجارة البحرية التي كانت بانتقالها من شاطيء الى شاطيء تعمل على تأسيس مراكز يتكاثف السكان حولها ؛ وتارة بجر المياه وتنظيم شبكة الري التي زادت في مساحة الأرض المنتجة التي تستطيع أن تؤمن المواد الغذائية لعدد كبير من السكان .

د ـ الكثافات الاوروبية .

بينما قامت الكثافات الاسيوية على أساس زراعي صرف تمتد بين درجتي عرض (١٠° و ٤٠°) شمالاً نجد العامل الأساسي في الكثافات الاوروبية إلى

جانب وفرة المواد الغذائية النباتية وتربية المواشي يتمثل في الصناعة الكبرى. كما أن موقع أوروبا الجغرافي وكثرة التعاريج على شواطئها سهل المواصلات التجارية بين أقطارها المختلفة وبينها وبين بقية العالم. وهذا ماساعد على ايجاد ثروات جديدة. وهكذا فقد ارتفع عدد السكان في اوروبا من (١٧٥) مليون نسمة في أوائل القرن التاسع عشر الى (٤٢٧) مليون عام ١٩٦٠ باستثناء الاتحاد السوفيتي مما يجعل الكثافة المتوسطة (٨٦) نسمة في الكيلومتر المربع.

غير أن الكثافة هنا ايضاً تختلف من منطقة الى اخرى وهي منخفضة في اوروبا الشمالية والشرقية ومرتفعة في اوروبا الوسطى والغربية لاسيما في المناطق الصناعية، فقد بلغت الكثافة في المانيا الغربية ٢١٥ نسمة وفي بلجيكا (٣٠٠) نسمة وفي محافظة الشمال في فرنسا (٣٤٧) وارتفعت في لانكشاير الى (١١٤٢) نسمة وفي برلين الغربية الى ٤٥٨٢ علاوة على ذلك بلغ انتشار المدن في اوروبا حداً كبيراً مثلاً في انكلترا لوحدها يوجد (٤٠) مدينة تزيد نفوس كل منها على (١٠٠) الف نسمة يقابل ذلك في الهند (٣٣) مدينة فقط.

هـ - الولايات المتحدة -

الولايات المتحدة بلاد جديدة لأن استعمارها لم يبدأ حقيقة الا في أوائل القرن الثامن عشر، رغم ذلك أصبحت اليوم من مراكز الكثافات الكبرى في العالم. وقد ساعدت الظروف الولايات المتحدة لأنها ظهرت في عصر أخذ العلم فيه يقلب طرق الانتاج رأساً على عقب فاستفادت من هذه الفرصة، وأخذت في سرعة تطورها تنهب المراحل نهباً وتعمد الى استغلال جميع مواردها

الطبيعية مستخدمة في سبيل ذلك أقوى وأحدث الوسائل الفنية وقد تسارع الناس من جميع الأقطار ، لاسيما من اوروبا الغاصة بالسكان والتي كانت مسرحاً للمنازعات الداخلية ، الى استغلال هذه الثروات والافادة منها وهكذا فقد ازدادت النفوس في الولايات المتحدة وارتفعت من (٥،٣٠٨،٠٠٠) نسمة عام ١٨٠٠ الى (١٨٠،٦٧٥،٠٠٠) نسمة عام ١٩٦٠ . مما يجعل الكثافة المتوسطة فيها (١٩) نسمة في الكيلو متر المربع . وهي كما نرى كثافة ضئيلة اذا ماقورنت بالكثافات الاسيوية او الاوروبية . وهي أيضاً تختلف حسب المناطق . إذ بينما هي تنحط الى (٠،٣) نسمة في « النفادا » ترتفع الى (٨) نسمات في التكساس والى (٨١) في « بنسلفانيا » و (١٩٨) في « الماساشوسيت » وتقفز الى (٢١٣) نسمة في « رود ايلاند » .

وتتعلق هذه الكثافة طبعاً بالتضاريس والمناخ وإمكان استغلال الموارد الطبيعية زراعية وصناعية كما أنها ترتبط مباشرة بتاريخ إعمار المنطقة بالسكان. ولهذا فالكثافة تتناقص بوجه الاجمال من الشرق الى الغرب . وعدد المدن الكبرى في الولايات المتحدة مرتفع جداً إذ كان فيها عام ١٩٣٠ :

٩٣ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على (١٠٠) ألف نسمة

٩٨ « يتراوح عدد سكان كل منها بين (١٠٠،٥٠) « «

١٩٥ « « « « « « (٥٠،٢٥) « «

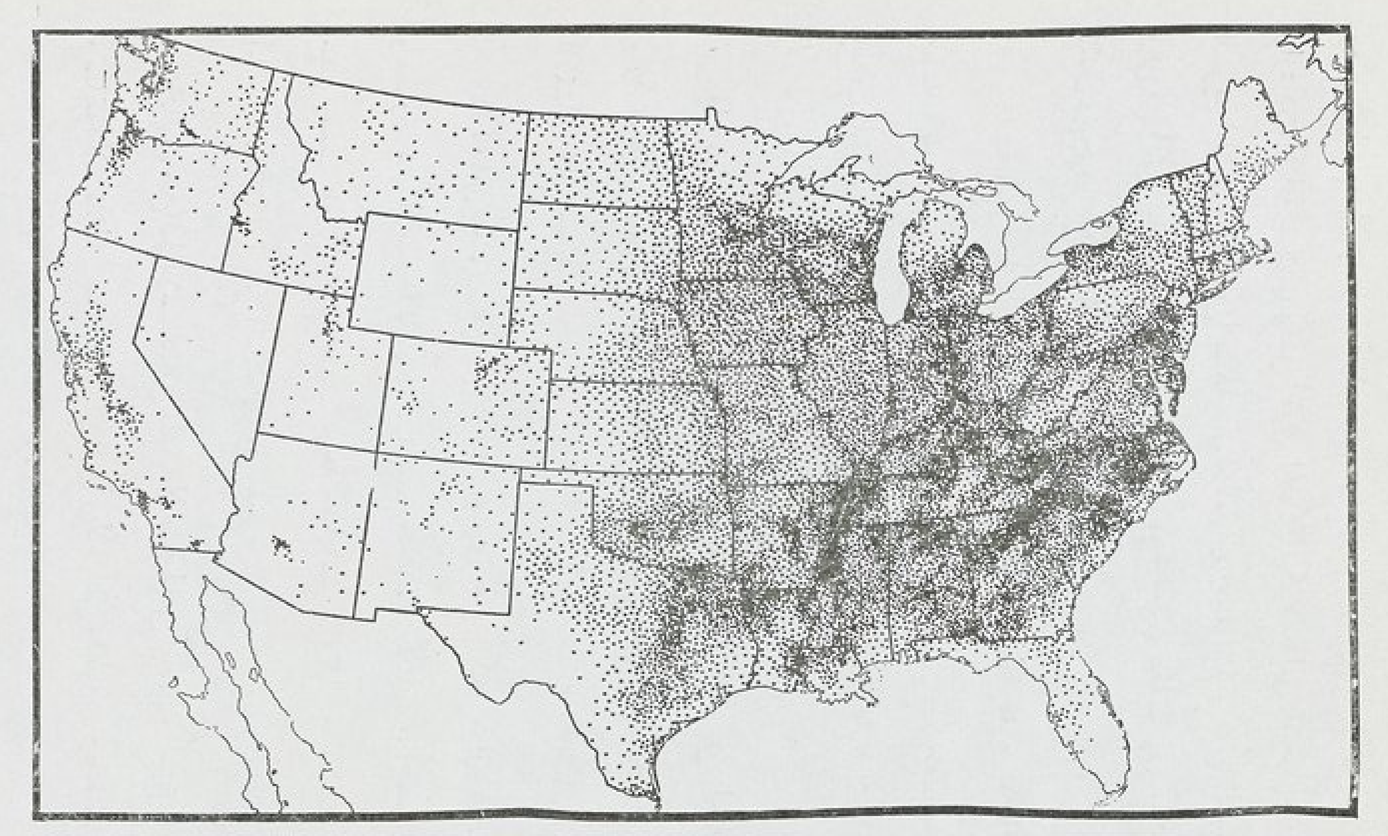
أما عدد السكان الذين يمتهنون الزراعة فضئيل اذا ما قورن بعدد سكان المدن ، وحسب إحصاء عام ١٩٣٠ ارتفع عدد السكان الذين يعملون في الزراعة الى (٣٠،١٥٨،٠٠٠) نسمة أي ٢٥٪ من مجموع سكان الولايات المتحدة . أما

اليوم فنسبة عدد السكان الذين يمتهنون الزراعة لا تزيد على ١٨٫٨٪ من المجموع بينما ٣١٫٥٪ يعملون في الصناعة والباقي وقدره ٤٩٫٧٪ يعملون في التجارة والنقل والادارة والمهن الحرة .

وزيادة السكان هذه ، كانت ناشئة في باديء الأمر ، عن الهجرة أكثر مما هي عن زيادة المواليد الضعيفة في الولايات الشرقية القديمة . والقوانين الجديدة التي تحد من الهجرة اليوم ستخفف حتماً من تزايد السكان السريع ، الشكل (٣٢) .

– تنقل مراكز الكثافة

تنتقل مراكز الكثافة البشرية بسرعة وهي دوماً بحالة تطور مستمر . وليس من منطقة على سطح الأرض نستطيع أن نجزم بأنها لن تسكن أبداً كما ليس من بلد يضمن بأنه لن يتأثر بالعوامل المختلفة التي من شأنها أن تقلل من عدد السكان . والأسباب الأساسية في تنقل مراكز الكثافة هي أسباب بشرية . أما العوامل الطبيعية التي تدعو البشر للتكاثف في منطقة من المناطق فتختلف أهميتها حسب حاجات الزمن وحسب درجة الحضارة . وهكذا فأهمية **الموقع الجغرافي في تغير مستمر** . وذلك لأن التيارات والطرق التجارية تنحرف عن مواضعها الأصلية كلما حفرت ترعة جديدة أو فتح نفق جديد أو كلما مد خط حديدي أو حفرت قناة جديدة . وهكذا فالطريق المطروقة بالأمس قد تصبح اليوم مهملة خالية . **كذلك لكل شكل من أشكال التضاريس أهمية قد تختلف مع الزمن** . فالجبال مثلاً التي كانت قديماً تعتبر كملاجيء للناس يحتمون بها تخلصاً من غارات الأعداء ودفاعاً عن النفس أهملت



الشكل – (٣٢) يمثل الشكل السكان الزراعيين في الولايات المتحدة عام «١٩٣٠» وكل نقطة من هذا الشكل ترمز الى «٢,٥٠٠» نسمة.

وهجرت لعدم صلاحها للزراعة ولصعوبة المواصلات فيها . ثم عاد إليها نشاطها وازدادت كثافة سكانها بفضل القوى المحركة الكهربائية التي تنتجها أنهارها السريعة الجريان والتي يمكن ايصالها بسهولة تامة الى جميع المناطق . أما السهول وهي من أغنى المناطق للاستغلال الزراعي في أيام السلم ، تنقلب إلى ميادين للقتال ويهجرها سكانها في أيام الحروب .

والقيمة الزراعية لمنطقة من المناطق لم تعد خاضعة فقط للقوة الانباتية الطبيعية للتربة ، وذلك لأن الأرض مهما كانت قليلة الخصب يمكن تحسينها بما يضاف إليها من الأسمدة والمواد المفتقرة إليها . كما لا توجد أية علاقة بين قيمة الأرض الزراعية وبين مؤهلاتها المعدنية والصناعية .

هذا وكان لظهور الصناعة الكبرى ، كما رأينا ، أكبر الأثر في اختلال توازن مناطق بمجموعها والتوازن الجديد الناتج يبقى دوماً تحت رحمة كل اكتشاف علمي جديد .

ولذا فالناس يفتشون عن البلاد التي تحتوي على أكبر موارد الثروة ويفضلون بينها الأصلح التي تتوفر فيها جميع حاجاتهم التي تختلف من عصر إلى عصر حسب تغير أذواقهم وحسب درجة حضاراتهم ؛ وكلما اختلفت هذه الحاجات تنقلت مراكز الكثافة بفعل الهجرة .

فاذا ماتوصل العلم للاستفادة من مادة ، لا قيمة لها في الماضي ، أسرع الناس وتسابقوا لاستغلالها . يقابل ذلك أن الرق والأمراض والحروب وعادة شرب

الكحول ، التي أتى بها الاوروبيون ، قضت على شعوب بأسرها .

وأخيراً يمكن القول إن اختلاف عدد الولادات والوفيات حسب حيوية الشعوب وحسب تطلبها لوسائل الرفاه المادية واتباعها قواعد علم الصحة من شأنها جميعها أن تسبب مع الزمن تنقل مراكز الكثافة .

***

الفصل الحادي عشر

حركات السكان

الولادات والوفيات وأثرها في تطور عدد السكان

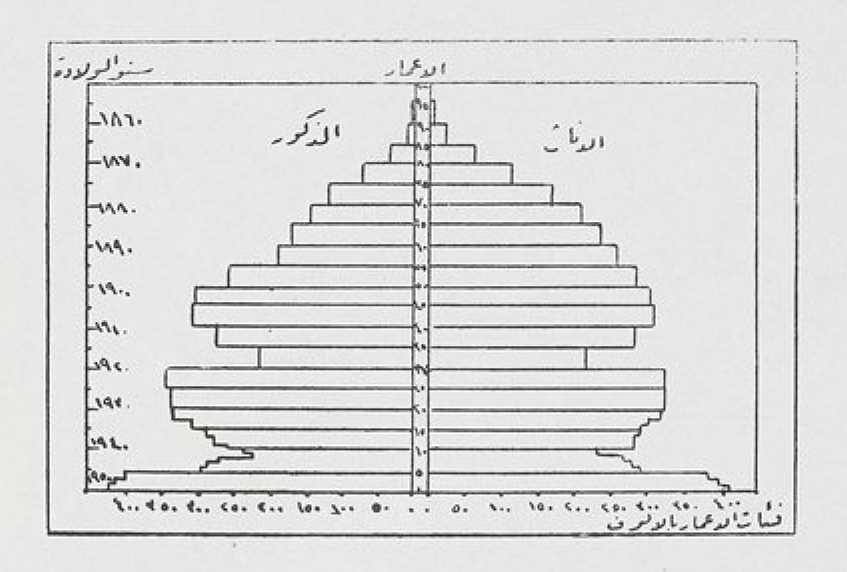
١ ــ الولادات

يمكن معرفة أثر الولادات والوفيات في بلد ما بالنسبة للرقم المطلق للولادات والوفيات فيقال مثلاً : بلغ عدد الولادات في سورية عام (١٩٦١) ١٢٤٬٦٠٥ وبلغت الوفيات في نفس السنة ٢٤٬٤٠١ . وبطرح هذين الرقمين من بعضهما يمكن أن يستنتج فيما إذا كان عدد السكان في نقص أم في ازدياد ، غير أن هذه الأرقام لا تدل على درجة حيوية السكان . والأفضل أن نحسب عدد الولادات وعدد الوفيات بالنسبة لعدد السكان وأن نرجع هذه النسبة إلى (١٠٠٠) فنقول مثلاً : كانت نسبة الولادات في سورية عام ١٩٦١ : ٢٥ بالألف كذلك كانت نسبة الوفيات في نفس العام : ٥[١] بالألف .

(١) يظهر أن هذا الرقم بعيد عن الواقع وذلك لكثرة عدد المكتومين .

رغم أن هذه النسبة تدل على حيوية أمة من الأمم بارتفاع عدد مواليدها فهي غير نهائية ويمكن أن يتساوى بلدان بعدد السكان وأن يكون لهما نفس نسبة المواليد والوفيات وأن يكونان مختلفين بالنسبة لحيوية شعبيهما ، وذلك بأن يكون لدى الواحد عدد وافر من الشيوخ والمسنين وعدد ضئيل من الشباب والفتيان ، بينما يكون لدى البلد الثاني عدد وافر من الشباب والفتيان وعدد ضئيل من الشيوخ والمسنين . ومن البديهي عندئذ أن يكون لدى البلد الأخير عدد أكبر ممن يستطيعون في المستقبل ، بفضل الزواج ، أن يؤلفوا أسراً تنجب عدداً أوفر من الأولاد .

ولهذا يستحسن أن نعرف عدد السكان موزعين حسب الفئات المختلفة من

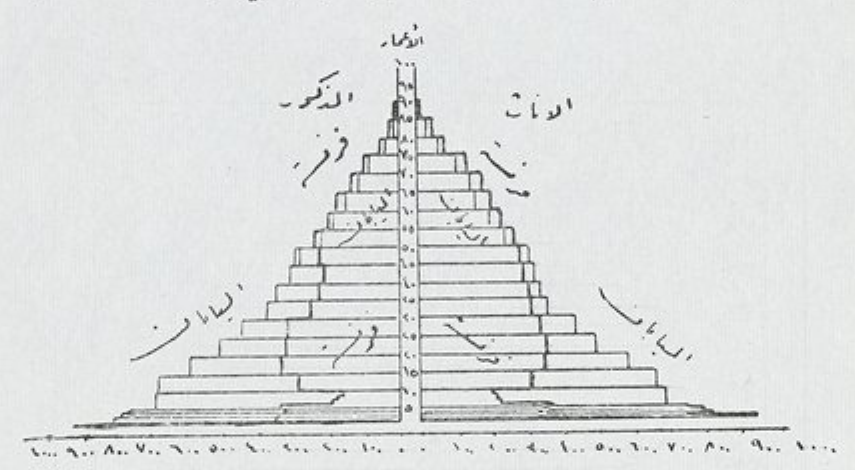


الشكل - (٣٣) أهرام الاعمار لفرنسا . عام (١٩١٥) ويرى فيه قاعدة الهرم الضيقة مما يدل على قلة المولودية بينما يتسع الهرم من وسطه ومن أعلاه مما يدل على عدد الكهول والشيوخ الضخم . عن ع . اليافي .

العمر . ويمكن تفهم ذلك بسهولة بواسطة ما يسميه علماء الاحصاء بأهرامات الاعمار ، الشكل (٣٣) .

تؤلف كل درجة من درجات الاهرام مجموعة من السكان لها عمر معيّن يتراوح بين السنة والخمس سنوات للدرجة الاولى وبين الخمس والعشر سنوات للدرجة الثانية وبين العشر والخمس عشرة سنة للدرجة الثالثة وهكذا الخ . كما أن كل شخص في الاهرام يمثل عدداً معيناً ثابتاً «١٠» آلاف أو «٢٠» ألف نسمة ويتخذ وحدة لرسم الاهرام .

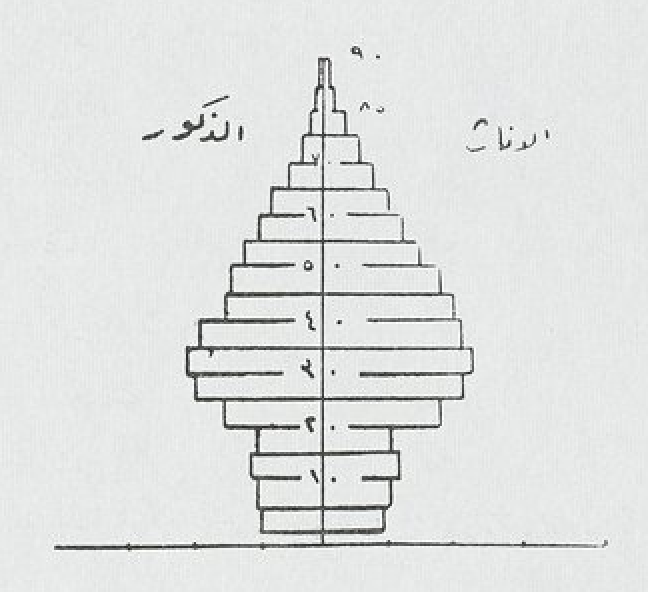
ففي البلدان التي تتصف شعوبها بحيوية قوية نجد عدداً وافراً من الأطفال يتمثلون في قاعدة الهرم وعدداً متوسطاً من الشباب في الوسط وعدداً ضئيلاً



الشكل - (٣٤) : اهرامان للاعمار لعام ١٩٢٦ الواحد لفرنسا والثاني لليابان طبقا على على بعضها لسهولة المقارنة بين الهرمين . عن ع . اليافي

من الشيوخ في أعلى الهرم . كما تكون عقود الزواج وعدد الولادات مرتفعة بينما يهبط عدد الوفيات ، الشكل (٣٤) .

أما في البلدان التي تتميز شعوبها بضعف الحيوية نجد شكل اهرامات الاعمار فيها يختلف عن السابق إذ تضيق قاعدة الهرم لقلة عدد الأطفال بينما يتسع الهرم من وسطه ومن اعلاه لوفرة عدد الكهول والمسنين . واذا ما أحصينا عقود الزواج وعدد الولادات في مثل هذه البلدان نجدها قليلة بينما يرتفع عدد الوفيات . واهرامات الأعمار في المدن الكبرى تشابه الى حد بعيد اهرامات البلاد الضعيفة الحيوية ، الشكل (٣٥) .



الشكل - (٣٥) أهرام الاعمار لمدينة باريس عام ١٩٣٦ وهو مثال تقليدي لاعمار السكان في المدن الكبرى . يرى فيه العدد القليل للاطفال في قاعدة الهرم وعدد الكهول الكبير في وسطه

وتتأثر نسبة الولادات في بلد ما بعوامل كثيرة اخلاقية واجتماعية ودينية وعضوية ودراسة هذه العوامل تعود لعلم الأخلاق ولعلم الاجتماع أو الطب اكثر

مما تعود لعلم الجغرافية . ولكن يمكن ، بصورة عامة ، ان يقال ان نسبة عـدد الولادات لبلد ما متناسبه عكساً مع درجة الحضارة ولذا فالبلادالمتأخرة بحضارتها تفوق فيها نسبة الولادات ، البلاد المتقدمة في الحضارة .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الدول بعد الحرب العالمية الثانيـة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٠) حسب نسبة الولادات فيها الى : بلاد كثيرة الولادات تزيد فيها النسبة على ٠٣٠./ :

أ — بعض البلدان الاسيوية والافريقية :

— الهند	:	٣٤	بالألف
— اتحاد ماليزيا	:	٤٣	»
— غانا	:	٥٢	»

ب — امريكا اللاتينية :

— المكسيك	:	٤٤	»
— الشيلي	:	٣٥	»

بلاد متوسطة الولادات تتراوح فيها النسبة بين ٢٠ و ٠٣٠./

أ — بلاد البحر الأبيض المتوسط وبعض بلاد اوروبا الشرقية :

— اسبانيا	:	٢١٫٩	بالألف
— مالطة	:	٢٦٫٥	»
— بولونيا	:	٢٢٫٤	»
— يوغوسلافيا	:	٢٣٫٨	»

٢ً — امريكا وبعض بلاد الدومنيون :

	البيض	الزنوج	الاسيويون
— اتحاد جنوبي افريقية :	٢٥،٥	٤٨،٥	٣٥،٤
— كندا :		٢٦،٩	
— الولايات المتحدة :		٢٣،٦	»
— استرالية :		٢٢،٤	

بلاد قليلة الولادات تهبط فيها النسبة الى اقل من ٢٠٠/٠

١ً — بلاد اوروبة الوسطى والغربية : عام ١٩٦٠ بالألف

— فرنسا :	١٨،٤	»
— المانية :	١٧،٧	»
— آنكلترة :	١٧،٥	»
— السويد :	١٣،٧	»

أما مجموع عدد الولادات في العالم فكان قبل الحرب العالمية الثانية يقرب من (٤٠) مليون ولادة وبذلك يكون المتوسط العالمي ١٨،٧٠/٠ .

غير ان الكتلة الكبرى من هذه الولادات تتجمع في الصين والهند (٢٠) مليون ولادة أي نصف عدد الولادات في العالم . يلي ذلك كتلة البلاد الاوروبية باستثناء الاتحاد السوفيتي وتبلغ (٨) ملايين ولادة . واخيراً كتلة الاتحاد السوفيتي وتبلغ (٥) ملايين ولادة . وبذلك يكون مجموع الولادات في آسيا واوروبة (٣٣) مليون من أصل (٤٠) مليون ولادة .

اثر الحرب العالمية الثانية على نسبة الولادات في البلاد المختلفة :

كان للحرب العالمية الثانية تأثير متفاوت على البلاد المختلفة . فالبلاد التي لم تتأثر « بالنظرية المالتوسية » بقيت فيها نسبة الولادات مرتفعة تفوق ٣٠ ./٠ واحياناً تتجاوز ٤٠ ./٠ كالبلاد الاسلامية ، مصر مثلا (٤٢،٦ ./٠ عام ١٩٤٥ تونس ٤٤،٩ ./٠ عام ١٩٥٩ وامريكا اللاتينية (المكسيك ٤٥،٩ ./٠ عام) الشيلي ٣٥،٤ عام ١٩٦٠ والهند (٢٦،٦) .

أما البلاد المتأثرة بنظرية مالتوس والمناطق المجاورة لها فكان تأثير الحرب عليها متفاوتاً .

اولاً — قبطت نسبة الولادات بالألف في بلاد البحر الأبيض المتوسط ففي ايطالية بلغت النسبة ١٨،٥ ./٠ عام ١٩٦٠ بعد ان كانت قبل الحرب ٢٣،٧ . وبلغت في اسبانية ٢١،٩ ./٠ بعد ان كانت ٢٦،٩ . ونلاحظ نفس الاتجاه في البرتغال واليونان .

ثانياً — بعكس الحالة الاولى نلاحظ ارتفاع نسبة الولادات في بلاد اوروبا الغربية والشمالية كانكلترة وسويسره وبلجيكا واللوكسمبورغ والسويد والنروج والدانمرك حتى تجاوزت نسبة الولادات ٢٠ ./٠ ثم اخذت تهبط شيئاً فشيئاً في الوقت الحاضر الى أقل من هذه النسبة بشيء قليل ، اما في المانيا والنمسا وفرنسا وهولندة فقد بقيت النسبة حتى اليوم مرتفعة وتتجاوز ١٧ ./٠ .

ولعل السبب في هذه الطفرة في بلاد اوروبا الغربية والشمالية امر طبيعي غايته استعادة ما فقدت هذه البلاد من السكان بسبب الحرب . على اننا لا ننكر لما للسياسة الخاصة المتبعة في البلاد الاوروبية اليوم في تشجيع الزواج وزيادة النسل من اثر كبير في زيادة المواليد . وتتلخص هذه السياسة بمنح علاوات للعمال والمواطنين تختلف قلة وكثرة باختلاف عدد الاطفال . واعفاء الاسرة التي تضم افراداً كثيرين من ضرائب الدخل والميراث والارباح . ومنح الامهات والاطفال امتيازات خاصة على جميع وسائل النقل والمواصلات . وتفضيل افراد الاسرة الكثيرة العدد على غيرهم في الوظائف والعمل ومنحهم مرتبات خاصة ايام البطالة . وأخيراً بفرض ضريبة على العزب مما حمل الكثيرين على الزواج ورغبهم بالنسل وطمأنهم على اولادهم لان الدولة تشترك معهم في نفقات ابنائهم .

٢ — الوفيات :

تعتبر الوفيات من العوامل الهامة المعدلة لحجم السكان. وهي بنفس الوقت تؤثر على تركيب المجتمع من حيث الاعمار المختلفة او السائدة فيه . فتناقص عدد الوفيات مثلا من شأنه ان يزيد بعدد المسنين وينقص من عدد الشباب . وبذلك ينشأ مجتمع متوازن جديد يجب ان تتوفر فيه المستشفيات حتى يفوق عددها عدد المدارس .

واذا اردنا ان نصنف البلدان حسب نسبة الوفيات فيها ولنأخذ مثالا الفترة بين عام (١٩٣١ — ١٩٣٥) نجد :

١ - بلاداً كثيرة الوفيات حيث ترتفع فيها النسبة الى اكثر من ٢٠ بالألف

وهي ذات البلاد الكثيرة الولادات التي ذكرناها سابقاً :

الهند	٢٣٫٥	بالالف	مصر	٢٠ بالألف

بعض دول أوروبا الشرقية :

الاتحاد السوفيتي	٢٤٫٥	»

وامريكا اللاتينية :

الشيلي	٢٤٫٧	»

٢ - بلاداً متوسطة الوفيات حيث تتراوح النسبة فيها بين ١٥ و٢٠ بالألف كبلاد اوروبا الوسطى وبعض دول اوروبا الشرقية :

هنغاريا	١٥٫٨	بالالف
فرنسا	١٥٫٧	»

٣ - وبلاداً قليلة الوفيات حيث تهبط فيها النسبة الى اقل من ١٥ بالألف كبلاد اوروبا الغربية والشمالية وبعض دول اوروبا الوسطى .

المانيا	١١٫٢	بالالف
انكلتره	١٢٫٢	»
السويد	١١٫٦	»

وكالبلاد الجديدة مثل الولايات المتحدة والدومينيون :

الولايات المتحدة	١٠٫٩	بالالف
استراليا	٩	»
زيلندة الجديدة	٨٫٢	»

وهذه البلاد الاخيرة هي بلاد المهجر فيها عدد كبير من الشباب بالاضافة الى

مناخها الطيب والى توفر احسن الشروط الصحية وا كملها .

اما مجموع عدد الوفيات في العالم فقد بلغ في نفس هذه الفترة (٢٨) مليون نسمة في السنة . القسم الاعظم من هذا الرقم آت من البلاد الكثيفةالسكان:

الصين	٧	ملايين وفاة
الهند	٦	» »
اوروبا(باستثناء روسيا)	٥،٣	» »
الاتحاد السوفياتي	٢،٣	» »

أما نسبة الوفيات في الوقت الحاضر فقد هبطت هبوطاً كبيراً في معظم بلدان العالم وذلك لانتشار الوعي الصحي وتقدم الطب وانتشار العلاجات الناجحة مثل البينسيلين والسولفاميدات التي تحول دون انتشار الميكروبات وتساعد على الشفاء . وحسب جداول الاحصاء نجد ان نسبة الوفيات لعام ١٩٦٠ هبطت الى :

٧،١	في الاتحاد السوفياتي	١٠	في السويد
٧،٦	في اليابان	١١،٢	في الشيلي
٨،١	في الارجنتين	١١،٤	في فرنسا
٨،٦	في استراليا	١١،٥	في انكلترا
٨،٩	في فنلندا	١١،٧	في المكسيك
٩،٢	في تشيكوسلوفاكيا	١٢،٧	في النمسا
٩،٥	في الولايات المتحدة	١٢،٩	في بلجيكا
٩،٧	في سويسرة		

يلاحظ أيضاً أن نسبة الوفيات مرتفعة في عدد من البلدان الراقية مثل فرنسا وانكلترة والنمسا وبلجيكا والسويد وسويسرة . ان الوفيات في مثل هذه البلدان هي ناتجة في معظمها عن الهرم والشيخوخة . لاعن فقدان العناية الصحية وتأخر الطب .

وللوفيات اسباب عديدة اهمها سوء الحالة الصحية وعدم اتباع علم الصحة في البلاد الاسيوية . والحالة الصحية متناسبة طرداً مع تقدم الحضارة . يأتي في الدرجة الثانية مصائب الطبيعة كانحباس الامطار مما يسبب المجاعات المخيفة، والزلازل وفيضان الانهار الكبرى ، والامراض الوبائية . كذلك الحروب والفتن االداخلية اذ قضت الحرب العالمية الاولى والثانية معاً على اكثر من (٤٤) مليون نسمة . على ان طول الحياة غير متوقف فقط على اتباع القواعد الصحية وحسن التغذية والاطمئنان الاجتماعي (راحة الضمير وفقدان الهموم ورفاه الحياة) وانما يتعلق ايضاً بالاصطفاء الجنسي .

هذا وكان للحرب العالمية الثانية أثر كبير في تقليل عدد الوفيات بسبب تقدم وانتشار قواعد الصحة الاجتماعية لاسيما في بلاد اوروبا القارية وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط . وفي بلاد امريكا الجنوبية والهند . أما البلاد السكاندينافية والانكلو ـ ساكسونية فكانت السباقة في هذا المضمار وقواعد الصحة العالمية كانت منتشرة فيها قبل الحرب .

٨ ــ الاتجاه العام في تطور عدد السكان في العالم

اذا طرحنا عدد الوفيات من عدد المواليد في غضون سنة كاملة لبلد ما حصلنا

على عدد زيادة السكان في هذا البلد . غير أن هذا الرقم لا يوحي بشيء عن حيوية الشعب . والافضل حساب نسبة الزيادة ونحصل عليها بطرح نسبة الوفيات من نسبة المواليد . وهي ادل في معرفة اتجاه حركة السكان من معرفة الرقم المطلق للزيادة . على أن نسبة الزيادة نفسها لا تكفي ويجب ، لمعرفة الاتجاه الصحيح للسكان ، الرجوع الى اهرامات الاعمار لمعرفة فئاتها المختلفة.

هذا ويمكن بالاعتماد على نسبة الزيادة تقسيم البلاد المختلفة ، في الوقت الحاضر ١٩٦٠ الى :

١ً – بلاد نسبة الزيادة فيها مرتفعة ؛ اي تزيد على ١٠ بالألف مثل آسيا واوروبا الشرقية ومصر واميركا اللاتينية . وذلك ناشيء اما عن ارتفاع نسبة الولادات بالرغم من ارتفاع نسبة الوفيات (روسيا مثلا حيث تبلغ نسبة الزيادة ٢٠ بالألف) واما نسبة ولادات متوسطة ونسبة وفيات منخفضة مثل هولنده : (٢١٫٢ ـ ٨٫٩ = ١٢٫٣) .

٢ً – بلاد نسبة الزيادة فيها متوسطة : تتراوح بين ٥ الى ١٠ بالألف كأوروبا الشمالية والغربية والوسطى والجنوبية وبعض بلاد الدومينيون . وهذا ناشيء عن نسبة متوسطة في الولادات ونسبة منخفضة في الوفيات .

٣ً - بلاد نسبة الزيادة فيها منخفضة أي أقل من ٥ بالألف مثل النمسا ٠٫٢٪ وايكوسيا ٠٫٢٪ وارلندا الشمالية ٠٫٣٪ وذلك بسبب نسبة منخفضة في الولادات ونسبة متوسطة في الوفيات .

٤ً - **بلاد نسبة الزيادة فيها سالبة .**

بسبب انخفاض نسبة الولادات وارتفاع نسبة الوفيات مثل فرنسا في عام ١٩٣٨ : (١٤٠٦ _ ١٥٠٤ = _ ٠٠٨) . أو كما هي الحال الحاضرة في جزيرة غوام guam اذ تبلغ نسبة الزيادة _٥ وفي ارلنده _ ٦ وفي المانيا الشرقية _ ٧ وفي برلين الشرقية _ ١٣(لعامل الهجرة من برلين الشرقية الى برلين الغربية أثر كبير في هذا النقصان).

أما الزيادة المطلقة في العالم فكانت ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، تقرب من (١٤) مليون نسمة في السنة : أما اليوم فهي أكثر من (٥٠)مليون نسمة . واكبر البلاد التي تساهم الآن في هذه الزيادة هي :

الصين	:	+	١٥،٠٠٠،٠٠٠
الهند	:	+	١٢،٠٠٠،٠٠٠
اوروبا (باستثناء الاتحاد السوفياتي)	:	+	٣،٤١٦،٠٠٠
الاتحاد السوفياتي	:	+	٣،٦٣٨،٠٠٠
اليابان	:	+	٩٣٠،٠٠٠
الولايات المتحدة	:	+	٣،٠٦٠،٠٠٠

يمكن الآن ، من مجموع دراستنا للسكان ، ان نخرج بالنتيجة الآتية : سكان العالم بازدياد مستمر نتيجة تقدم علم الصحة والوقاية الطبية وانتشار التصنيع والزراعة الحثيثة في بقاع كثيرة من العالم . ولا بد لكل بلد يزداد عدد سكانه عن الحد الملائم من ان يتعرض الى احدى حالات ثلاث :

١ً — ان ينقبض على نفسه داخل حدوده وعندئذ يخضع « **لقانون مالتوس** » ، فيقضى على الزائد من السكان إما بفعل المجاعات او يضطر السكان لتخفيض سوية حياتهم .

٢ً — ان يدفع الفائض من سكانه الى بلاد أُخرى **إما حرباً** فيستقر هذا الفائض في البلاد المفتوحة عنوة ٣ً — **وأما سلماً بواسطة الهجرة** . وهكذا نرى ان للطبيعة قوانينها الخاصة في التوازن البشري فتنقل الناس من البلاد الغاصة بالسكان الى البلاد المنخفضة الكثافة .

* * *

البحث الثاني

الهجرة

لمحة تاريخية

كانت الارض ، ولم تزل حتى اليوم ، ميداناً فسيحاً للشعوب في هجراتها وتنقلاتها الواسعة . واخذ البشر ، منذ أقدم العصور وابعدها ، يجوب انحاء الارض ويفتش عن بقعة طيبة وفيرة الخيرات ليقيم فيها . ويستطيع علماء ماقبل التاريخ بعد تحري ودراسة ماتبقى من آثار هذه الشعوب القديمة ، ان يكشفوا النقاب ويوضحوا لنا شيئاً عما كانت عليه هذه الهجرات .

وقد شاهدت البشرية منذ فجر التاريخ هجومات عنيفة وحروباً كبرى عديدة كاحتلال الهكسوس لمصر ، وهجوم العبرانيين على بلاد كنعان، ودخول « الدوريين » منطقة « البلوبونيز Pêloponése » كما احتلت قبائل «الأزتيك Aztéquee» ، في الطرف الآخر من العالم الجديد ، بلاد المكسيك واستولت قبائل « الهوفاس » الآتية من جزر الهند الشرقية ، على جزيرة مدغسقر وحكمتها.

أما حوض البحر الابيض المتوسط فقد شاهد مزيجاً من الأمم تلاقت على سواحله وسكنتها كالفينيقيين والاغريق الذين أسسوا مستعمرات كثيرة في نقاط عديدة من بلاد الساحل .

ثم أخذت آسيا ، منذ عهد سرخس الاول ملك الفرس ، تطغو على اوروبا بينما نرى اوروبا ، في عهد الاسكندر الكبير ترتد وتقتحم آسيا كما عمدت روما الى ارسال جيوشها وموظفيها الى مستعمراتها .

ثم بدأت قبائل البربر (الهون والغوط والفرانك والواندال) بهجومها على الامبراطورية الرومانية . وفي نفس الفترة من الزمن اجتاز « الموغول » سد الصين الكبير ودخلوا البلاد وحكموها .

ولم تكن الهجرات الكبرى في العصور الوسطى ، اقل أهمية من هجرات العصور القديمة . فقد اجتازت القبائل العربية ، بعد ان وحدها الاسلام ،حدود الجزيرة واستولت على البلاد المجاورة كما غزت قبائل « النورمان »شواطيء اوروبا الغربية وأقامت فيها ، ثم دخلت البحر الابيض المتوسط واستولت على جزيرة « صقلية » . ثم بعد ذلك أتت الحروب الصليبية وتلتها فتوحات العثمانيين وسقوط القسطنطينية عام (١٤٥٣) والاستيلاء على البلقان .

وأخيراً جاء عهد الاكتشافات الجغرافية ، عهد لعبت فيه اوروبا الدور الأول حينما عثر البرتغاليون والاسبان والهولانديون في تفتيشهم عن طريق جديدة للهند ، على قارة جديدة ، واخذت اوروبا تدفع بالفائض من سكانها الى العالم الجديد . ثم امتدت الهجرة الى افريقية الشمالية والجنوبية والى استراليا ولم تزل حتى يومنا هذا .

١ – اسباب الهجرة

الهجرة هي تحقيق لقانون التوازن الطبيعي في توزيع البشر على المناطق

المختلفة من سطح الأرض توزيعاً عددياً متناسباً معووفرة المواد الغذائية التي يمكن للمنطقة ان تضعها بين ايدي السكان . وبذا ترجع اسباب الهجرة بمجموعها الى احد شيئين .

١ً – ضغط من الداخل الى الخارج .

٢ً – طلب من الخارج (ونداء الارض الخالية) .

غير ان لكل من هذا الضغط وهذا الطلب اشكالاً مختلفة :

فالضغط مثلا يظهر أثر ازمة اقتصادية عاتية تجر وراءها شبح البطالة وما يتبعه من مصائب وضيق . يظهر كذلك أثر الاضطرابات السياسية اوالدينية التي تسبب نزوح قسم كبير من السكان طوعاً أو كرهاً وذلك كما حدث في انكلترا في النزاع القائم بين الكاثوليك والبروتستانت.او كماحدث في فرنسا أثناء حروب الديانات بين الكاثوليك و « الالبيين » و « الفودين[1]» حيث التجأ من نجا من القتل الى البلاد المجاورة . وكلما تقربنا من العصر الحاضر كلما تداخلت الأسباب السياسية في الأسباب الدينية او فاقتها . ففي عهد الثورة الفرنسية هاجر قسم كبير من الامراء والنبلاء ، ثم كان لكل عهد من العهود التي توالت بعد الثورة مهاجروه ومبعدوه . كذلك كان من أثر السياسة التي اتبعتها انكلترا في ارلندة ان نزح قسم كبيرمن سكانهاالى الولايات المتحدة.

---

(١) مؤسس هذه الطريقة « بطرس فالدو » في القرن الثاني عشر وقد قضي على القسم الاكبر منهم في عهد فرنسوا الاول .

كما هاجر القسم الاكبر الاشتراكيين الالمان الى امريكا عندما أخذ « بسمارك » يطاردهم ويقسو عليهم . وهذا أيضاً ما كان من اضطهاد «النازية» لليهود في ألمانيا .

والحروب أيضاً من مظاهر الضغط كالحرب العالمية الاولى والثانية التي صحبتهما وتبعتهما تنقلات هائلة بين السكان كمجيء الجيوش الجرارة من اطراف الارض وتجمعها في اوروبا . وهرب مئات الالوف من السكان أمام زحف جيوش الاعداء وتهجير الملايين منهم من منطقة الى اخرى على اثر توقيع معاهدات الصلح . واننا لنشاهد بأم اعيننا توافد اليهود الصهيونيين من جميع بقاع الارض الى فلسطين الذبيحة بغية تأسيس دولة يهودية مسخ. ومما لايقل عن ذلك اهمية تبادل السكان الذي يجري بين الدول احياناً كما حدث بين تركيا واليونان بعد توقيع معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ .

تعتبر الكثافة المرتفعة من المظاهر الهامة للضغط الداخلي . فاذا ما ازدادت النفوس في منطقة حتى لم يعد انتاجها من المواد الغذائية يكفي سكانها نرى قسماً منهم يهاجر الى المناطق الغنية حيث يفيض المحصول عن حاجة السكان او الى المناطق التي تتطلب ايدي عاملة كثيرة . ويختلف الحد الادنى او الاعلى للكثافة المرتفعة حسب طراز الحياة كالرعي او الزراعة الواسعة والحثيثة أو الصناعة ، وحسب استعمال الآلات في الصناعة او الزراعة وحسب غنى التربة ووجود المواد المعدنية فيها . وأخيراً يختلف حسب سوية الحياة التي يتطلبها السكان وحسب الاقليم والفصول وعندما يبلغ الحد الأعلى يضطر بعض من يتألم من الضائقة ان يهاجر الى بلد آخر حيث يأمل ان يحظى بشروط انسب لمعيشته وسكناه .

اما الطلب من الخارج ونداء الارض الخالية فله ايضاً اشكاله المختلفة مثلا نداء مناطق العالم الجديد « امريكا واستراليا » المعروفة بغناها وخيراتها الوفيرة او نداء المناطق الغنية بمعدن الذهب حيث يتوافد اليها الوف المفتشين عن هذا المعدن الثمين كما حدث في كاليفورنيا والاسكا وسيبريا واستراليا وجنوب افريقية. او نداء الاجور العالية كما هي الحال في منطقة الكويت وقطر والحجاز حيث يتسابق اليها اليوم سكان البلاد العربية المجاورة او نداء مكاتب الدعاية لتهجير الناس الى مناطق معينة كما تفعل مكاتب الدعاية الاسرائيلية او مكاتب شركات الملاحة البحرية والجوية .

وهناك عامل اخير له أثره الكبير في تاريخ الهجرات وهو حاجة الانسان الى الحركة والتنقل بأشكالها المختلفة ، وما المغامرة وحب التغيير والاطلاع والتسلية الا من طبائع البشر الاصيلة .

٢ ـ اشكال الهجرة

للهجرة أشكال مختلفة فهي إما حرة عن طوع واختيار المهاجر نفسه واما قسرية اجبارية . وقد تكون افرادية او جماعية ويكون المهاجر غالباً اما غير راض عن وضعه ومركزه الاجتماعي او أن له رأياً يغاير آراء المجتمع الذي هو فيه او انه يريد ان يحقق امنية غالية .. الخ . على أن هناك اقواماً هاجرت بمجموعها إطاعة لأوامر رؤسائها . ولكن اكثر المهاجرين في العصر الحاضر إنما هم افراد ذهبوا ليؤمنوا لانفسهم وأسرتهم حياة أقل شقاء ان لم نقل اكثر رفاهية من الحياة التي يعيشونها في بلادهم . والمهاجر الحقيقي هو من ترك وطنه الاصلي وهو مصمم ان لا يعود اليه ، او على الاقل ان لا يعود اليه مدة حياته

النشيطة . وكثيراً ما يؤول ذهابه هذا الى تغيير مكان اقامته نهائياً .

على أن للهجرة أنواعاً اخرى كالهجرة الموقتة حيث يترك المهاجر خلالها ، منزله لمدة وجيزة ويذهب لمنطقة اخرى ضمن بلاده او خارج حدودها للعمل والكسب . وهذا شأن اكثر المناطق الفقيرة التي ترسل بسكانها للعمل اما في المناطق الزراعية الغنية بتربتها والفقيرة بالسكان او في المدن الكبرى طيلة فصل الشتاء حيث لا عمل لهم في قراهم ثم يعودون اليها عندما تبدأ الاعمال الزراعية في القرية .

ويمكن من الناحية الجغرافية ان نفرق بين الهجرة القارية والهجرة الى ماوراء البحار . الاولى هي التي تجري داخل القارة نفسها إما داخل حدود الدولة الواحدة والى ما وراء حدودها . وكثيراً ما قرنوا هذه الهجرة بالهجرة الموقتة . أما الثانية فهي التي ينتقل فيها المهاجر من بلده الى ما وراء البحار كالهجرة الى الولايات المتحدة . وكانوايعتبرون ان البلاد فقدت نهائياً هؤلاء المهاجرين ، غير ان تقدم وسائل النقل والمواصلات باجور زهيدة دفعت بقسم كبير من هؤلاء المهاجرين للعودةالى بلادهم الاصلية اما بعدبضعسنواتوتوفير قليل من المال او للعودة اليها بانتظام بعدانتهاء فصل العمل كالعمال الايطاليين الذين كانوا يذهبون للعمل في حصاد القمح في الارجنتين .

٣ - نتائج الهجرة

للهجرة نتائج عديدة وهامة اولاً على تركيب السكان ثانياً على التوازن بين القارات .

يظهر أثر الهجرة على تركيب السكان في النواحي الآتية :

١ً — في التوازن الجنسي . لان البلاد التي تدفع بمهاجريها الى خارج حدودها تفرغ او تقل فيها نسبة الذكور وتزداد نسبة الاناث . بينما نجد العكس في بلاد المهجر حيث ترتفع نسبة الذكور وتقل نسبة الاناث .

٢ — في اهرامات الاعمار . يلاحظ دائماً ان العنصر المهاجر هو غالباً عنصر الشباب . ولذلك ترتفع في أهرامات بلاد الهجرة نسبة الكهول أو فئة العمر المتوسط بينما يحصل العكس تماماً في بلاد المهجر .

٣ — في صفات السكان . حيث تزداد نسبة المثقفين المتعلمين في بلاد الهجرة لان هؤلاء قلما يهاجروا ، بينما تزداد في بلاد المهجر نسبة الاشخاص غير المثقفين .

٤ — في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . حيث نجد في بلاد الهجرة عدداً كبيراً من أصحاب الدخل يعيشون مما يأتيهم من دخل أراضيهم أو عقاراتهم . بينما يكثر في بلاد المهجر رجال الاعمال المؤسسون الرواد اما في التجارة أو الزراعة أو الصناعة .

أما أثر الهجرة على . التوازن بين القارات فيظهر في الأمور الآتية :

اولاً — يجري من بلاد الهجرة الى بلاد المهجر :

أ ـ تيار من المهاجرين

ب ـ تيار من رؤوس الأموال

ج ـ تيار من أدوات الانتاج ومن المواد المصنوعة .

ثانياً ـ ويجري من بلاد المهجر الى بلاد الهجرة .

أ ـ تيار معاكس من المواد الغذائية الأولية لتغذية الفائض من السكان المقيمين في بلاد الهجرة القديمة .

ب ـ تيار معاكس أيضاً من المواد الأولية الصناعية لتموين صناعات بلاد الهجرة .

ثالثاً ـ فالهجرة إذن مصدر تجارة متممة بين بلاد مختلفة بتوازنها البشري وبتطورها الاقتصادي ومختلفة أيضاً بتركيبها وعمرها .

وكتب « جورج رونار » بمناسبة الهجرة يقول « ان البلاد التي تدفع بالفائض من سكانها الى المهجر تجني فوائد جمة : أهمها أن الهجرة تحول دون المنازعات الاجتماعية وتشغل الناس عن التناحر ضمن دائرة ضيقة . كما تقضي على التظاهرات التي يقوم بها العمال العاطلون عن العمل ، وتفسح ، أمام من بقي المجال واسعاً للمطالبة برفع الاجور . وبنفس الوقت تدفع بأصحاب العمل على تجديد أوائل معاملهم وتحسينها لزيادة الانتاج . هذا فضلا عن الأموال التي يرسلها المهاجرون إلى أهلهم وذويهم او التي يعودون بها الى بلادهم يصرفونها في تحسين أراضيهم وتجميل بيوتهم وقراهم . وكثيراً ماتكون المستعمرات في المهجر أسواقاً رائجة لمصنوعات بلادهم وانتاجها .

ولكن اذا ازدادت الهجرة وتجاوزت في بلد ما حداً معيناً غدت خطراً يفقر السكان وقد يؤول الى اضمحلالهم . لان كل مهاجر ذاهب هو ذرة تضيع من حيوية الامة وقطرة من دمها لاسيما اذا كانت الهجرة أبدية .

٤ ـ الهجرة فى العالم الحديث

ذكرنا في مقدمة بحثنا عن الهجرة أن العالم كان منذ القديم مسرحاً لهجرات

كبيرة وفتوحات عظيمة كهجوم القبائل البربرية على الامبراطورية الرومانية واجتياح الموغول لآسيا وأوروبا والفتوحات الاسلامية في آسيا وافريقيةوأوروبا غير ان الهجرة الاوروبية الى العالم الجديد تعتبر من الوجهة التاريخيـة أعظم أثراً من جميع الهجرات الكبرى التي سبقتها لما تركته من آثار في إعمار قارات جديدة وما اقامته من حضارات رفيعة .

وامتدت الهجرة خلال قرون عديدة ابتداءاً من القرن الخامس عشر وبلغت أقصى مداها في القرن التاسع عشر ثم توقفت عام ١٩٢٩ مع الازمة العالمية. وقد قذفت اوروبا في هذه الفترة القصيرة من عمر البشرية بما يزيد على «٥٠» مليون نسمة من ابنائها هاجروا الى الامريكتين واستراليا وجزر المحيط على ان الكتلة الكبرى من هؤلاء ، « ٣٠ ـ ٤٠ » مليون مهاجر ، توجهت نحو الولايات المتحـدة .

اسباب الهجرة الاوروبية

يمكن ارجاع اسباب الهجرة الاوروبية الى سببين رئيسيين :

١ ـ الثورة الصناعية التي قامت في اوروبا في القرن الثامن عشر

٢ ـ فعالية الحضارة الغربية

فالثورة الصناعية زادت في المردود الصناعي والزراعي منذ القرن الثامن عشر مما رفع من كثافة السكان حتى ان هذه الصناعة الناشئة لم تستطع ان تمتص هذا الفائض بأجمعه .

وقد صادف هذا التضخم في عدد سكان اوروبا وجود ارض خالية او شبه

خالية في العالم الجديد يمكن استثمارها وسكناها لطيب مناخها ووفرة خيراتها . وفي نفس الوقت كانت أوروبا تملك الوسائل التكنيكية الجديدة لمثل هذا الاستثمار الهائل ولديها وسائل النقل والمواصلات البحرية الحديثة التي اخذت تتقدم باستخدام البخار . أما فعالية الحضارة الغربية فتتمثل برغبة الاوربي بالتقدم والفتوحات . هذه الرغبة والارادة كان يدعمها العلم والفكر النقاد والتنظيم الاجتماعي المتطور ، ويصحبها فيض من رؤوس اموال تراكمت بفضل الصناعة والتجارة وتحاول أن تتوظف .

المراحل الأساسية للهجرة الاوروبية .

أ – المرحلة الاولى من القرن السادس عشر الى بداية القرن التاسع عشر.

أهم صفات هذه المرحلة أن المهاجرين فيها كانوا من المستكشفين والأفاقين والغزاة الفاتحين والمبشرين غايتهم الاولى التفتيش عن الذهب والاتجار بالتوابل . وصحبهم بعض الزراع والفلاحين غايتهم امتلاك قطعة من الارض ليقيموا عليها .

أما مصدر هذه الهجرة فكانت بلاد أوروبا الغربية وافريقية . فالاسبان والبرتغاليون كانوا يهاجرون الى امريكا الوسطى والجنوبية ، والانكليز الى امريكا الشمالية ، والفرنسيون يتوجهون الى كندا ومقاطعة « لويزيانا » والهولنديون والالمان الى امريكا الشمالية . أما من افريقية فكانت الهجرة قسرية تتألف من الزنوج العبيد لاستخدامهم في الزراعة . فالتيار الانكلو – ساكسوني كان يتجه بغالبيته نحو المناطق المعتدلة ويتجه التيار اللاتيني نحو

المناطق الحارة وفي جزء منة نحو المناطق المعتدلة . غير ان هذه الهجرة كانت ضئيلة بمجموعها .

ب - المرحلة الثانية من بداية القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ .

كانت المرحلة الثانية أضخم من حيث العدد وبدأت عمليا بعد الحروب التي قام بها نابليون . وتتألف في أكثر عناصرها من مهاجري أوروبا الشمالية والغربية ومن العرق الانكلو - ساكسوني . وأهم الهجرات في هذه المرحلة هي :

١ - الهجرة الايرلندية . وهي اولى الهجرات الاوروبية في هذه الفترة بدأت عام ١٨٤٠ وبلغت اوجها عام ١٨٤٦ نشأت عن عقم النظام الزراعي في ارلندة وعن أزمة البطاطا التي حدثت عام ١٨٤٦ . وكانت تتوالى بمعدل « ١٠٠ » الف مهاجر في العام الواحد حتى ١٨٨٠ ثم أخذت بالتناقص حتى توقفت تقريباً عام ١٩١٤ عندما نالت ارلنده استقلالها . ويقدر مجموع المهاجرين الارلنديين بـ « ٤ » ملايين نسمة .

٢ - الهجرة الانكليزية - الايكوسيه

بدأت حوالي عام ١٨٦٠ وامتدت الى مابعد عام عام ١٨٨٠ وبلغ معدلها السنوي « ٢٠٠ » الف نسمة . وهي عبارة عن فيض طبيعي لتكاثر السكان المتزايد . وكانت تتجه إما الى الولايات المتحدة وإما الى أرجاء الامبراطورية البريطانية أي الى كندا واستراليا وزيلندة الجديدة وافريقية الجنوبية . وبلغ مجموع المهاجرين « ٦ » ملايين تقريباً أي ١٣٪ من عدد السكان الحاليين .

٣ - الهجرة الالمانيه

بدأت الهجرة الالمـانية بنفس الوقت الذي بدأت به الهجرة الانـكليزية وبلغت اقصاها عام ١٨٨٠ بمعدل (١١٧٠٠٠) مهاجر في العام . ثم اخذت تتناقص بعد ذلك حتى توقفت تماماً عام (١٩٠٠) .

السبب في هذه الهجرة هو فقر المنطقة من الناحية الزراعية لذلك لم يكن في استطاعة انتاجها الزراعي تغذية جميع السكان . ولـكن عندما دخلتها الصناعة الحديثة توقفت الهجرة وبدأ تصدير المواد المصنوعة . يتراوح مجموع المهاجرين الالمان بين « ٦،٥ » ملايين نسمة أي ١٠٪ من عدد السكان العام . وكانت الهجرة الالمانية متجهة بصورة خاصة نحو الولايات المتحدة والبرازيل .

٤ - الهجرة السكاندينافيه .

تشبه الهجرة السكاندينافية الهجرة الالمانية من حيث زمن بدايتها ونهايتها. وصلت الى أقصاها عام ١٨٨٠ بمعدل «٤٢» الف مهاجر في العام وتوقفت تقريباً عام ١٩١٤ . اما مجموع المهاجرين فيرتفع تقريباً الى مليون مهاجر أي ٨٪ من مجموع عدد السكان .

أهم صفات الهجرة في هذه المرحلة أنها تتألف في أكثرها من عناصر «شمالية» وقد طبعت الولايات المتحدة .بالطابع الانـكلو-ساكسوني وبدأ العنصر الجرماني يظهر بوضوح بين جماعة المهاجرين . كما ارتفعت في هذه الفترة نسبة السكان الانـكلو ساكسون في مناطق الدومينيون البريطانيه . وتعتبر هذه المرحلة من

أهم المراحل التي ساعدت على استغلال العالم الجديد استغلالا جدياً ناجعاً. وكانت بنفس الوقت في صالح بلاد الهجرة وصالح بلاد المهجر على حد سواء .

ج — المرحلة الثالثه وتمتد من عام ١٨٨٠ الى عام ١٩١٤ ·

من ميزات الهجرة في هذه المرحلة الثالثة دوام هجرة العناصر التي ذكرناها في المرحلة الثانية باستثناء العنصر الجرماني وظهور عناصر جديدة سلافيه ولاتينيه بالدرجة الاولى وبالدرجة الثانية عناصر من بلاد البحر الابيض المتوسط. وأهم الهجرات في هذه المرحلة هي :

١ — الهجرة النمساويه ـ الهنغارية

بدأت عام ١٨٨٠ بمعدل «٢٠» الف مهاجر تقريباً وبلغت اقصاها عام ١٩١٣ بمعدل «١٩٤» الف في السنة . تتألف من بولونيين وتشيكيين وسلوفاكيين وهنغاريين وصربيين . ويقدر مجموعها في هذه المرحلة بـ « ٣ » ملايين مهاجر توجهوا بمعظمهم نحو الولايات المتحدة .

٢ — الهجرة البلقانيه .

وتتألف من اليونان والبلغار والرومان والأتراك وتشبه بتطورها الهجرة النمساوية ـ الهنغارية واتجهت نحو الولايات المتحدة .

٣ — الهجرة الروسيه

واتجهت اتجاهين مختلفين . الاتجاه الاول نحو سيبريا وهي هجرة موجهة

بدأت عام ١٨٦٠ بمعدل « ٢٠٠ » الف مهاجر بالسنة وبلغت بمجموعها «٣» ملايين نسمة .

الاتجاه الثاني نحو الولايات المتحدة وكندا بدأت في اواخر القرن التاسع عشر . وارتفعت الى معدل «٣٠٠» الف في السنة عام ١٩١٤ ومصدرها روسيا الغربية. وبلغت بمجموعها «٣» ملايين تقريباً ونصف هذا العدد من اليهود .

٤ ـ اما هجرة شعوب البحر الابيض المتوسط فتتصف بصفات خاصة أهمها فقر هؤلاء المهاجرين وانعدام التجانس بينهم . وقد نزحوا وكلهم شوق الى الكسب والى رفع سوية حياتهم المنخفضة . ومما ساعد على تهجير هؤلاء السكان الدعاية الكبرى التي قامت بها مكاتب الهجرة وشركات الملاحة عبر المحيطات . وكان من نتائجها ان عدلت الصبغة الانكلو ـ ساكسونية التي اكتسبتها الولايات المتحدة أثر المرحلة الثانية من الهجرة الاوروبية وامدت امريكا الجنوبية بعدد كبير من المهاجرين الايطاليين كما ساهمت في استعمار أفريقية الشمالية من قبل فرنسا وايطاليا وآسبانيا . واكبر هجرات البحر الابيض المتوسط هي :

أ ـ الهجرة الايطالية

التي بدأت عام ١٨٧٠ وبلغت اوجها عام ١٩١٣ حيث ارتفع عدد المهاجرين في هذه السنة الى «٨٧٣٠٠٠» اجر ثلثاها الى الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية واستراليا . والثلث الاخير هاجر الى افريقية الشمالية وفرنسا . وقد بلغ مجموع عدد المهاجرين في هذه الفترة «٦» ملايين نسمة اي مايقارب ١٤٪ من عدد السكان في ايطاليا .

ب - الهجرة الاسبانية والبرتغالية .

بلغت الهجرة الاسبانية اوجها عام ١٩١٣ حيث ارتفع عـدد المهاجرين في هذه السنة (٢٠٦٠٠٠٠) ويربو عدد المهاجرين الاسبان على مليوني نسمة اي ٨٪ من عدد السكان . واتجهت هذه الهجرة بصورة خاصة الى منطقة وهران والارجنتين وامريكا الجنوبية . اما الهجرة البرتغالية فتقدر بمجموعها بنصف مليون نسمة . بلغت اقصاها عام ١٩٣٠ حيث ارتفع عدد المهاجرين الى (٧٨٠٠٠) نسمة متجهة نحو البرازيل والولايات المتحدة .

ج - الهجرة اليونانية

بدأت هذه الهجرة في اوائل القرن العشرين وبلغت بمجموعها نصف مليون نسمة واتجهت نحو الولايات المتحدة وافريقية والشرق الادنى .

د - الهجرة الافرنسية .

يقدر عدد المهاجرين بمليون نسمة هاجروا الى الجزائر وتونس والى امريكا اللاتينية .

ه - ويمكن ان يضاف الى هذه الهجرات هجرات اقل اهمية منها كالهجرة السويسرية والهولندية والبلجيكية .

٦ - الهجرة الاسيوية :

ذكرنا سابقاً ان الهجرة الاوروبية في العالم الحديث تعتبر اهم الهجرات

ولكنها ليست الوحيدة . وانما يوجد الى جانبها هجرة آسيوية هامة ايضاً نذكر منها بصورة خاصة :

أ - الهجرة الصينية .

وهنا يجب ان نميز بين الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية .

فالداخلية الناشئة عن الحروب الاهلية اتجهت من مقاطعات الوسط نحو منغوليا ومنشوريا القليلتي السكان . فمنشوريا مثلا التي لم يكن يتجاوز عدد سكانها «٣» ملايين نسمة في اواخر القرن التاسع عشر ارتفع عددهم اليوم الى مايقارب «٤٠» مليون نسمة .

اما الهجرة الصينية الخارجية فهي قديمة تعود الى منتصف القرن التاسع عشر ويربو عدد المهاجرين فيها على «١٠» ملايين نسمة انتشروا في الهند الصينية وجزر الهند الشرقية وعلى شواطىء المحيط الهادي لاسيما في كاليفورنيا واستراليا ولو لم تسن قوانين خاصة تمنع قبولهم في بلاد المهجر لارتفع عددهم الى عشرات الملايين .

ب - الهجرة السورية .

ومن أشهر خواصها انتشارها الكبير الواسع في جميع اقطار العالم. فالسوريون موجودون في افريقية الشمالية وافريقية الوسطى والجنوبية . كذلك نجدهم في امريكا الجنوبية والوسطى والشمالية . وفي بلاد المحيط الهندي . وعندما يحط المهاجر السوري رحاله في بلد ما يبدأ نشاطه كتاجر بسيط للغاية ثم يوسع عمله ويدخل غمار الصناعة . ويشتهر السوريون في بلاد المهجر بحبهم لبعضهم

ومد يد المعونة للمهاجرين الجدد . وهم سريعو التطبع بعادات واخلاق البلد الذي يقيمون فيه .

ج – الهجرة الهندية

بدأت الهجرة الهندية داخلية بسبب ازدياد النفوس السريع ثم طفحت الى خارج حدود الهند واتجهت بصورة خاصة نحو الساحل الشرقي لافريقية وجزر المحيط الهندي .

د – وهنا لا بد من الاشارة الى ضآلة الهجرة اليابانية . فالياباني لا يحب الهجرة وهو اذا هاجر يختار المهن الرفيعة كأحسن المهاجرين الاوروبيين ، فيعمل كمهندس او تاجر او مراقب عمل او صاحب معمل .

د - المرحلة الرابعة بين عام ١٩١٨ و ١٩٣٩ .

رغم الهجرة الهائلة التي حدثت في المرحلتين الثانية والثالثة ورغم ما امتصت الصناعة الكبرى من ايد عاملة بقيت اوروبا غاصة بالسكان كما بقيت نسبة الزيادة فيها موجبة غير ان هذه النسبة كانت تتناقص من شرق اوروبا الى غربها: اكثر من ١٠٠./. في اوروبا الشرقية ، وتتراوح بين ٥ الى ١٠٠./. في اوروبا الوسطى وتهبط الى اقل من ٥./. في اوروبا الغربية . اذا اضفنا الى هذه الظاهرة مزاحمة القارات الاخرى لاوروبا صناعياً وتجارياً ادركنا مدى تفشي البطالة بين صفوف العمال في « انكلترة وألمانيا » . كما ان عدم الاطمئنان السياسي بسبب الحروب والثورات والمنازعات الداخلية ، وثقل الضرائب

واضطهاد بعض الفئات والعناصر ، أدى ذلك كله الى استمرار الضغط الداخلي في اوروبا نحو الخارج . ولو بقيت الهجرة حرة كما كانت في السابق لهاجر عدد ضخم من السكان .

ولكن الهجرة في هذه المرحلة قيدت بقيود قاسية عديدة من قبل بلاد الهجرة ومن قبل بلاد المهجر في آن واحد .

قيدت من الداخل اولا بسبب الفكرة التي سادت القوميات الناشئة التي اوجدتها معاهدة فرساي والتي سيطرت في الدول الفاشستية والنازية ؛ والتي تتلخص بأن عدد السكان الضخم من اسباب القوة السياسية للدفاع عن كيان الوطن والسيطرة والتوسع . وقد انتشرت هذه الفكرة بين مختلف الدول الاوروبية وطبقت في سبيلها سياسة محكمة مدروسة .

بدأت الدول بمقاومة الدعاية التي تقوم بها مكاتب الهجرة وشركات الملاحة ثم منعوا هجرة الشباب قبل اتمام خدمتهم العسكرية وانشأت بعض الدول كألمانيا مثلا وزارة خاصة للهجرة واغروا الراغبين بالهجرة بأن وعدوهم بمنحهم ارضاً واقراضهم مالا اذا هم اقلعوا عن رغبتهم هذه . وحددت بعض الدول الهجرة وسمحت بها الى مستعمراتها وممتلكاتها فقط . وعملوا ايضاً ان يكون المهاجر على صلة دائمة مع الوطن الأم ليحتفظ بشعوره القومي وسعت بعض الدول لارجاع مهاجريها الذين نزحوا كألمانيا وبلجيكا .

هذا ولا ينكر ما للسياسة المتبعة في الشؤون الاجتماعية من اثر كبير في الحد من هجرة السكان . كإنشاء مصلحة التأمين الاجتماعي وتقرير تعويض البطالة وتقاعد العمال وتأسيس بيوت العجز والشيوخ .

وقيدت الهجرة أيضاً من الخارج أي من قبل بلاد المهجر لندرة الاراضي الخالية او الصالحة للاستغلال بعد احتلال القسم الاعظم من قبل مهاجري المراحل السابقة . ولتغير شروط الاستغلال نفسه بدخول الآلة والاستغناء عن اليد العاملة في الزراعة ، اما في الصناعة فنقابات العمال في المهجر قامت تعارض بفتح باب الهجرة على مصراعيه لئلا تخفض الاجور . الى هذه الاسباب يمكن ان نضيف تنبه الشعور العنصري في بلاد المهجر ، اذ رغبت كل دولة في العالم الجديد ان تدعم قوميتها بتقوية العنصر السائد فيها دون غيره وعلى هذه الفكرة اعتمدت الولايات المتحدة في اصدار « قانون الحصص La toi des quotas » عام ١٩٢١-١٩٢٤ . واخيراً يعتبر الخوف من الشيوعية من الاسباب الهامة في تقييد الهجرة ومراقبتها مراقبة دقيقة مخافة ان تتسلل العناصر الشيوعية الى بلاد العالم الجديد .

ازمة عام ١٩٢٩ وتوقف الهجرة

رغم هذه القيود جميعها و بعد ان توقفت الهجرة اثناء الحرب العالمية الاولى عادت بعد الحرب ولكن على مقياس ضيق . وكان اغلب المهاجرين من انكلترة وبولونيا ومن بلاد حوض البحر الابيض المتوسط . وقد أم الولايات المتحدة في هذه الفترة الواقعة بين نهاية الحرب وانفجار الازمة عدد غفير من المهاجرين قدر عددهم عام ١٩٢١ بـ (٨٠٥٠٠٠٠) نسمة ثم هبط العدد عام ١٩٢٥ الى (٢٠٠٠٠٠) مهاجر تقريباً . كذلك أم البلاد الكندية عدد كبير من المهاجرين يقدر متوسطهم السنوي بـ (١٠٠) الف ومثل ذلك الى امريكا الجنوبية .

غير أن الازمة العالمية اوقفت حركة الهجرة تماماً وأحدثت زيادة على ذلك تياراً معاكساً اذ عاد عدد كبير من المهاجرين الى بلادهم الاصلية . ولكن اضطهاد ألمانيا النازية لليهود وارتفاع نسب الضرائب في أوروبا وخوف كبار المتمولين البورجوازيين من قيام ثورات داخلية دفع بجميع هؤلاء الى تهريب اموالهم الى خارج اوروبا ثم غادروا البلاد بعد ذلك . فنشأ عن هذه الهجرة الصغيرة بعدد أفرادها والغنية بأموالها ان توظفت رؤوس الأموال هذه في البلاد التي دخلتها وقامت صناعة حديثة ناشئة لاسيما في بلادامريكا اللاتينية.

هذا بما يخص الهجرة الأوروبية الى العالم الجديد ، غير ان هناك تيارات متعددة خارج البلاد الأوروبية وغير خاضعة للاحصاء مازالت ناشطة كهجرة الروس الى سيبريا وهجرة الصينيين الى منشوريا ومنغوليا وهجرة السوريين الى جميع انحاء العالم وهجرة اليونانيين الى افريقية والهنود الى افريقية وبلدان المحيط الهندي .

٥ – الهجرة في الوقت الحاضر

لم تزل اوروبا غاصة بالسكان ونخص بالذكر المانيا لاسيما بعدان عاد اليها جميع الألمان الذين كانوا يؤلفون مستعمرات كبيرة في البلاد المجاورة لبلادهم الأصلية كالنمسا وتشيكوسلوفاكيا . وفي ايطاليا وانكلترة أزمة زيادة سكان ايضاً اذ لايستطيع الانتاج القومي لهذين البلدين أن يقوم بأود سكانهما أضف الى ذلك رغبة عدد كبير من الأسر والأفراد في ترك اوروبا مخافة الأزمات السياسية والاقتصادية التي تهدد بشبحها الأسود سكان العالم القديم . غير ان الدول

الأوربية تعارض في هجرة مواطنيها وعمالها الأكفاء ووضعت أمام المهاجرين عقبات ادارية عديدة .

أما بلاد المهجر فلم تزل في معظمها كالولايات المتحدة تهاب الهجرة المتدفقة لأسباب سياسية « الخوف من الشيوعية » واقتصادية واجتماعية . غير ان امريكا اللاتينية لاسيما البرازيل والأرجنتين واستراليا ترغب بزيادة سكانها وتوسيع الاستهلاك في اسواقها الداخلية . ولذا تسير على سياسة انتقاء المهاجرين ولا تسمح بالدخول الا لأصحاب رؤوس الأموال والفنيين والعمال الأكفاء لدعم صناعتها الناشئة وللحفاظ على سوية حياة سكانها من التدني . لكن العقبات الادارية وصعوبة ايجاد مكان في بواخر النقل يحد كثيراً من تدفق الهجرة على مقياس واسع وحسب الاحصاءات لعام ١٩٤٩ نجد عدد المهاجرين الذين توجهوا :

الى كندا يرتفع الى ٨٦،٠٠٠ مهاجر

الى استراليا » » ١٦٨،٠٠٠ »

ثم هناك تيارات اخرى تتجه الى البرازيل والأرجنتين وروديزيا وفلسطين. فحركة الهجرة اذن لم تنقطع بل انكمشت وصغر حجمها واختلفت من حيث الكمية والنوع .

الفصل الثاني عشر

المساكن

تعتبر المساكن من اكثر المنشآت البشرية أهمية وأوسعها انتشاراً على سطح الأرض وأعظمها تنوعاً وأشدها تأثراً بشروط الوسط الجغرافي وأكثرها ثباتاً والتصاقاً بحياة الانسان . وهي تعكس بصدق أشكال الفعاليات التي يمارسها ساكنوها .

وترتبط المساكن ارتباطاً وثيقاً بطرق المواصلات ، فاذا كانت الطرق هي التي تزرع الحياة وتنثر المساكن في كل مكان تمر فيه. فانها تصبح عديمة الفائدة اذا لم يكن هنالك قرى ومدناً تستخدم هذه الطرق من اجل انتقال الاشخاص والبضائع من مكان الى آخر . ويمكن للانسان ان يقيم في الريف أو في المدينة ولهذا قسم السكن الى زمرتين كبيرتين السكن الريفي والسكن المدني.

فالمسكن الريفي هو وحدة البناء في القرية والمسكن المدني هو وحدة البناء في المدينة .

١ - **المنزل الريفي** : تعتبر المنازل سواء كانت مبعثرة متباعدة عن بعضها او متجمعة مؤلفة قرية مزدوجة من أهم الآثار التي يطبعها الانســان على سطح الأرض ، ان المنزل واقع جغرافي لا يمكن أن يدرس لوحده بل ضمن مجموعة من الأبنية الأخرى أو ضمن مجموعة من الفعاليات التي يرتبط بها .

ويختلف المنزل الريفي عن المنزل المدني بأنه مكان للسكن والعمل في نفس الوقت ، في حين أن مكان السكن غير مكان العمل في المدينة . وعلى هـذا فالمنزل الريفي يعكس التأثيرات الطبيعية بوصفه مسكناً وملجأ كما يعـكس التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية بوصفه مكاناً للعمل .

أثر عناصر الطبيعة في بناء المنزل الريفي :

يبدو أثر الطبيعة على هذا المنزل من نواحي المناخ ومواد البناء .

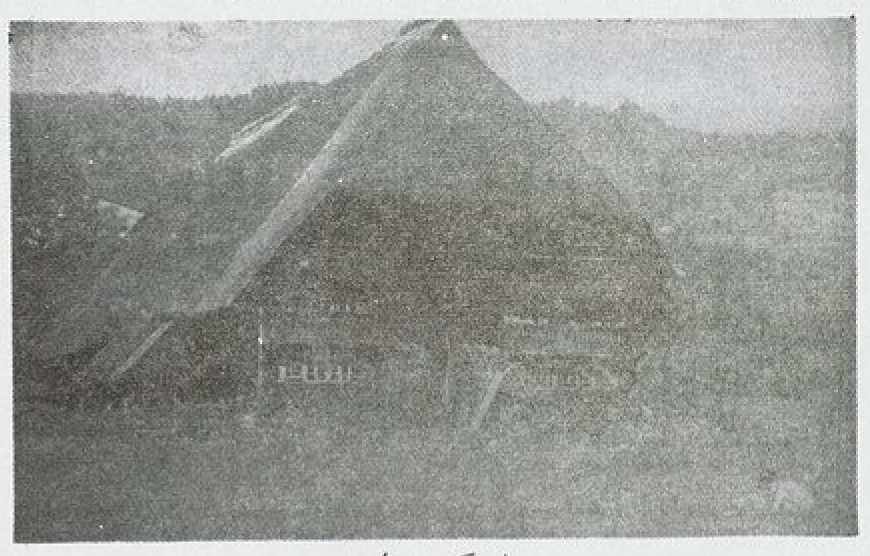
أ - **المناخ** : يلعب المناخ دوراً كبيراً في طريقة بناء المنزل واتجاهه والمواد المستعملة في بنائه . يهدف المنزل في الواقع الى وقاية ساكنية من الحر والقر والرياح والأمطار والثلوج .

وعلى هذا تبدو الفروق واضحة في بناء المنازل حسب المناطق المناخية التي تبنى فيها فمنازل الأسكيمو المبنية بقطع الجليد [1] « إيكلو Igloo » تختلف

(١) راجع الشكل ١٢ و ١٣ و ١٤ من بحث الاسكيمو .

عن المنازل الخشبية في المناطق المعتدلة وتختلف عن الأكواخ الخشبية (٢) التي توجد في المناطق الحارة . وهذه كلها تختلف عن الخيام التي تستعمل في الصحاري الجافة .

ويبدو أثر المناخ واضحاً في اتجاه المنزل ، ففي مقاطعة البروفانس جنوب فرنسا مثلا تدير المنازل ظهرها نحو الشمال لأن رياح الميسترال الباردة تهب من الشمال نحو الجنوب ، وتكون الجدران الشمالية غالباً خاليةمن النوافذ والأبواب وتتجه معظم منازل النصف الشمالي من الكرة الأرضية نحو الجنوب حتى تتمكن أشعة الشمس من الدخول اليها خلال فصل الشتاءعندما تكون الشمس بحركتها الظاهرية مائلة الى الجنوب وأقرب الى الافق . (الشكل٣٦)



(شكل ٣٦)

نموذج البيوت الخشبية في منطقة الغابة السوداء في المانيا ، يلاحظ في الصورة امتداد السقف المتجه الى الشمال حتى يصل تقريباً الى القرب من سوية الارض ليمنع الرياح الباردة

(٢) راجع الشكل (٢٠) الذي يعطي مثلا للاكواخ الخشبية في المناطق الحارة.

ب ـ مواد البناء : يستعمل القروي من اجل بناء منزله المواد التي يجدها في متناول يده . ففي الأماكن التي تتوفر فيها الغابات تدخل الأخشاب بنسبة كبيرة في بناء الجدران والسقوف وعلى هذا تكثر المنازل الخشبية في كندا وسيبريا وفنلندا والسويد وبوهيميا وفي جبال الألب وفي غوطة دمشق . وفي المناطق التي تتوفر فيهاحجارالبناء تبنى الجدران بالأحجار المقطوعة«الغشيمة» او المنحوتة . أما السقف فقد يكون من القرميد أو التوتياء او القش اوالخشب المستور بطبقة غليظة من الطين الخ .. أما في المناطق الغضارية والليمونية فان جدران المنازل تبنى عادة بلبنات من الطين المجفف أو المشوي « آجر » أومن التراب المرصوص «الدك» . كما هي الحال في دمشق وغوطتها .



(شكل ٣٧)
نوع من البيوت في قرية « تلبيسة » في سورية وتتألف من جدران من الطين وسقوفها على شكل قباب متطاولة مصنوعة من الطين أيضاً

٢ – العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر على المنزل الريفي:

يبدو المنزل الريفي اذن وكأنه حصيلة تضافر الشروط المناخية وحالة مواد البناء المتوفرة في المنطقة المأخوذة بعين الاعتبار، غير أننا سوف نقع في خطأ فادح لو أننا اعتبرنا المنزل الريفي وكانه مجرد انعكاس بسيط للشروط الطبيعية أو أننا صنفنا المنازل بالاستناد الى المواد التي تستخدم في بنائها.

لم يعد القروي في الوقت الحاضر وفي كثير من مناطق العالم، مضطراً لاستخدام مواد البناء المحلية المتوافرة في وسطه الطبيعي بعد أن توسعت تجارة مواد البناء من اسمنت وحديد وقرميد ونوتياء الخ.. ان هذه المواد التي يسهل شراؤها فقد تضفي على منازل مناطق مختلفة بطبيعتها صفة التجانس وتبعد عنها في نفس الوقت صبغتها الريفية.

هذا واذا كان اطار المنزل الريفي ومظهره الخارجي عرضة للتبدل السريع، فان مخططه الداخلي وتقسيماته تعتبر اكثر استقراراً وثباتاً لأنها ترتبط بالاقتصاد الزراعي ارتباطاً وثيقاً، والمنزل الريفي بهذا المعنى تعبير حسي للعلاقة الموجودة بين الفلاح ومواشيه وحقله؟

فالمنزل الريفي ملجأ يأوي اليه القروي ومستودع يخزن فيه غلاته وعلف حيواناته ومؤونة اسرته ومعمل يضم أدوات عمله واسطبل لمواشيه وحيواناته.

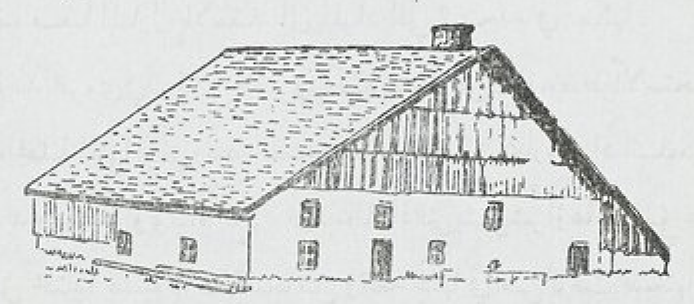
فمخطط المنزل وتنسيقه يتغيران تبعاً لطبيعته وأهمية العمل الزراعى الذي يقوم به.

فالمنازل الموجودة في المناطق حيث تسود تربية الماشية تختلف عن منازل المناطق التي تسود فيها الزراعة كما تختلف أيضاً تبعاً لسعة أو ضيق الأراضي

المستثمرة أو تبعاً لتجمع الحقول أو تبعثرها في أماكن مختلفة .

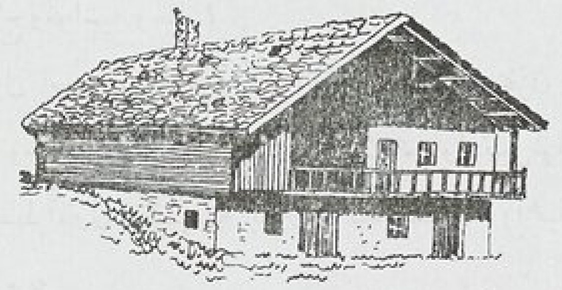
وهناك تصنيف عام للمنازل الريفية بالنسبة لمخطط بنائها ، وتقسم المنازل حسب هذا التصنيف الى ثلاث فئات رئيسية .

آ ـ **المنزل المنضم الذي لاساحة له** maison-bloc : حيث تجتمع كافة أجزاء المنزل تحت سقف واحد وتنضم الى المنزل كافة ملحقاته. الشكل(٣٨و٣٩).



الشكل (٣٨) مسكن منضم في منطقة الفوج والجورا الشمالية ، كل أقسام هذا المنزل الريفي مجموعة تحت سقف واحد كما يلاحظ وجود طابق ثان للسكن

ب ـ **المنزل المنضم ذو الساحة** maison-Cour يتألف المنزل هنا من عدة أقسام تنتظم حول ساحة مكشوفة يمكن الدخول الى كافة أقسامه من الساحة.



الشكل (٣٩) نوع آخر من المنازل الريفية المنضمة في منطقة شمال الالب والسافوا العليا يلاحظ ان الطابق السفلي مخصص للماشية والعلف وأدوات الزراعة والطابق العلوي للسكن

ج ـ **المنزل ذو الاقسام المتباعدة** : يكون القسم المخصص للسكن في هذا

المنزل مستقلا عن باقي الأقسام والملحقات الشكل (٤٠).



الشكل (٤٠)

نموذج المنزل الريفي ذي الاقسام المتباعدة تفصل بينها ساحة مفتوحة بعض هذه المباني مخصص للسكن وبعضها الاخر مخصص للماشية وللادوات الزراعية ولحفظ العلف الخ ...

القرية :

لاتقتصر الجغرافية على دراسة توزع المنازل الريفية وكيفية تجمعها، بل انها تأخذ بعين الاعتبار أيضاً العلاقات الموجودة بين مجموعات المنازل وبين الأرض التي يستغلها سكان تلك المنازل . وتسعى الجغرافيا أيضاً للتعرف على فعاليات القرويين الذين يشكلون الجماعات الريفية كما تعمل على ايضاح الشروط التاريخية التي تمت فيها اقامة تلك الجماعات في ارضها التي تشغلها وتعيش من انتاجها . وكما أن عالم النبات يدرس مورفولوجية النباتات وفيزيولوجيتها . كذلك يفعل الجغرافي اذ يدرس شكل المسكن الريفي وبنيته الوظيفية .

ان دراسة مورفولوجية المساكن تعنى دراسة أشكال القرى أو التجمعات ودراسة الأرض التي يملكها سكان القرية أما دراسة البنية الوظيفية للمساكن الريفية فتعنى دراسة الشكل الذي يشغل به الريفيون الأرض (نظام الملكية والاستثمار) كما تعني دراسة الأنظمة الزراعية .

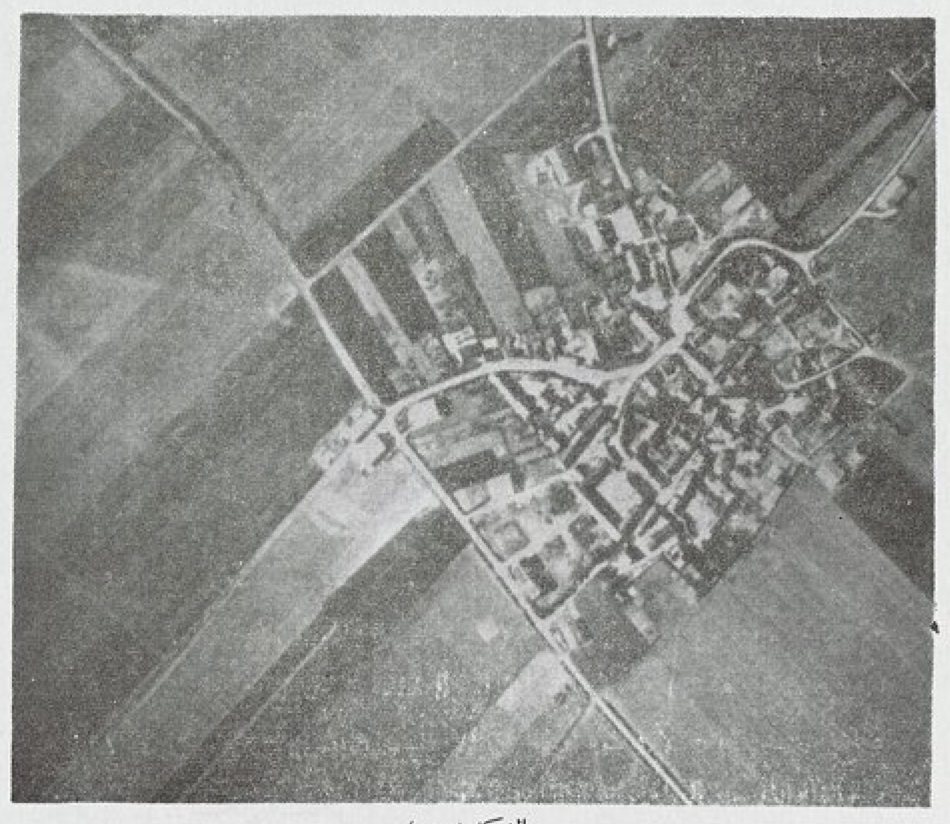
٣ـ المورفولوجيا الزراعية أو أشكال المساكن والأراضي التابعة لها :

١ ـ شكل المسكن :

عند دراسة المسكن الريفي على الأرض مباشرة أو على خريطة ذات مقياس

مناسب نرى أن المنازل تكون أحياناً قليلة قريبة من بعضها البعض تشكل قرية متراصة المساكن وتكون احياناً أخرى مبعثرة متباعدة وقد يحدث تداخل بين هذين الشكلين في منطقة واحدة .

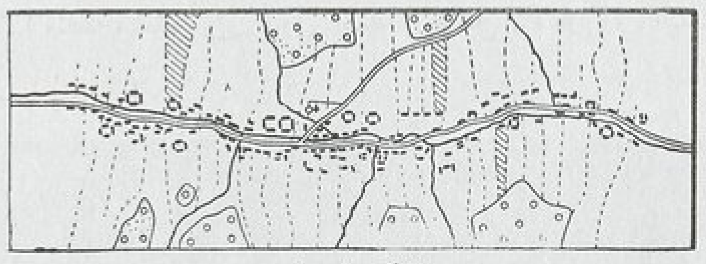
أ - **المساكن المجمعة أو القروية** : تقترب المنازل بعضها من بعض لأسباب طبيعية وبشرية متنوعة وتشكل مايسمى بالقرية . وقد لوحظ أن المنازل تقترب من بعضها وتتجمع عادة في السهول الكبرى التي تمتد في أوروبا من فرانساغرباً حتى



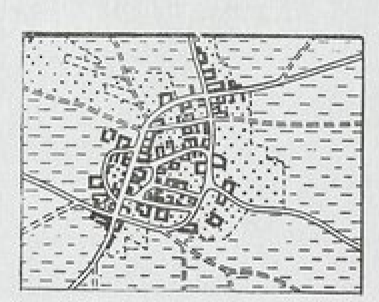
الشكل (٤١)
نموذج للقرى المجمعة ذات الدور المتراصة الى بعضها في بعض المناطق الفرنسية

سهول اوكرانيا في الاتحاد السوفيتي . ومن الجدير بالذكر أن المنازل تتجمع بشكل قرى في معظم أنحاء الشرق الأدنى أيضاً (الشكل ٤١) .

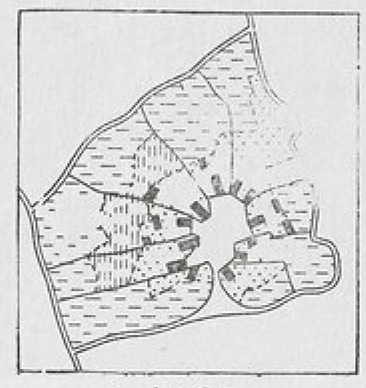
والقرية عادة مخطط يضفي عليها شكلا معيناً ، فقد تكون القرية ذات شكل متطاول عندما تنتظم المنازل على جانب طريق أو سكة حديدية أو داخل واد او على ضفة نهر صالح للملاحة (الشكل ٤٢)، وقد تكون نجمية الشكل عندما تنتظم المنازل حول نقطة تقاطع عدد من الطرق (الشكل ٤٣) وقد تكون مستديرة الشكل (الشكل ٤٤) وقد لايكون لها شكل معين .



الشكل (٤٢)
نموذج للقرية المتطاولة الممتدة على طرفي الطريق الرئيسية



الشكل (٤٣)
نموذج للقرية المتجمعة المنضمة



الشكل (٤٤)
نموذج للقرية المستديرة الشكل

وعند دراسة المسكن الريفي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار درجة اقتراب المنازل بعضها من بعض فاذا كانت قريبة من بعضها كثيراً أطلق عليها اسم القرية المتراصة ، واذا كانت المنازل متباعدة عن بعضها اطلق عليها اسم القرية المتراخية .

ب - **المسكن المبعثر** : ويكون بشكل مزارع واحواش ومنازل مبعثرة وخاصة في المناطق الجبلية كما هي الحال في الكتلة المركزية وجبال الفوج في فرنسا ، وجبال الألب الشماليه وجبال البلقان ، ويسود المسكن المبعثر أيضاً في الصين (منطقة ساتشوان) وفي الهند (ساحل المالابار وفي البنغال والبنجاب الجنوبية) .



الشكل (٥ : ٤)
نموذج للقرية ذات المساكن المبعثرة وهي من قرى الولايات المتحدة في قسمها الشرقي

إن اسكان وإعمار البلاد الجديدة يتم عادة عن طريق اسكان مبعثر ، كما حدث في سهول كندا والولايات المتحدة والبامبا الارجنتينية واستراليا (الشكل ٤٥) الخ .. هذا وان التبعثر لا يعني ابداً أن تلك المنازل المنعزل بعضها عن بعض انما تتوزع بدون أي نظام ؛ فقد لوحظ في كثير من المناطق أنها تتوزع على امتداد طريق أو خط حديدي او حول الكنيسة أو البلدية فيبدو فيها عنصر من عناصر التنظيم .

من الخطأ أن نعتقد بأن التباين بين المسكن المجمع والمسكن المبعثر يتحقق داخل مناطق واسعة ، ان هذين الشكلين من توزع المساكن الريفية سرعان مايتداخلان فنجد مثلاً قرى كبيرة يحيط بها عدد كبير من المنازل والمزارع المتناثرة حولها .

٢ً – شكل الحقول والاراضي :

ان دراسة تحليلية للحقول المحيطة بالقرى عن طريق الملاحظة المباشرة أو عن طريق مخططات مصلحة المساحة تبين وجود شكلين رئيسيين : الحقول المفتوحة والحقول المغلقة أو المسيّجة . وقد لوحظ وجود نوع من التلازم بين المساكن المجمعة والحقول المفتوحة من جهة والمساكن المبعثرة والحقول المسيّجة من جهة اخرى .

أ – الحقول المفتوحة : إن أبرز عنصر في الأراضي ذات الحقول المفتوحة هو شكل هذه الحقول الذي يتألف غالباً من مضلع هندسي متطاول . ويبدو أن هذه الحقول المتطاولة ترتبط بحضارة زراعية معينة تستعمل المحراث العادي

لأن هذا المحراث يعطي أحسن مردود عند حراثة أثلام طويلة ومن هنا ضرورة استطالة الحقول . ولهذا فان الحقول المتطاولة تبقى واضحة في الأرياف المفتوحة بالرغم مما يصيب الأراضي من تجميل عن طريق الشراء .



الشكل (٤٦)

نموذج للحقول المتطاولة في القسم الفرنسي من كندا يلاحظ في الشكل ان البيت يقوم بالقرب من الطريق يليه الحديقة ثم الحقل ثم المرعى وينتهي بالغابة .

ومما يميز الأرياف ذات الحقول المفتوحة أيضاً أن الاحراج اذا وجدت فانها تتمركز عادة على أطراف أرض القريبة بحيث لاتسيء هذه الاحراج الى المنظر المفتوح .

وآخر مايميز الأراضي ذات الحقول المفتوحة في اوربا المساحة الصغيرة

لأراضي القرية، فمجموع مساحة ماتملكه القرية لا تتجاوز في اوروبا (١٠٠٠) هكتار الا إذا ضمت اليها المساحات التي تغطيها الأحراج .

ب ـ **الحقول المسيجة او الاراضي المغلقة** : تقسم أرض القرية هنا بواسطة حواجز من سياج نباتي أو جدار حجري الى حقول منتظمة هندسية الشكل حيناً وغير منتظمة أحياناً أخرى (الشكل ٤٧).

إن مظهر هذه الحقول المغلقة متنوع جداً تبعاً لأنواع الحواجز التي تحاط بها الحقول . وهذه الحواجز هي في نفس الوقت وسيلة لتثبيت الملكية وحمايتها . وتكون مساحة أراضي القرى ذات الحقول المغلقة عادة . أكبر من اراضي القرى ذات الحقول المفتوحة .



الشكل (٤٧)
نموذج للاراضي المسيجة المغلقة اي المحاطة بجدار او سياج

٣ – أسباب التجمع والتبعثر في السكن الريفي :

تشمل التنظيمات الريفية المساكن والأراضي المحيطة وتكون هذه التنظيمات حسب شكلين رئيسيين :

– المساكن المجمعة ذات الحقول المفتوحة .

– المساكن المبعثرة ذات الحقول المسيجة أو المغلقة .

ولكن لماذا يسود أحد هذين الشكلين في منطقة دون أخرى ؟ وبتعبير آخر ماهي شروط أو أسباب التجمع والتبعثر في الاسكان والاستثمار الزراعي ؟.

هنالك في الواقع عدد من الشروط بعضها طبيعية وأخرى بشرية .

أ – **الشروط الطبيعية** : لقد لوحظ أن معظم السهول ، وخاصة الخالية من الغابات ، كانت موطن اسكان مجمع ، على عكس المناطق ذات التضاريس فانها تكون ذات اسكان مبعثر ، غير أننا لانستطيع مع ذلك أن نعمم مثل هذه القاعدة فكثيراً مايتجمع السكان في الجبال ويسكنون في قرى يسهل الدفاع عنها ومن أحسن الامثلة على ذلك جبال الأوراس والقبائل والأطلس الاوسط في شمال افريقية وجبال العلويين والدروز في سورية . وهكذا نرى أن دور التضاريس في الاسكان إنما هو دور نسبي .

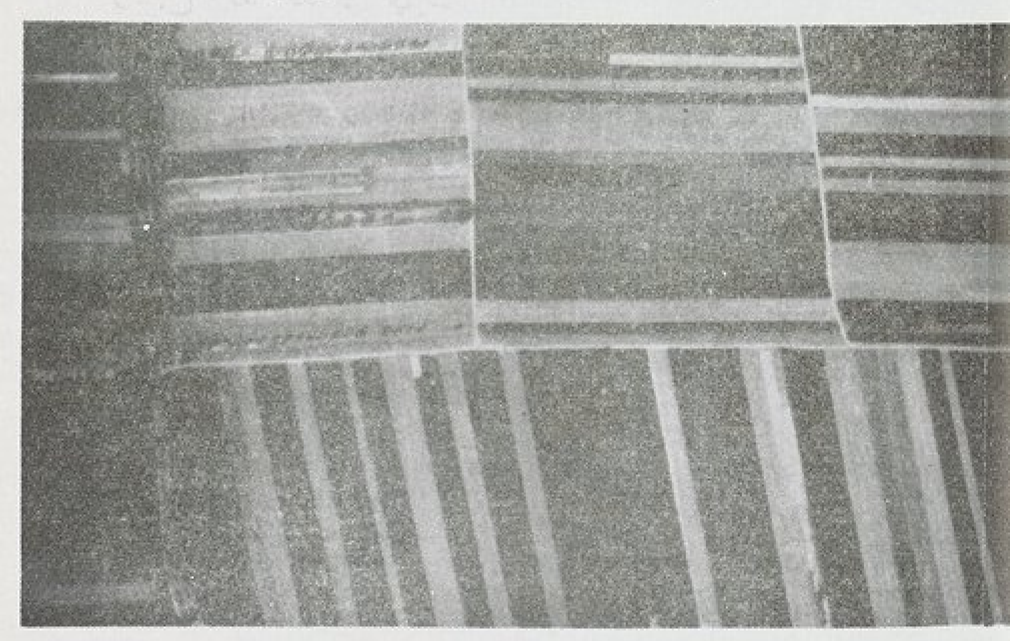
وقد حاول بعضهم أن يفسر التجمع والتبعثر بطبيعية الصخور في المنطقة المأخوذة بعين الاعتبار وما ينجم عن ذلك من قلة أو وفرة في الموارد المائية . لقد حاولوا حصر التجمع في المناطق ذات الصخور النافذة ، لأن موارد الماء في منطقة ذات صخور نافذة تكون محدودة في نقاط معينة فيضطر السكان للتجمع

حولها ، أما في المناطق ذات الصخور الكتيمة فالمياه تكون متوفرة في كل مكان وبالتالي يستطيع السكان ان يتفرقوا غير أن دور الماء في الاسكان نسبي ويشبه دور التضاريس .

ب ـ **الشروط البشرية** : لا تكفي الشروط الطبيعية في الواقع لتفسير شكل الاسكان ، ولا بد من اخذ الشروط البشرية بعين الاعتبار ، بل إن تأثير الشروط البشرية قد تكون أكثر وضوحاً من أثر الشروط الطبيعية .

ان الشكل الذي تستقر عليه الجماعة البشرية في مكان ما من سطح الارض يتعلق بتقاليد تلك الجماعة وبامكاناتها وبالشروط الاقتصادية التي كانت سائدة في الفترة التي تم فيها الاستقرار .

ويبدو أن المساكن المجمعة وحقولها المفتوحة المنظمة هي من ابتكار جماعة



الشكل (٩ : ٤) نموذج للحقول المفتوحة المتطاولة في المانيا الشمالية « الرين الاسفل »

بشرية تم تنظيمها الاجتماعي وفقا لقواعد اقتصادية وزراعية دقيقة : كأن تمارس دورات زراعية اجبارية ولها أراض مخصصة للرعي وقطعان جماعية من الماشيـة .

كان مثل هذا التنظيم الاجتماعي الريفي سائداً في بداية القرن التاسـع عشر في العالم القديم من اوروبا حتى بلاد الصـين ، وكان كل شيء يتم كما لو كانت الجماعات البشريه تنظم استثمار الارض على طريقة العمل الجماعي .

هذا واذا كان المسكن المجمع دليلا على فئة بشرية متضامنة من الناحية الاجتماعية فان المسكن المبعثر ينبيء عن النزعات الفردية . اذ يبتعد الشخص عن الجماعة ويسكن على قطعة من الأرض يملكها وله حق احاطتها بسياج ، وهو حر باتباع الدورة الزراعية التي يريدها .

هذا وتتغير التنظيمات الريفية الزراعية مع الزمن تبعاً للتطورات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية . لذلك فان أشكال المساكن الريفية في بلد من بلدان العالم تعكس المراحل الهامة لتاريخ ذلك البلد .

وتتصف المساكن بالاستقرار والثبات لذلك فانها تحتفظ باشكالها حتى بعد زوال الشروط التي كانت سبب نشأتها ، لذلك تعتبر المساكن محافظة قليلة التطور اذا ماقورنت بتطور وظيفتها الزراعية .

٤ — البنية الزراعية للمسكن

تتغير وتتطور البنية الزراعية أو البنية الوظيفية للمسكن الريفي تبعاً لشكلي الاسكان الرئيسيين .

ويبدو السكن الريفي المبعثر من ناحية الفن الزراعي اكثر فائدة من أجل العمل والتنظيم الريفيين : كسهولة المراقبة والرعاية ، وقرب الفلاح من حقوله فلا يضطر لقطع مسافات طويلة للوصول الى ارضه كما انه لايجبر على اتباع دورة زراعية معينة تمشياً مع مصالح الآخرين ، وبامكانه تربية ماشيته تربية كثيفة.

أما السكن المجمع ومايتبعه من حقول مفتوحة ، فان السكان هنا يتبعون دورة زراعية ثلاثية على الأغلب ويخصصون قسماً من أرض القرية لرعي قطيع القرية ، وتكون الحقول بعيدة عن المساكن وتصعب مراقبتها ويمكن ان يتطور الاستثمار الزراعي هنا نحو الزراعة الواسعة بفضل تجميل الأراضي وسهولة استخدام الآلات الزراعية وهذا يساعد بدوره على تطور اجتماعي مبكر .

١ ـ ملكية الأرض

كل جماعة ريفية تعيش مستقرة على أرض تملكها أو تتصرف بها على الأقل ، فالعلاقة بين الأشخاص والأرض المزروعة ليست واحدة ومستثمر الأرض ليس مالكا لها بالضرورة ، فملكية الأرض هي في الواقع شيء واستثمارها شيء آخر .

ان العلاقة الطبيعية بين الانسان والأرض هو أن يكون مستثمر الأرض مالكا لها وعندها يكون الاستثمار مباشراً . وتسود طريقة الاستثمار المباشر في العالم القديم حيث عرفت ملكية الأرض منذ زمن بعيد . ولكنها تسود أيضاً في البلاد الجديدة ، ففي السهول الامريكية الكبرى واستراليا يستقر كل معمر Colon مع اسرته على قطعة يختارها بنفسه ومن هنا كان الاسكان مبعثراً فلا نجد في تلك السهول أي تمركز اجتماعي يشبه القرى الكبيرة التي تصادف في بلاد العالم القديم ، فلا توجد في سهول العالم الجديد جماعات ريفية أو قروية بالمعنى المتعارف عليه قديماً فاستعمال الآلات في الأعمال الزراعية يسمح للمزارع أن يسكن المدينة وأن يتردد على أرضه ومزروعاته بالسيارة من وقت لآخر .

أما في البلاد ذات الاقتصاد الاشتراكي فان الاستثمار المباشر للارض يأخذ شكلا جماعياً يذكر بحياة الجماعات الريفية التي تعيش في قرية واحدة يتعاون افرادها على انجاز الأعمال الزراعية .

أما طريقة الاستثمار غير المباشر فتتلخص في أن يعهد صاحب الأرض الى شخص آخر يقوم بكل الأعمال الزراعية مقابل نصيب معين من غلة الأرض وتأخذ طريقة الاستثمار غير المباشر في بلادنا سورية أشكالا مختلفة : المزارعة ، المغارسة ، المخامسة ، المرابعة ... الخ .

ان دراسة أشكال ملكية الأرض واشكال استثمارها تدعونا لدراسة الأنظمة الزراعية .

٢ ـ الانظمة الزراعية :

آ ـ ماهو النظام الزراعي :

نعني بالنظام الزراعي الشروط المادية للاستثمار الزراعي وهذا التعريف يتضمن في الواقع العناصر التالية :

— تنسيق وتجهيز الأبنية والأراضي التابعة لمشروع زراعي .

— تهيئة الأرض لمختلف الزراعات وفق خصائص التربة واسواق الاستهلاك والظروف الاقتصادية .

— طرق تربية الماشية .

— طرق استعمال الأدوات والآلات الزراعية .

ب ـ تطور الأنظمة الزراعية :

ان الغاية الرئيسية من ممارسة الأنظمة الزراعية هي تأمين الغذاء الضروري لأفراد الجماعة الريفية وبعض الحاصلات يمكن أن يكون لها قيمة تجارية ؛ هـذا الاقتصاد هو اذن اقتصاد اكتفائي بالدرجة الأولى غير أنه لايلبث أن تتوطد أركانه بسبب استمرار الجهود خلال الأجيال المتتالية ، فيبدأ بالحرص على المحافظة على خصب الارض وارتفاع المردود وذلك عن طريق اتباع دورات زراعية والأخذ بنظام البور الذي يتضمن اراحة جزء من الارض في كل عام حتى تستعيد التربة الزراعية بعض عناصرها المخصبة .

لايزال نظام البور متبعاً حتى الآن في كثير من المناطق ذات التربة الفقيرة والمياه القليلة كما هي الحال في كثير من بلاد حوض البحر المتوسط . وغاية هذا البور هو ضمان الحصول على مردود معين ، وهنالك نوع آخر من البور يطلق عليه اسم البور الاقتصادي jachère écononmique يطبق لغايات تجارية كما هي الحال في الولايات المتحدة الاميركية (يقوم على تحديد المساحات المزروعة حسب متطلبات أسواق الاستهلاك) .

غير أن تطور الاقتصاد الزراعي لا بد من أن يقضي على نظام البور الذي يعطل في كل عام جزءاً من الارض المنتجة ، ويقضى على البور باستعمال الأسمدة وباتباع الدورات الزراعية التي تؤدي الى تناوب زراعات مختلفة ذات حاجات غذائية مختلفة فوق الارض الواحدة كأن تزرع الأرض قمحاً ثم شمندراً وهكذا فان نظاماً زراعياً مستمراً يحل محل نظام البور المنقطع ، فينجم عن ذلك ادخال زراعات غذائية جديدة وزراعات أخرى علفية أوصناعية وتتوسع تربية الماشية في نفس الوقت. ويترتب على هذا نمو الروح التجارية في الريف و يعتمد الاقتصاد الريفي ليس على الاكتفاء الذاتي والاسواق المحلية فحسب بل على اسواق استهلاكية أكثر اتساعاً و خاصة أسواق المدن .

وأخيراً فان نمو التجارة الريفية وازدياد الربح يساعدان سكان الارياف على تطوير اقتصادهم فيصنعون زراعتهم عن طريق انتقاء البذور و الاغراس وتهجين المواشي و القيام بدراسات زراعية و الاعتماد على استخدام الآلات الزراعية الحديثة .

ان التقدم التكنيكي الذي حققه أهل الريف في كثير من بلاد العالم قد

سبب تغييراً كبيراً في عقليتهم فثبت لديهم فكرة الربح والتجارة و بدأ شعورهم بعدم الاستقرار يزداد يوماً بعد يوم لما يشاهدونه من ثبات أجور العمال الصناعيين في المدن تجاه اضطراب دخلهم المرتبط بشروط الاحوال الجوية واحتمال مرور أعوام قاحلة يهبط فيها دخلهم وتسوء حالهم. ومن هنا كانت بداية نزوح أهل الريف من القرى الى المدن حيث تتوفر اسواق للعمل دائمة وذات اجور ثابتة.

* * *

الفصل الثالث عشر

المدن

١ — تختلف المدينة عن القرية والريف . ويؤلف سكان المدن وأهل الريف في كل بلد جماعات بشرية تختلف نسبها العددية حسب المناطق المأخوذة بعين الاعتبار وحسب أنماط الحضارة التي تسود فيها .

فالمدينة مؤسسة اجتماعية اكثر فعالية من القرية ، ويرتبط نشوءها وحياتها بنمو وازدهار الحضارات ، وتعتبر المدينة من أهم العوامل المساعدة على قيام هذه الحضارات ، كما أن الامم المتحضرة استثمرت البلاد الجديدة أو المتخلفة ، منذ عهد الاستعمار الاغريقي حتى يومنا هذا ، عن طريق بناء المدن .

هذا : وقد عرف التاريخ فترات امتازت بازدهار المدن ، كالفترة الهلينستية في سورية والفترة التي تمتد من القرن العاشر الى الخامس عشر ثم فترة الثورة الصناعية في أوروبا . وعليه يمكننا أن نتحدث عن أجيال من المدن ، فكل مدينة لها موقعها الزمني في الاطار التاريخي لها موقعها الجغرافي في اطار الطبيعة.

قد تساعد الطبيعة أو تعاكس عمل التجمعات البشرية في بناء المدن ؛

إنها تساعد عندما تقدم موضعاً وموقعاً لهما من المزايا مايدفع على نمو المدينة ، ولذا نرى المدن تنزع للمحافظة على أماكن نشوئها عبر العصور المختلفة وبالرغم من عاديات الدهر فلقد نشأت مدينة باريس في نفس مكان لوتيسيا ونشأت تونس في مكان قرطاجنة .

وقد تعمل الطبيعة على هدم وتخريب جهد الانسان أحياناً . ومن الأمثلة المشهورة في التاريخ خراب مدينتي بومبي وسان بيير اللتين أحرقتا وتهدمتا بفعل الانفجارات البركانية .

وعلى هذا يمكن القول بأن الاطار الجغرافي يلعب دوراً خاصاً في حياة المدن ، وقد يكون هذا الدور نتيجة عوامل عامة كالمناخ والتضاريس والكثافة البشرية أو نتيجة عوامل نسبية كالموقع والموضع . وسنبين فيما يلي مفهوم الموقع والموضع .

الموقع la situation ou la position

المقصود بالموقع هو مكان المدينة بالنسبة لما يجاورها من المناطق وما ينجم عن هذا المكان من سهولة أو صعوبة في علاقاتها البعيدة . وتشكل الحواجز التي تعترض المواصلات عنصراً من العناصر المرجحة في اختيار مواقع المدن ، ويعتبر حاجزاً كل مكان يتوجب فيه عادة تغيير وسائل النقل والمواصلات وعلى هذا فان مواقع المدن تكون عادة .

١ — عند سفوح الجبال : لأن طرق ووسائل النقل الخاصة بالمناطق السهلية

يجب أن تتلاءم مع شروط جديدة . عند وصولها الى سفح الجبل . ان المدن تكثر على سفوح جبال الألب الفرنسية مثلاً .

٢ً — عند الشواطيء البحرية : تكثر مواقع المدن على الشواطيء وفي النقاط التي يتم فيها تحميل البضائع وتنزيلها أي في النقاط التي تتوقف فيها المواصلات البرية أوالبحرية .

٣ً — شواطيء الأنهار : تشكل الانهار حاجزاً أمام استمرار المواصلات لذلك تنشأ المدن عند المخاضات أو في أماكن الجسور .

٤ً — عند تخوم الصحارى : كثيراً ماتختار المدن مواقعها على تخوم الصحراء مثل فقيق وتومبوكتو في افريقية ودمشق وحمص وحماه وحلب في سورية ، فهذه المدن هي في الواقع موانىء حقيقية للاستراحة ومراكز لتجارة القوافل .

الموضع : Site

موضع المدينة هو الحيز الذي تشغله من سطح الارض مع ما لهذا الحيز مع ميزات تتعلق بوضعه الطبوغرافي وتربته ومياهه وثروته الدفينة .

لمن النادر أن تبنى مدينة لتكون عاصمة على الفور كمدينة كانبرا في استراليا وبرازيليا في البرازيل . ان كل المدن تقريباً تنشأ صغيرة ومتواضعة ثم لا تلبث أن تنمو وتتسع لتتجاوز حدود موضعها الأصلي .

وقد يصدف أن تغير المدينة وظيفتها فيظهر موضعها الاصلي غير ملائم

للوظيفة الجديدة لذلك فان الموضع الحالي لكثير من المدن يكون في الواقع مختلفاً عن موضعها الاصلي الذي تأسست فيه .

ويجب أن نذكر هنا أن في الطبيعة دلائل تؤكد أن المدن تنشأ وتتطور حسب مايناسبها من شروط بصرف النظر عن كل فكرة حتمية .

٢ — مورفولوجية أو اشكال المدن

تعني مورفولوجية المدن مخططاتها ومظاهرها وتخطيط شوارعها وساحاتها وتنوع أحيائها. وغاية مورفولوجية المدن هي دراسة مجال المدن ، أي المساحة الارضية التي يحوزتها من أجل حياتها وتوسعها ، ودراسة تنظيم هذا المجال حتى تؤدي المدينة وظائفها على أحسن وجه .

١ — مجال المدنية L'espace urbain :

يبدو للوهلة الاولى أن مجال المدينة لايعني شيئاً آخر غير المساحة التي تشغلها المدينة المأخوذة بعين الاعتبار ، وتذكر الاحصاءات أن مدينة باريس تشغل مثلا ١٤٠ كم٢ ، ولندن ٣٠٧ وبرلين ٨٩٠ ولوس آنجلوس ١١٦٥ كم٢ ، ولكن هذه الارقام تعين في واقع الامر حدود بلديات هذه المدن ولا تعطى فكرة دقيقة عن المساحة التي تشغلها الابنية والمنشآت البلدية أو المدنية ، ولكي ندرك حقيقة مدلول هذه الارقام يكفي أن نذكر مثلا ان مدينة فينا بها من المساحات الخالية من الأبنية مايزيد عن مثيلاتها في باريس بسبع وعشرين مرة . وعلى هذا يبدو من الضروري ادخال بعض التعديل على تلك

الارقام كأن نأخذ نسبة السكان الى المساحة اي كثافة السكان . وعندها نرى أن الكثافة في باريس تبلغ ٣٢٥ شخصاً في الهكتار و ١٣٠ في لندن ٨٠ فقط في مدينة فينا . إن ارقام الكثافة هذه لاتخلو من عيوب لانها معدلات وسطية مجردة يستحسن استبدالها بما يسمى بكثافة السكنى أي بعدد الاشخاص الذين يسكنون في المنزل الواحد لقد كانت كثافة السكن في باريس ٣٥ شخصاً في المنزل و ٨ في لندن . ان الكثافة السكنية توضح بشكل أدق ظاهرة التكاثف البشري في المدن ولكنها مع ذلك لاتنطبق الاعلى نواة المدينة.

٢ ــ مخطط المدن :

يعني المخطط التنظيمي الذي يتم في مجال المدينة أي في المساحة التي تشغلها من الارض . وهذا التنظيم يمكن ان يكون متلاءماً مع موضعها فمخطط مدينة موجودة في أعلى أكمة لابد وان يختلف عن مدينة تقع في بطن واد أو داخل كوع نهري .

هذا وليس مخطط المدن حصيلة الشروط الجغرافية لوحدها ، بل ان الانسان يمكن ان يضع مخططاتها سلفاً وقبل بناء المدينة ، ومثل هذه المخططات تكون هندسية في أغلب الاحيان ؛ على شكل رقعة الشطرنج (ذات شوارع متعامدة) أو على شكل شعاعي ، شوارع مستقيمة تنبعث من مركز المدينة وتقطع شوارع أخرى دائروية لها نفس المركز .

غير أن مخطط المدينة كثيراً مايضم عناصر مختلفة ومتباينة . فقد توجد أحياء ذات شوارع ضيقة ومتعرجة الى جوانب شوارع أخرى واسعة ومنتظمة

وتنحصر الشوارع الضيقة عادة في نواة المدينة الأصلية .

تبدأ المدينة بالاتساع ابتداءً من نواتها الأصلية وعلى طول الطرق التي تنبعث منها الى مختلف الجهات فتتكون على هذا النحو أولى ضواحي المدينة، ثم لاتلبث الفراغات الموجودة بين الطرق أن تمتليء تدريجياً بحيث يغدو مخطط المدينة شبكة تشبه شبكة العنكبوت وتدل الشوارع الدائروية الرئيسية الموجودة في بعض المدن الكبرى كمدينة فينا على مختلف مراحل توسع المدينة.

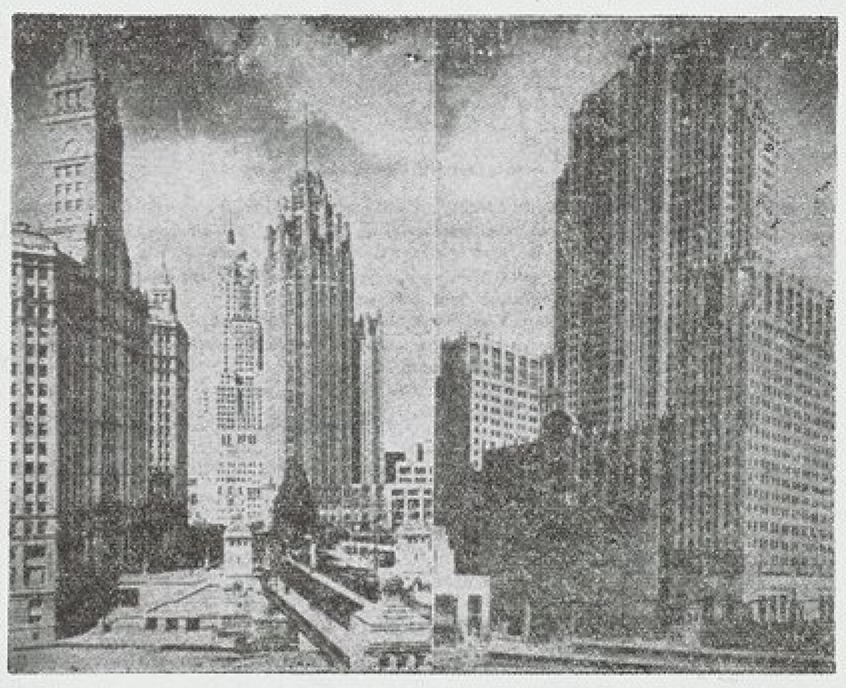
لاتتوسع المدينة دائماً بصورة عفوية ، بل ان هذا التوسع يخضع لتنظيم الانسان الذي يدخل على المخطط تعديلات مستمرة كفتح الشوارع الواسعة والساحات والحدائق .. الخ وهنالك فن خاص يتعلق بالتغييرات والتنظيمات التي تدخل على مخططات المدن ويطلق عليه اسم فن أو علم تنظيم المدن Urbanisme .

هذا وتعتبر مخططات المدن وما يصيبها من تغيرات وتعديلات من أقوى الدلائل على حيوية المدن وفعاليتها ، ويعتبر مظهرها الخارجي دليلاً آخر على فعاليتها وحيويتها .

٣ - مظهر المدينة: Laspect d'une ville

لكي نعرف حقيقة المظهر الخارجي للمدينة علينا أن ندرس مخطط مدينة امريكية كبرى كمدينة شيكاغو : انها محاطة بأحواض السفن والمعامل وهي مستودع ومركز للاعمال بقدر ماهي مدينة سكنية ، طرقها مستقيمة وابنيتها الشاهقة تعلو فوق الكنائس والمعابد والمتاحف . لقد بناها اشخاص لم يكونوا

يطيقون الصبر وكان دأبهم الحصول على المال والغنى لذلك ساهم المهندسون في بنائها بقدر ماساهم المعماريون وهي الآن في تطور دائم بغية تأمين الربح والراحة .



شكل - (٤٩)
صورتان متجاورتان تظهر فيهما أبنية شيكاغو العالية (ناطحات السحاب) وشوارع المدينة

قد يخلو مركز المدينة من كل فن وجمال اما ضواحيها فلا تخلو من الأناقة التي تتصف بها المدن الاميركية المتوسطة الحجم اذ نجد فيها شوارع واسعة تظللها الاشجار وفيلات تتوفر فيها كل شروط الراحة . إن الناحية العملية هي البارزة في المدن الاميركية ولكن الظروف اذا كانت مناسبة فانها لاتخلو من الجمال كما هي الحال في سان فرانسيسكو وكلفيلاند ودويترويت .

تختلف مظاهر المدن في أوروبا الغربية عن مظاهر المدن الاميركية ،

في اوروبا يطبع الزمان بصمته على مختلف الاجزاء التي بنيت في مراحل مختلفة فالماضي ماثل فيها أبداً والفنادق والكنائس شواهد فنية على ذلك . وتتضاءل الأحياء الموجودة في وسط المدينة ذات الشوارع الضيقة أمام نمو الأحياء التجارية والصناعية التي تحيط بها وامام الضواحي التي تمتد وتتسع من غير تنظيم دقيق .

وهناك مظهر آخر لنوع ثالث من المدن هي مدن المستعمرات كبرازافيل والرباط ، وتتوسع هذه المدن بدون أي تحديد فتتناثر الفيلات على أطرافها وداخل الخضرة بصورة دائمة لذلك لا تتكون فيها نواة مركزية أو مركز للثقل.

ليس مظهر المدينة في الواقع سوى هذه النظرة الاجمالية التي تسمح لنا برؤية المدينة كلها دفعة واحدة وهذه النظرة توضح ترتيب مختلف أجزاء المدينة والعلاقات المتبادلة بين هذه الأجزاء ، إنها توضح في الواقع العلاقات الكائنة بين المساحات المبنية والمساحات الخالية من جهة وتنوع الأحياء من جهة أخرى .

تؤلف المساحة المبنية عادة جزءاً صغيرة من المنازل كما تشمل المستودعات والمخازن والمعامل ... الخ اما المساحات الخالية فتتمثل في الشوارع والأزقة والحدائق والملاعب وهي تساعد على التنقل والمواصلات كما تساعد على التشمس .

بالاضافه الى تلك العلاقات الموجودة بين القطاعات المبنية والقطاعات الخالية يساعد تنوع الأحياء على تمييز المدينة، ان تصنيف الأحياء الى تجارية وصناعية وادارية وسكنية هو تصنيف قديم . غير أن تخصص الأحياء عاد

للظهور من جديد ، فهنالك أحياء الأعمال ذات الأبنيـة الضخمة التي تضم المكاتب والمصارف ، وتخلو هذه الأحياء تقريباً من السكان ليلا بينما تعج بهم أثناء ساعات النهار . وهنالك الأحياء الصنـاعية التي تتشـح بالسواد والدخان ويكثر فيها الضجيج ويعج فيها العمال في ساعات بدء العمل وعند خروج العمال من المصانع . ثم هنالك أخيراً أحياء الضواحي التي تنتشر فيهـا المنازل الصغيرة المخصصة للسكن .

٣ — وظائف المدن :

لا تصبح مجموعة من المنازل والمنشآت البشرية مدينة إلا بقدر ما يتعاطى ساكنوها مهناً وفعاليات معينة تختلف اختلافاً واضحاً عن مهن وفعاليـات أهل الريف . إن الوظيفة هي التي تفرض على مجموعة المساكن مظهر المدينـة وهي التي تكون سبب بقائها وتطورها ، لذلك تشكل دراسة وظائف المدن أهم جزء من جغرافيتها .

إن الوظائف التي تؤلف سبباً وداعياً لنشوء المدن عديدة وسندرس فيما يلي أهمها :

— الوظيفة العسكرية : القلاع ، المرافىء الحربية الخ .

— الوظيفة التجارية : المدن الأسواق ، والمرافىء البحرية التجارية الخ .

— الوظيفة الصناعية : مدن المناجم ومدن المصانع .

— الوظيفة العلاجية ووظائف الاصطياف والسياحة والتسلية والرياضة الخ.

— الوظيفة الفكرية والروحية ... المدن الجامعية ومدن الحج .

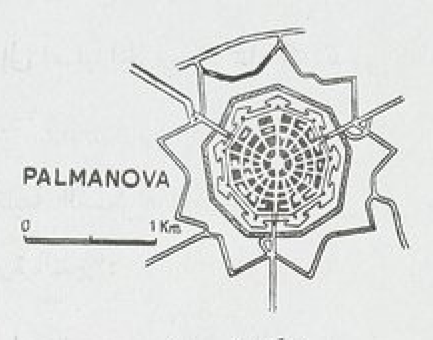
— الوظيفة الادارية وتظهر بشكل خاص في العواصم .

هذا ومن الجدير بالذكر أن هذه الوظائف ليست ثابتة بل إنها في تطور دائم وقد يحل بعضها محل البعض الآخر بل أن عدداً منها قد يجتمع في مدينة واحدة كبيرة .

الوظيفة العسكرية :

١ — مدن القلاع :

اضطرت كثير من مدن العالم في فترة من فترات حياتها الى إحاطة نفسها بالأسوار بغية الدفاع ولكن مثل هذا الاجراء لم يجعل منها مدن قلاع كما لم تخلق تدابير الدفاع المدني المتخذة حالياً في المدن ضد الغارات الجوية مدناً ذات صفة عسكرية . (الشكل — ٥٠)



شكل (٥٠)

مخطط لمدينة محصنة أنشئت بالاصل لغاية الدفاع

غير أن مدناً كثيرة بنيت في الأصل لغايات عسكرية وخاصة تلك التي

نشأت خلال العصور المضطربة . تقسم هذه المدن الى فئتين ، الفئة الأولى انشئت لكي يلتجيء اليها السكان في حالات الحرب لا سيما عند حدوث هجوم من قبل العدو . أما الفئة الثانية فقد بنيت من أجل السيطرة وإخضاع السكان في المناطق المجاورة وكان الرومان قد بنوا كثيراً من هذه المراكز التي تحولت فيما بعد إلى مدن حقيقية مثل ناربون Narbonne وآرل Arles وبزانسون Besançon .. الخ كذلك فعل الروس أثناء استعمارهم لسيبريا فشيدوا القلاع عند مخاضات الأنهار والأماكن التي كان يتخذها القوزاق مراكز استناد .

لقد لعبت شروط الدفاع المناسبة التي تقدمها الطبيعة دوراً كبيراً في انتقاء مواضع هذه المدن ، فاقيمت على المرتفعات المنعزلة أو المخاريط البركانية أو داخل الأكواع النهرية ... الخ إلا أن ضرورات الدفاع في وقتنا هذا لم تعد تأخذ بعين الاعتبار مثل هذه المواضع البسيطة لأنها تؤلف هدفاً سهلا للاسحلة الحديثة . ورغم أن كثيراً من المدن قد فقدت قيمتها الحربية فانها لا تزال تحتفظ بأسماء تشير إلى أصلها الحربي كالأسماء التي تنتهي بالمقاطع التالية :

chàtillon, ferté, garde, burg, castle.

لا شك ان الوظيفة العسكرية أو الحربية تتعلق قبل كل شيء بالشروط السياسية وهذه كثيرة التغير :

لذلك فان التغييرات التي تصيب الأوضاع السياسية والعسكرية تقضي على هذه القلاع إن لم تنشأ فيها أو حولها وظائف أخرى ، جديرة بالبقاء والحياة .

٢ - الموانيء الحربية

« الموانيء الحربية هي قواعد الأساطيل ، وهذه القواعد تختار على أسس ستراتيجية صرفه ، فينبغي ان تكون هذه القاعدة ضمن خليج أمين حصين يمكن أن يأوي إليه جزء كبير من الأسطول أو الأسطول بأكمله ، ومايلحق به من أحواض جافة ومصانع حربية ، كما ينبغي أن يكون متصلا بشبكة من خطوط المواصلات السهلة تربط القاعدة البحرية بداخل القطر . أما الموقع الستراتيجي للمياه فهو يتوقف على الغرض الدفاعي أو الهجومي الذي من أجله انشئت القاعدة ، فقدتغيرت مثلا قواعد الأسطول البريطاني في الجزر البريطانية تبعاً للظروف السياسية التى أحاطت بتاريخها فقد كانت في الجنوب والجنوب الشرقي إبان الحروب الانكليزية الهولاندية ثم انتقلت إلى جزر أوركني وشمال اسكتلندة مع نمو القوة البحرية الألمانية في القرن التاسع عشر »

إن الموانيء الحربية تشبه إلى حد كبير مدن القلاع التي تبنى داخل القارات ، فهي تبنى من أجل السيطرة على بلاد معينة فميناء الجزائر لعب دوراً عسكرياً خلال منتصف القرن التاسع عشر ولعبت الدار البيضاء وبنزرت نفس الدور في بداية القرن العشرين.

وقد قامت الموانيء الحربية في النقاط التي تمر منها الطرق البحرية التجارية الكبرى . وتكون هذه الموانيء في كثير من الأحيان بمثابة بذور لمدن المستقبل . تتحول هذه المرافيء بسرعة هامة لما تحتاج إليه من أحواض لاصلاح السفن وترسانات ومخازن وأحواض لبناء السفن... وتجذب هذه الملحقات

اعداداً ضخمة من العمال فتبنى المنازل وتقام الأسواق التجارية وقد يتحول الميناء الحربي إلى ميناء تجاري .

وهكذا فالوظيفة العسكرية قد تؤدي إلى ظهور مدن داخلية أو ساحلية . يتجمع الأشخاص عادة ويتعايشون لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، ولكن عندما تتغير الحدود السياسية أو يزول خطر الحروب تجد المدينة لنفسها أسباباً تمكنها من البقاء والاستمرار وتمارس وظائف تنضم إلى وظيفتها العسكرية أو تحل محلها .

الوظيفة التجاريه

كانت التجارة دوماً من أهم الوظائف التي تمارسها المدن ، وقد دعت شدة ارتباط التجارة بالمدينة بعض المؤلفين أمثال H. Wagner إلى القول بأن المدن هي النقاط التي تتمركز فيها التجارة . وتكاد المدن التجارية تبلغ في قدمها مبلغ المدن الحربية ولكن بينما قضى تقدم الفنون العسكرية على أهمية القلاع والحصون فان الاسواق التي قامت إلى جانبها أو في داخلها نمت وتوسعت وحولت المدن الحربية إلى مدن تجارية كثيرة الأهمية والتنوع .

إن الوظيفة التجارية للمدن المعاصرة تبدو على شكل حركة من المبادلات المستمرة ، وهذا الاستمرار في التبادل هو الذي يميزها عن القرى التي تتصف تجارتها بالدورية Périodique . ولقد أصبح التخزين الشكل الجديد لتجارة

---

١ - الدكتور محمد السيد غلاب - البيئة والمجتمع - الطبعة الثانية ص/ ٣٥٠/

المدن ، إذ تخزن البضائع المصنوعة في مستودعات ومخازن كبيرة تسهل البيع والتصدير .

والوظيفة التجارية هي التي تفسر أيضاً بعض المظاهر الخاصة ، ففي المدن الأميركية مثلا نجد لوحات الدعاية المضيئة التي تضفي على المدينة رونقاً سحرياً خلال الليل . كذلك تفسر الوظيفة التجارية أيضاً مانجده من أبنية خاصة تتمثل في المخازن العامة ومستودعات محطات نقل البضائع .

هذا ويمكن تقسيم المدن التجارية إلى ثلاث زمر : الاسواق المحلية ، ومدن التجارة البعيدة المدى والمراكز الكبرى للتجارة ، وسندرسها على التوالي :

١ - الاسواق المحليه

يبدو أن الأسواق المحلية كانت دوماً ضرورة اجتماعية وقد وجدت حتى عند الشعوب البدائية . وقد سكن الناس بالقرب من هذه الأسواق ليمتهنوا التبادل التجاري .

وكانت هذه الأسواق المحليه في بدايه أمرها موقتة ودورية تنعقد في اوقات معينة غير أن هذه المدن مالبثت أن نمت وتطورت وبلغت أوجها في اوروبا خلال القرن التاسع عشر وقد ساعدها في ذلك تحسن شبكات الطرق المحلية والاقليمية .

غير أن تحسن وسائل النقل وازدياد سرعتها أضر بالمدن الصغيرة لانه ساعد على توسيع مدى تأثير المدن التجارية الكبرى .

٢ - مدن التجارة البعيدة المدى

تبدو التجارة البعيدة المدى سهلة أمام أعيننا نحن الذين اعتدنا على استهلاك قهوة مستوردة من البرازيل وشاي من سيلان و بضائع من مختلف بقاع الدنيا. غير ان هذه التجارة كانت صعبة جداً فيما مضى بسبب عدم توفر وسائل وطرق النقل المناسبة ، ومع ذلك فقد ظهرت هذه التجارة منذ زمن بعيد جداً وقد قطع التجار مسافات بعيدة بحثاً عن التوابل والحرير و الاحجار الكريمة النادرة . وتقسم مدن التجارة البعيدة المدى إلى مرافيء بحرية ومدن قارية .

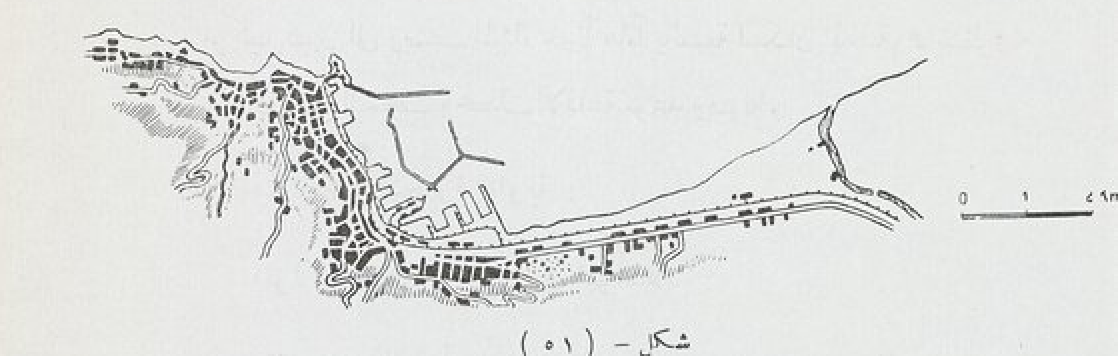
أ - الموانيء البحريه :

تعتبر الموانيء البحرية من أقدم المدن التي مارست التجارة البعيدة لأن البحر طريق صالحة للملاحة لمختلف الجهات، وفي العصور القديمة كانت معظم المدن التجارية في حوض البحر الابيض موانيء بحرية .

ولكي يقوم ميناء بحري في مكان ما يجب أن تتوفر له شروط معينة :

— موقع حسن يساعد على اقامة علاقات بين ظهيره Hinterland والبلدان الاخرى ؛ فلكل ميناء ظهير (المنطقة التي تقع خلف الميناء) يخدمه ويصرف منتجاته ويتقبل البضائع من الخارج لتوزيعها على مختلف أقسامه . وقد تتعدى أهمية بعض الموانىء الاقطار التي تقع فيها وتمد نفوذها الى ماوراء حدودها مثل هامبورغ التي كانت تورد و تصدر بضائع المانيا وتشكوسلوفاكيا. و كانت بيروت الى وقت قريب مرفأ للبنان وسورية بل وللعراق والاردن أيضاً.

وللشروط السياسية دورها في حياة الموانىء والاضطرابات التي أصابت ميناء تريستا بنتيجة الحوادث السياسية أمر معروف ، ولقد كان الاستقرار السياسي



شكل - (٥١)

العامل الأساسي الذي ساعد على ازدهار مرفأ شانغهاي .

ولقد لعبت الشروط الطبيعية دوراً هاماً في حياة الموانىء فقد كانت الرياح وقلة عمق الشاطىء والجبال الرملية وتجلد المياه تخلق مشاكل صعبة غير أن التقدم العلمي والفني قد ذلل مثل هذه الصعاب ، فالمرفأ اليوم هو من عمل الانسان قبل ان يكون من عمل الطبيعة .

هذا وتتطلب الموانىء تجهيزات خاصة من أجل تحميل البضائع وتنزيلها، وهنالك اتجاه لتخصص الميناء بتجارة مادة معينة ، فكارديف هو ميناء للفحم، وهنالك مرافىء للبترول وللأرز والصويا ... الخ

ويمتد الميناء مع ملحقاته المختلفة نحو المدينة ، فالحياة التجارية التي نشأت على أرصفة الميناء لاتلبث أن تمتد الى مكاتب المدينة ومستودعات التصدير والشركات المالية فتغذي الصناعة وتخلق المحاكم وتجذب القنصليات الاجنبية

(كان في هامبورغ في وقت ما اكثر من ٢٠٠ قنصلية) . وهكذا ترتبط حياة المدينة بالميناء وتعيش منه . ويدرك سكان المدينة بأن منارة الميناء التي تشع طوال الليل انما تعمل لتستقدم لهم البواخر حاملة الغنى والخير . ويعتبر وصول مركب كبير الى رصيف الميناء حدثاً هاماً بالنسبة لسكان المدينة وهم ينتظرونه بعد أن تعلن الصحف ومحطات الاذاعة موعد وصوله .

ب - مدن التجارة القارية :

المراكز التجارية على طرق المواصلات :

تؤلف مجاري المياه أسهل طرق المواصلات داخل القارات لذلك استخدمها الانسان منذ القديم ، لهذا تأسست مراكز تجارية قارية هامة على ضفاف الأنهار وفي الأمكنة التي تنتهي فيها الملاحة النهرية أو يتوجب فيها تغيير وسيلة النقل . وللموانىء النهرية مدن خاصة بها نشأت من حركة تجارة البضائع أو من ضرورات النقل .

غير أن الانهار الصالحة للملاحة قليلة بالنسبة لسعة القارات ، والسكك الحديدية حديثة العهد لذلك فان معظم المدن التجارية القارية انما كانت تعتمد على طرق المواصلات البرية ، فعلى تخوم الصحراء تقوم مدن تجارة القوافل ونشأة مدينة تدمر وازدهارها مثلا لم يكن سوى نتيجة مرور طرق تجارة القوافل بها .

وكانت القوافل التي تسير على الطرق البرية تحتاج للاستراحة والتوقف في مراحل معينة ومن هنا نشأت مدن المراحل ، وكانوا يختارون مواقع هذه المدن

عادة بالقرب من الممرات الصعبة حيث كانوا يستريحون وحيواناتهم قبل محاولة اجتياز تلك الممرات .

ولم يقتصر دور طرق المواصلات البرية على خلق مدن المراحل فحسب، بل إنها خلقت مدناً هامة عند تقاطع الطرق الرئيسية في سفوح الجبال أو السهول الكبرى .

مدن المحطات :

اضطرت السكة الحديدية ، وهي حديثة العهد ، الى التلاؤم مع الأوضاع التي كانت موجودة عند ظهورها ، وعلى هذا فقد اقتصر دورها غالباً على ادخال بعض التعديلات على المدن . ومع ذلك فان السكك الحديدية خلقت مدناً عديدة ، فالنقل بواسطة الخط الحديدي يحتاج الى أماكن لتبديل القاطرات او تزويدها بالوقود ، ولتصنيف البضائع المعدة للنقل وهذه الأماكن لاتلبث أن تصبح مدناً فيما بعد . ولكن يجب أن نتنبه الى أن الذي يخلق المدينة فعلاً ليست هي سكة الحديد بل التجارة التي تستخدم هذه السكة . لقد كانت السكك الحديدية وسيلة التوغل والاعمار في البلاد الجديدة وقد ساعدت بالتالي على نمو المدن ، وعلى هذا فقد وصفت الحضارة الأمريكية بانها حضارة السكة الحديدية. إن المحطة في هذه البلاد لا تلعب دور سوق للتبادل الدوري بل انها أساس كل الاقتصادي الاقليمي .

أما في البلاد الأوروبية ذات الحضارات القديمة فان محطات القطارات قد نشأت قرب المدن واقتصر دورها على ادخال بعض التعديلات عليها وخاصة

على المدن الصغيرة ؛ إن ديجون مثلا كانت مدينة صغيرة لا يسكنها أكثر من ٢١ الف نسمة في بداية القرن العشرين فارتفع عدد سكانها الى ٩٦ الف نسمة عام ١٩٣٦ وكانت قد اختيرت لتكون محطة كبرى ومركزاً تتقاطع فيه الخطوط الحديدية .

٣ – المراكز الكبرى للتجارة :

وهكذا فان الوظيفة التجارية أوجدت مدناً متنوعة تختلف عن بعضها حياة ومظهراً تبعاً لوسائل النقل التي تستخدمها التجارة فالموانىء التجارية تختلف عن مدن المحطات والموانىء النهرية لا تشبه المدن التي تنشأ على مفارق الطرق .

هذا وتحاول المدن التجارية الكبرى أن يكون لديها وسائل للنقل متنوعة فمدينة آنفوس التي تستقبل كل عام حوالي ٢٠ مليون طن من حمولات السفن تستخدم الملاحة النهرية على نهر الايسكو المرتبط بنهر الموز عن طريق قناة « البير »، كما تستخدم خطوطاً حديدية كثيرة تسير لمختلف الانجاهات . إن المراكز التجارية الكبرى لا تكاد تجد لنفسها مكاناً ضمن تصنيف وظائف المدن الذي ذكرناه آنفاً ، إنها أشبه ما تكون بمستودعات كبيرة تأتي اليها وتتراكم فيها البضائع القادمة من كافة أنحاء العالم . وفي تلك المستودعات تصنف البضائع وتراقب وتصان ، ولكي يسهل تخزين هذه البضائع وتوزيعها كثيراً ما تكون الصناعة التحويلية الأولية ضرورية: كتنقية الكاوتشوك من شوائبه وقشر كل من الرز وفستق العبيد.. وتجفيف الكاكاو .. الخ

غير أن هذه المراكز التجارية الكبرى ليست مجرد مستودعات ومخازن بل انها مراكز كبرى للاعمال التجارية ولذلك فانها تمتاز بوجود المكاتب التجارية الكبرى والمصارف الهامة ؛ لقد كان انشاء بنك انكلترة عام ١٦٢٤ حدثاً بالنسبة لساحة لندن ، وقد بقيت لندن بعد ذلك مدة طويلة مدينة نقدية ذات اسعار رخيصة . ووجود المصرف التجاري يعمل على استقطاب مكاتب الاعمال بل والبضائع . وكثيراً ما تجذب الاعمال التجارية الصناعة لتوفر المواد الاولية وسوق الاستهلاك معاً ، فان منطقة الفلاندر مثلاً لم تصبح مركزاً صناعياً في العصور الوسطى الا بفضل موقعها التجاري . هذا وتختلط الفعالية التجارية بالفعالية الصناعية في هذه المراكز الكبرى بحيث يصبح من الصعب الجزم فيما اذا كان يجب تصنيفها مع المدن التجارية أم مع المدن الصناعية ٠

الوظيفة الصناعية

ليست الصناعة خاصة بالمدن كالتجارة ، فكثير من المصنوعات كانت ولا تزال تصنع في الريف خاصة في الشرق الاقصى ، بل ان الصناعة الحديثة كثيراً ماتبحث عن اليد العاملة الرخيصة في الريف . غير أن العمل الصناعي الحديث بدأ يميل منذ وقت غير قريب الى التمركز والتكاثف ويدفعه الى ذلك التقدم التكنيكي ولهذا فقد أصبحت الصناعة تدريجياً واقعاً يخص المدن ، بل ان صناعات معينة ، كالصناعة الحديدية مثلا ، لايمكنها أن تنشأ بعيدة عن المدينة بل انها هي التي تخلق المدن في كل مكان تنشأ فيه .

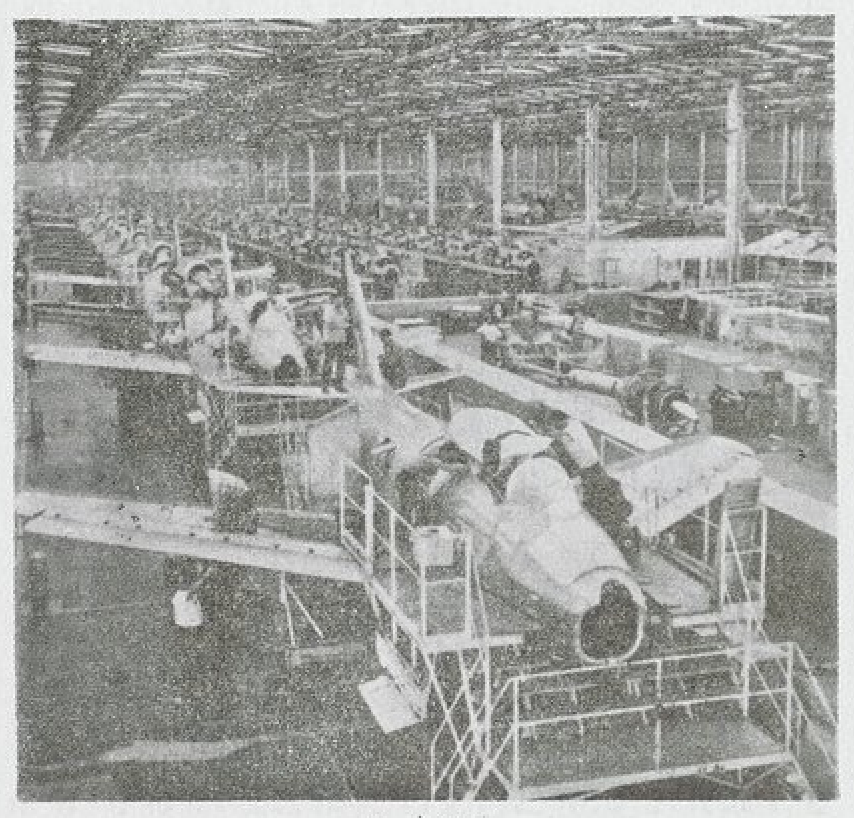
وللمدن الصناعية أنواع منها مدن المناجم وهي المدن التي تختص باستخراج نوع معين من الفلزات أو باستخراج الفحم الحجري . وتشكل مدن المناجم وسطاً مغلقاً جداً والحياة العائلية فيها تدور كلها حول المنجم فالابن ينزل الى المنجم مع أبيه منذ سن الرابعة عشرة من عمره وكانت الأم تعمل فيه أيضاً قبل صدور القوانين الخاصة التي قصرت عملها على سطح الارض ، وعلى هؤلاء العمال تقوم الحضارة المعاصرة وهم بالحقيقة سادتها وضحاياها .



الشكل - (٥٢)
نموذج لمساكن عمال المناجم يلاحظ ان الدور بنيت جميعها على نمط واحد

هنالك أيضاً مدن المصانع والمعامل - والانسان حر في اختيار المواقع التي يؤسس فيها صناعاته التحويلية ، وقد تلعب الصدفة دوراً في اختيار مواقع مدن الصناعة التحويلية ومع ذلك فلهذه المدن شروط معينة تبرر هذا الاختيار . تبحث المراكز الصناعية عادة عن أماكن تتوفر فيها المواد

الأولية وموارد الطاقة ، والماء واليد العاملة ورؤوس الأموال وأسواق الاستهلاك وطرق المواصلات . الشكل (٥٣) .



الشكل (٥٣)
معمل لصنع وتركيب الطائرات . يجري العمل في هذا المعمل على الطريقة الاميركية

ومن المعروف ان الصناعة تستدعي الصناعة ، وتجاور صناعات مختلفة يفيدها جميعاً اذ أنها تتعاون في تأمين المواد الأولية والوقود والرساميل بل والعمال بأجور رخيصة .

فالمدينة اذن وسط صناعي ولكن القاعدة التي تستند اليه هو التنظيم

الاقتصادي . وليس من الضروري أن تبقى المعامل والمصانع دوماً داخل المدينة قد تنتقل كلها الى الضواحي ومع ذلك فان المدينة تبقى مركزاً للتنظيم الصناعي وهذا مايطلق عليه اسم المدينة ـ المكتب ville - burean تتفرق الصناعات وتتبعثر خارج المدينة ، ولكن المدينة تبقى مركزاً لها ويكون لكل مؤسسة صناعية مكتب لادارة الأعمال ومكاتب للاعمال التجارية ومن الأمثلة عن مدن المكاتب ليون في فرنسا ومانشيستر في انكلترة وإسن في حوض الرور في المانيا .

إن التجارة هي التي تستدعي الصناعة غالباً الى المدن ، لأنها هي التي تؤمن الوقود ورؤوس الأموال واليد العاملة والمواد الأولية كما تضمن بيع وتصريف المواد المصنوعة ، وعلى هذا فالصناعة والتجارة تشكلان داخل المدن حال تعايش حقيقي .

الوظيفة الروحية :

كان الناس ولا يزالوا يجتمعون ليقوموا بالعبادات بصورة جماعية وليتبادلوا المعرفة . ففي البرازيل توجد مدن موقتة تعرف باسم « مدن يوم الاحد » . ففي يوم الأحد يجتمع السكان المبعثرون في منطقة واسعة ليقوموا بصلوات مشتركة ويبني كل واحد منهم منزلا ومجموعة هذه المنازل تشكل فيما بعد مدينة حقيقية .

لقد دفعت المشاغل الروحية والفكرية بني البشر الى بناء مدن ذات طابع خاص كالمدن الدينية والمدن الجامعية .

١ ـ المدن الدينية :

هنالك مدن تخصص كل فعالياتها للحياة الدينية ، وكثيراً ماكانت الأديرة سبباً في قيام المدن ففي التيبت مثلا تكون المدينة مجموعة من الأديرة التي يسكنها الرهبان ، أما الرجال العاديون الذين لايكرسون حياتهم للعبادات فيسكنون في الضواحي .

ومن أهم المدن الدينية تلك التي يقصدها الحجاج ، ان الأماكن التي يتوافد اليها الاتقياء والمتعبدون لاتلبث أن تتحول الى مدينة ذات طبيعة خاصة وتجدر الاشارة هنا الى أن تمركز هذه المدن في أماكن معينة لايخضع لأي حتمية جغرافية . هذا وإن سهولة أو صعوبة الوصول الى هذه الأماكن المقدسة امر ثانوي بالنسبة الى الدوافع الروحية التي تدفع الناس لزيارتها . وهنالك نوع من الشبه بين مدن الحج والمدن السياحية لأن فعاليتها موقتة وتقتصر على موسم معين . غير أن هذه المدن الدينية المقدسة لاتكتفي أن تكون فندقاً ونزلا للقادمين ، بل انها تبيعهم ذكريات دينية مقدسة كما تؤمن لهم كل مايحتاجون اليه ومن هنا تكتسب المدينة صبغة تجارية . ومن المدن الدينية المشهورة في العالم بيت المقدس ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ولورد في فرنسا وروما وبينارس في الهند ولاهاسا في التيبت .

٢ ـ المدن الجامعية :

تشبه المدن الجامعية المدن الدينية الى حد ما ، في ميدان القيم الروحية

جاءت الدراسات الفكرية متممة للدراسات الدينية . ولا يزال لبعض الجامعات طابع المؤسسات الدينية كجامعة لوفان في بلجيكا مثلاً .

توجد الجامعات في المدن الكبرى عادة ، غير أنه لوحظ ان الجامعة تعاني مصاعب كبيرة في التوسع وفتح كليات جديدة فقد تبعثرت كليات جامعة باريس في كافة أنحاء الحي اللاتيني . لذلك وجد من المناسب أن نحصر الحياة الجامعية في مدن صغيرة تستطيع الجامعة ان تتوسع فيها بكل حرية . وقد سادت هذه الفكرة منذ زمن بعيد في بعض البلاد لذا نجد فيها مدناً تطغى عليها الوظيفة الجامعية . فمدن اكسفورد وكامبردج في انكلترا وهايدلبرغ ويينا Iéna في المانيا واوبسال في السويد وبرنستون في امريكا كلها مدينة بحياتها وشهرتها الى الجامعات الموجودة فيها .

الوظيفة العلاجية ووظائف الاصطياف والسياحة والرياضة والتسلية :

قد يبدو غريباً أن نجمع تحت عنوان واحد كل هذه المدن وهي ذات وظائف متباينة جداً كمدن الاستشفاء التي يقصدها المرضى ومدن الاصطياف التي يقصدها الناس للراحة والتسلية . ومع ذلك فان لكل هذه المدن صفة مشتركة هي أنها تؤوي أشخاصاً عاطلين لايقومون بأي عمل ولا يبقى هؤلاء الناس في هذه المدن الا فترة صغيرة ثم يمضون ليأتي غيرهم .

١ ـ مدن المياه :

لقد اعتقد الناس منذ القديم بفوائد بعض المياه فقصدوها منذ أقدم العصور وقد خلقت وفود الناس اليها مدنا حقيقية . وقد اشتهرت في أوروبا

منذ عصر الرومان مياه **إيكس ليبان** Aix - les bains والمياه المعدنية الحارةفي **إيكس لاشابل** Aix - la chapelle .

لكن هذه المدن التي تفيد مياهها في معالجة بعض الامراض كانت مقصورة على فئة صغيرة من الأغنياء ، وقد ساعد ظهور القطار الناس فيما بعدعلى ارتياد مثل هذه الأماكن باجور رخيصة . إن وجود نبع حار أو معدني لايكفي لخلق مدينة مياه بل يجب أن تكون طرق المواصلات متوفره وأن تكون بالقرب منها ضواحي ومتنزهات جميلة .

ولما كان روّاد هذه المدن من الاغنياء فانها تغص الفنادق الفخمة وتؤمن لهم كل وسائل اللهو والتسلية . والخدمات التي يجب تأمينها لهم تتطلب عدداً كبيراً من الأيدي العاملة . وأكبر صفة لهذه المدن هي أن فعاليتها موسمية لاتمتد على طول العام .

٢ - المدن المناخية :

ان الشروط المناخية التي تسود في بعض المدن تساعد على اجتذاب عدد كبير من الزوار ، وهذه المدن على أنواع .

مدن الاصطياف : وتكون عادة في المرتفعات الجبلية التي لاتشتد فيها الحرارة خلال فصل الصيف أو على سواحل البحر أو البحيرات.

مدن المشاتي : كذلك فان المدن التي يكون شتاؤها لطيفاً تجتذب اليها اغنياء البلاد الباردة . فسكان بلاد الشمال في أوروبا يقصدون سواحل البحر

المتوسط عادة لقضاء فصل الشتاء والتمتع باشعة الشمس الدافئة كما هي الحال في مدينة نيس مثلا .

مدن المصحات :

وهي مدن يتوفر فيها نور الشمس بسبب صفاء سمائها ويقصدها الناس لمعالجة بعض الأمراض كالسل مثلا. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأوا بمعالجة السل الرئوي والعظمي عن طريق الهواء النقي والشمس . وتبنى هذه المصحات عادة فوق الهضاب المرتفعة المحمية من الرياح والرطوبة . ولا يقصد هذه المدن سوى المعلولون الذين يأتونها للاستشفاء أما الأصحاء فيبتعدون عنها مخافة العدوى .

مدن المتقاعدين : هنالك مدن يقصدها المتقاعدون ليقضوا فيها بقية عمرهم في هدوء وراحة . انها تشبه مدن الاصطياف بكونها خالية من سكان عاملين ولكنها تختلف عنها بأن سكانها مستقرون فيها دوماً ولا يتجددون بين فترة وأخرى .

٣ ـ مدن السياحة :

لايعرف السياح الهدوء والاستقرار انما يتنقلون من مكان لآخر بصورة فردية أو بشكل جماعات صغيرة غير أن بعض الأماكن المشهورة بآثارها غدت مدناً صغيرة رغم بعدها كمدينة أسوان في مصر وتدمر في سورية .

وتعتبر السياحة الجبلية اكثر انواع السياحة انتشاراً . وهنالك سياحة صحراوية وقد استفادت من هذه السياحة بعض المدن الموجودة على تخوم الصحراء وقد ازدهرت بفضلها: كمدينتي غاردايا وطوغورت. ثم هنالك سياحة نحو

البقاع الشمالية وقد ازدهرت بفضلها مدينة كيرونا السويدية .

هنالك أيضاً المدن التاريخية يقصدها السياح لما فيها من آثار ولكنهم لايقيمون فيها طويلا . وتعتبر المدن الايطالية من أشهر المدن التاريخية .

الوظيفه الادارية - العواصم :

العاصمة مركز اداري وسياسي يؤدي خدمات متنوعة تتطلبها عادة ممارسة السلطة . والعاصمة عادة مدينة كبيرة ولكن العواصم تختلف مع ذلك من حيث المساحة وعدد السكان من قطر لآخر . فلندن عاصمة المملكة المتحدة يبلغ عدد سكانها حوالي ٨,٥ مليون نسمة ، بينما لايتجاوز عدد سكان عاصمة الجبل الاسود المسماة cittinjé ٦٠٠٠ نسمة فقط ولكنها مع ذلك تقوم بكل وظائف العواصم الادارية والسياسية . هذا ولا تبدأ الوظيفة الادارية صغيرة ثم تنمو تدريجياً كالوظيفة التجارية والصناعية . بل إن المجتمع السياسي هو الذي يعطي وظيفة الادارة والعاصمة ، وقد يعطيها لمدينة صغيرة فيخلق منها عاصمة كبيرة كما حدث في تركيا عندما نقلت العاصمة من استانبول الى انقرة وقد يبني المجتمع عاصمة جديدة كمدينة كانبرا في استراليا وبرازيليا في البرازيل .

ان اختيار موقع العاصمة امر مهم ، لأن الاخطاء التي قد تقع في هذا الاختيار لاتصلح بسهولة . وتراعى عادة عند انتقاء العاصمة بعض الشروط :

١ — ان تكون العاصمة في مركز البلاد قدر الامكان كمدريد وانقرة مثلا ولكن معظم بلاد العالم ليس لها شكل سطح مضلع تستطيع العاصمة ان تحتل

مركزه ، وتلعب الأودية التي تتحكم في طرق المواصلات الداخلية دوراً كبيراً في بعض البلدان كالنمسا التي تقع عاصمتها فيينا على نهر الدانوب، ويوغوسلافيا التي تقع عاصمتها بلغراد عند التقاء نهر الدانوب بنهر الساڤا .

٢ — وقد يقع الاختيار على مركز أغنى اقليم في البلاد . فباريس مثلا هي مركز حوض واسع وغني ومأهول في فرانسا وكذلك لندن بالنسبة لانكلترة .

٣ — وقد يؤخذ بعين الاعتبار الدور الذي لعبه اقليم ما في توحيد البلاد فيتخذ مركز ذلك الاقليم عاصمة لكل البلاد فمدينة برلين كانت عاصمة بروسيا التي تزعمت حركة الوحدة الألمانية كذلك أصبحت فيما بعد عاصمة الرايخ الالماني .

٤ — وقد يراعى عند اختيار العاصمة علاقات الدولة الخارجية مع غيرها من الدول ، فعندما تكون الدولة متجهة نحو الخارج بسبب شروطها الجغرافية نجد ان العاصمة تطل على ساحل البحر ، فقد كانت الاسكندرية عاصمة مصر في عهد البطالسة واستامبول عاصمة الأتراك في عهد العثمانيين . وتقع على البحر أيضاً عواصم المستعمرات لكي يسهل الاتصال بينها وبين الدول المستعمرة مثل مدينة الجزائر وداكار وسايغون . ونذكر هنا ان بطرس الاكبر كان قد نقل عاصمة ملكه الى سان بطرسبورغ (لينينغراد الحالية) عندما أراد ان يخرج روسيا من عزلتها وان يوجهها نحو أوروبا الغربية .

٥ — وقد يراعى ايضاً عند اختيار موقع العاصمة شروط الدفاع عنها ، فسقوط العاصمة في الحرب له أثر كبير في معنويات الشعب وقد يؤدي الى شلّ الجهاز الحكومي تماماً . ولذلك لا يستحسن أن تكون العاصمة قريبة جداً من

الحدود بحيث تتعرض للسقوط بسرعة بعد اعلان الحرب . وهذا مايفسر نقل العاصمة التركية من استنامبول الى انقرة .

٦ — وقد يؤخذ الماضي التاريخي بعين الاعتبار ، فليست كل مدينة جديرة بأن تكون عاصمة ، وقد تفضل المدن ذات الماضي التاريخي المجيد على المدن الاخرى ، ولذلك اختيرت المدن التاريخية لتكون عواصم الدول الحديثة التي قامت بعد الحرب العالمية الاولى مثل فارسوفيا عاصمة بولونيا وريغا عاصمة لاتافيا وهلسنكي عاصمة فنلندة . وقد كانت في ايطاليا مدن كبيرة يمكنها ان تكون عاصمة مثل تورينو وميلانو ونابولي ومع ذلك اختيرت روما لما لها من تاريخ مجيد .

هذا وتجدر الاشارة الى أن كل الاعتبارات السابقة لاتكفي لتفسير وتبرير مواقع كل العواصم في العالم ، فالعاصمة ليست في الواقع مجرد مركز اداري ، انها تعبر عن أعمق مافي حياة الدولة ، تعبر عن مبادئها في الادارة والسياسة والستراتيجية .

العاصمة هي مقر رئيس الدولة وهي بالتالي مقر المجالس النيابية والوزارات ومايتبعها من دوائر ملحقة وينجم عن ذلك أنها تكون مقراً لحياة راقية ويتركز فيها غالباً النشاط الأدبي والفني والعلمي . وتجتمع فيها عادة أحسن مافي البلاد من صناعات تنتج افخر المصنوعات .

ومن الامور المعروفة عن العواصم أن عدد السكان يزداد فيها بسرعة ملحوظة بحيث أنها تغدو مركزاً تجارياً هاماً وسوقاً كبيرة للاستهلاك تستورد حاصلات المناطق المجاورة . ولابد أخيراً من الاشارة الى وجود عواصم كبرى

تفوق سلطتها سلطة العواصم العادية ويمتد نفوذها خارج حدود الدولة الى مناطق اخرى : تلك هي عواصم الامبراطوريات . لقد كانت كل من مدريد ولشبونة عاصمة لامبراطورية واسعة ، ولاتزال امستردام وباريس عاصمتين لامبراطوريتين استعماريتين . واحسن مثل للعواصم الامبراطورية مدينة لندن التي يمكن اعتبارها عاصمة العواصم supercapitale لانها تشرف على اقطار عديدة مثل كندا وزيلندة الجديدة واستراليا وعدد كبير من المستعمرات.

٤ ـــ الخدمات العامة في المدن

يعيش داخل المدينة وعلى ساحة محدودة من الارض عدد كبير من السكان وتخلق ظروف الحياة فيها وسطاً خاصاً لا بد من التلاؤم معه . ويتصف الوسط الذي يعيش فيه أهل المدن بأنه غير صحي غالباً بسبب الأبنية المتقاربة التي تحجز عن بعضها أشعة الشمس وبسبب الجو المشحون بالغبار والدخان الذي يتصاعد من المنازل والمصانع والسيارات والقطارات ... ويتصف هذا الوسط ايضاً بالضيق النسبي وخاصة ضيق الشوارع التي تزدحم خلال ساعات النهار بالمارة والعربات والسيارات ... بحيث يصبح تنظيم حركة المواصلات أمراً ضرورياً.

هذا ولابد من تأمين المواد الغذائية المختلفة لسكان المدن وهم أناس لا يشتغلون في انتاج مثل هذه المواد ، كذلك لابد من التخلص من الاقذار والاوساخ والفضلات التي يتركها هذا العدد الضخم من الناس في كل يوم .

وعلى هذا فان السلطات في المدن تجد نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة ملحة ، ضرورة تأمين خدمات عامة تهدف الى تأمين حياة أفضل لهذه الفئة الكبيرة من المواطنين . وسندرس فيما يلي أهم هذه الخدمات العامة

١ – المواصلات داخل المدن :

تخضع حركة النقل والمواصلات داخل المدن لشروط خاصة يجب التغلب عليها ليتمكن المشاة ووسائل النقل المختلفة من الحركة بسرعة وإلى كافة الجهات ومن هنا كانت ضرورة وضع أنظمة السير وخلق شرطة خاصة للاشراف على تنفيذها .

ولكي ندرك أهمية حركة المواصلات والنقل في مدينة كبيرة كباريس نذكر أن طول خطوط المترو بها يبلغ ١٥٠ كم ، وطول خطوط الضواحي ٨٥٠ كم وطول خطوط سيارات النقل العامة ٢٠٠٠ كم ويبلغ عدد الذين يستخدمون سيارات شركة النقل داخل باريس مليارين من الأشخاص .

هذا وقد ساعد توفر وسائل النقل بين المدينة وضواحيها على تخفيف أزمة المساكن فيها لأن عدداً من الذين يعملون في المدينة يستطيعون السكن في الضواحي القريبة . ولكن المدينة تشعر بالازدحام وتصعب حركة المواصلات في ساعات بدء العمل أو انتهائه .

٢ – تموين المدينة بالمواد الغذائيه :

يعمل أهل القرية على انتاج معظم حاجياتهم وخاصة الغذائية منها ،ويمكن أن توصف سياسة الاقتصاد الريفي بأنها سياسة اكتفاء ذاتي . أما أهل المدن فلا يزرعون ولا يحصدون فاذا لم تأتهم المواد الغذائية من الخارج تعرضوا للجوع .

ولا يشعر سكان المدن بأهمية وصعوبة هذا التموين إلا عندما تنقطع الواردات

الآتية من الخارج ، واذا قلّ خطر الجوع الذي يهدد سكان المدن في الوقت الحاضر فان سكان المدن خلال العصور الوسطى عاشوا في خوف دائم من المجاعة .

إن صعوبات التموين ليست واحدة من أجل كل المدن ، فاذا كانت المدينة صغيرة ولم تتجاوز في نموها حدوداً معينة فان ضواحيها القريبة تستطيع أن تمدها بما تحتاج اليه من مواد غذائية . غير أن هذه الضواحي تعجز في كثير من الأحيان عن تأمين حاجات المدن وتضطر هذه الى استيراد حاجاتها من مناطق بعيدة وهنا تظهر مشكلة تأمين نقل وتوزيع هذه الحاجات وهما أمران صعبان خاصة من أجل المواد السريعة التلف كالخضار والفواكه والاسماك والالبان .

٣ — تأمين مياه الشرب :

إن تأمين المياه الضرورية للشرب ، ولمتطلبات الحياة اليومية الأخرى هو من أول الواجبات التي تتطلب جهداً مشتركاً من أهل المدن ، فالآبار الفردية لاتكفي لعدد من السكان يتزايد بصورة مستمرة ، أضف الى ذلك أن حاجة الانسان للماء تزداد أيضاً في المدن . وقد قدر أن ساكن المدينة يحتاج في اليوم الى ٥٠٠ لتر من الماء وسطياً ، ويدخل ضمن هذا المعدل مايصرف من الماء لرش الشوارع ولتأمين حاجة الصناعة .

إن تأمين مياه الشرب أصعب بكثير من تأمين الماء الضروري لبقية الاستعمالات الاخرى ، وذلك لأن مياه الشرب يجب أن تكون صافية ونقية

وتضطر مدينة باريس بالرغم من مرور نهر السين فيها الى جلب مياه الشرب من مسافة تبعد عنها ۱۷۳ كم كذلك تفعل مدينة دمشق اذ تجلب مياه الشرب من نبع عين الفيجة الذي يبعد حوالي ۲۲ كم عن المدينة .

ويجب أن تراقب مياه الشرب بصورة مستمرة ودقيقة ، ويجري فحصها كل ساعة مرة في بعض المدن ، والوسائل الحديثة لتصفية الماء جديرة بالثقة وتدعو للاطمئنان .

٤ - تأمين التدفئة والانارة :

كان تأمين الوقود الضروري للتدفئة والانارة واجباً يقع على عاتق الأفراد فكان كل فرد يشتري الزيت والشموع والحطب والفحم ... الضروري لاسرته غير أن وسائل جديدة للتدفئة والانارة في القرن التاسع عشر ظهرت للوجود ولكنها كانت تحتاج الى تنظيم جماعي .

كان غاز الاستصباح يستخدم في معظم المدن الأوروبية للاضاءة والتدفئة معاً ويمتاز هذا الغاز بأنه رخيص الثمن يعطي الحرارة والدفء مباشرة واستعماله سهل ولايحتاج الى أي جهد . لقد اقتصر استعمال هذا الغاز في الوقت الحاضر على التدفئة والاستعمالات المنزلية ولم يعد يستخدم للاضاءة .

وقد حل الكهرباء محل غاز الاستصباح في الاضاءة وشاع استعماله في كل المدن تقريباً ومن ميزاته أنه سهل النقل وله استعمالات كثيرة. ولكن التدفئة بواسطة الكهرباء والغاز تكلف غالياً لذلك بدأت المدن باستخدام « التدفئة المركزية » على نطاق الأحياء بدلا من أن يكون على نطاق البناء الواحد وتستعمل في توليد الطاقة الحرورية الضرورية للتبخير بحرق الفضلات والأوساخ. وتستخدم

هذه الطريقة في الولايات المتحدة وفي باريس .

٥ – تأمين النظافة والتخلص من الاوساخ والفضلات :

إن أبسط مبادىء المحافظة على صحة سكان المدن تفرض على السلطات البلدية التي تحرص على نظافة المدينة التخلص من المياه المستعملة الوسخة ومن كافة الفضلات والقمامة . ولذا عمدت هذه السلطات الى انشاء المجارير وجمع القمامة من الازقة والشوارع وتشكل هاتان العمليتان أول مرحلة من مراحل تنظيم المدن .

فلمدينة باريس شبكة من هذه المجارير يبلغ طولها ١٧٢٨ كم ويبلغ صبيبها اليومي ٤٩٣ مليون م٣ من المياه القذرة التي تصفى من محتوياتها الصلبة وتعقم ثم تصرف لسقاية ٥٠٠٠ هكتار من الاراضي التي يزداد خصبها ويرتفع مردودها من الخضار المختلفة .

أما القمامة والأوساخ فانها عادة تجمع من المنازل وقد بلغ وزن هذه الأوساخ التي تجمع يومياً في مدينة باريس ١٫١٠٠٫٠٠٠ طناً . ويوجد من هذه الفضلات ما يمكن أن يستفاد منه فتستخرج منها الخروق بواسطة آلات خاصة كما تستخرج المواد المعدنية بطريقة المغناطيسية الكهربائية ويحرق الباقي إما للحصول على الكهرباء أو على البخار . وترمي بعض المدن الساحلية بأوساخها في البحر بعيداً عن الساحل .

٦ - الخدمات الاخرى في المدن :

تحتاج المدن الى رجال الشرطة للمحافظة على الأمن فيها كما تحتاج الى مصلحة خاصة لمكافحة الحرائق . وهنالك ضرورة للمحافظه على صحة السكان لذلك تنشأ المشافي والمصحات ودور التوليد ... والمدينة بحاجة طبعاً الى عـدد من المدارس الابتدائية والثانوية الخ ...

...

الفصل الرابع عشر

النقل والمواصلات

اضطر الانسان منذ القديم للتنقل بحثاً عن الحاجات الضرورية لتأمين غذائه وكسائه كما وجد نفسه مضطراً لنقل مايعثر عليه من تلك الحاجات من أماكن وجودها الى حيث يسكن ويقيم . وكان الانسان يسلك دائماً نفس الطريق التي سلكها من سبقه من الناس حتى انطبعت آثار أقدام البشر على الأرض فظهرت المسالك والدروب في أماكن المرور . غير أن الانسان كان يتقدم تدريجياً في مضمار الحضارة وأخذت تزداد حاجاته من الناحيتين الكيفية والنوعية .

ومنذ ظهور الجماعات البشرية المنظمه على سطح الأرض كان لابد من إيجاد طرق معينة للمواصلات والنقل: أولا لتنقل الأشخاص الذين يعيشون في حركة دائمة ثانياً لنقل المواد المختلفة التي يحتاجون اليها من أماكن انتاجها الى أماكن صنعها واستهلاكها. وقد ازدادت أهمية طرق المواصلات كأثر من آثار الانسان المطبوعة المتنوعة على سطح الكرة عندما أخذ النقل شكل التبادل والتجارة . وسندرس فيما يلي طرق المواصلات كآثار بشرية أدخلها الانسان في البيئة

الطبيعية وكوسيلة من وسائل النقل والتبادل الاقتصادي بين الجماعات البشرية المختلفة.

لا تزال بعض شعوب الأرض تجهل طرق المواصلات ووسائل النقل فيعتمد أفرادها على نقل الأشياء محمولة على الرأس أو الظهر أو الأكتاف يسيرون بها على دروب بسيطة للغاية كما هي الحال في افريقية الوسطى والصين الجنوبية. إن الأوروبيين الذين يذهبون الى تلك المناطق يستخدمون الانسان في تنقلاتهم فيركبون نوعاً من الكراسي يحمله عدد من الأشخاص ويطلق على هذا الكرسي المحمول اسم فيلازان filazane في جزيرة مدغسكر وبلانكان planquin في الصين وتيبوي Tipoye في أفريقية الاستوائية.

ومنذ أن بدأ الانسان باستئناس الحيوان استخدمه في النقل، كأداة للتحميل حيناً وللجر حيناً آخر. غير أن استخدام العربة في النقل تطلب طرقاً أخرى تختلف عن الطرق التي يسلكها الحمالون أو قوافل الحيوانات.

وعندما استخدم البخار في القطارات والبواخر كان لا بد من مد السكك الحديدية وكان لا بد من ادخال تغييرات هامة على مجاري الانهار وعلى الموانىء البحرية حتى تصبح صالحة لتلك الوسائل الضخمة السريعة من وسائل النقل الحديث.

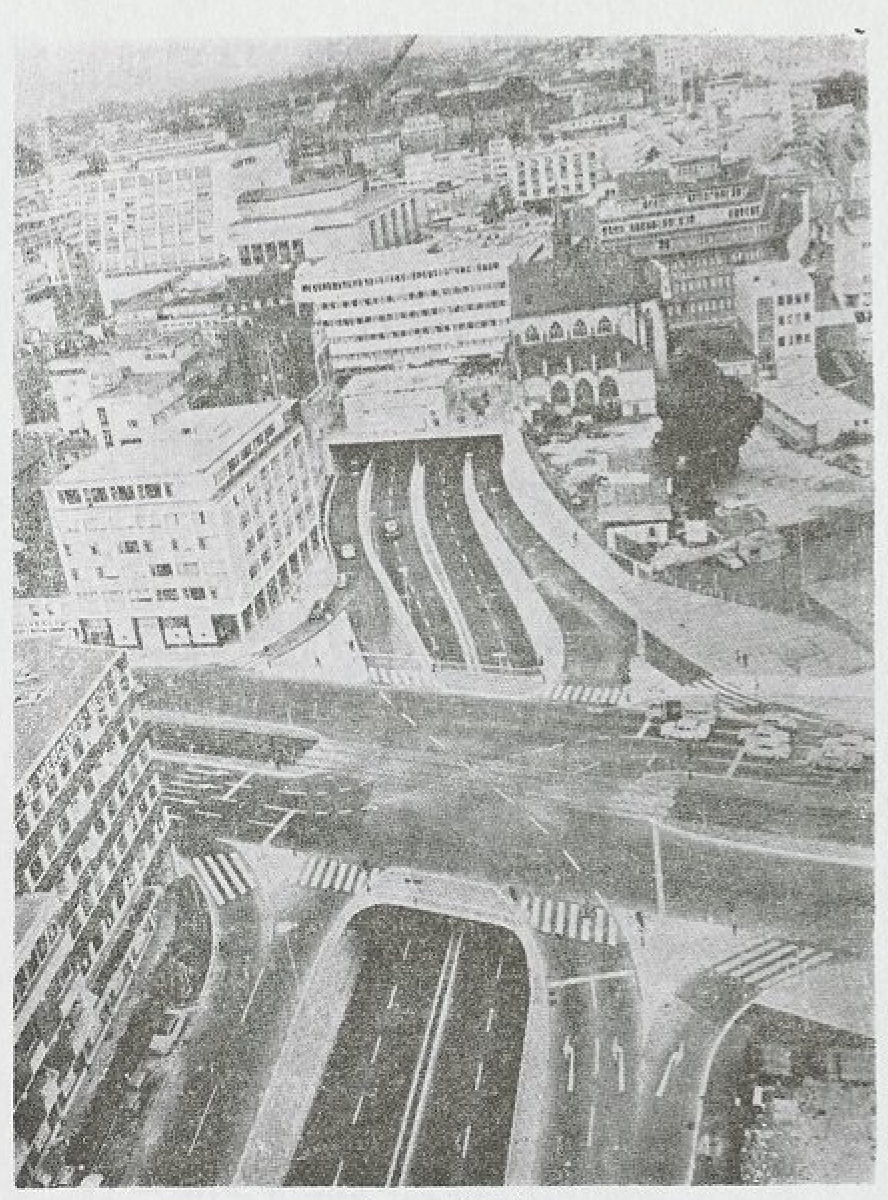
١ ــ الطرق

من أقدم الطرق التي بنتها الشعوب · طرق شعب الانكا في أمريكا، والطرق الصينية ثم الطرق الرومانية وكانت غاياتهم منها حربية وسياسية تهدف الى المحافظة على امبراطوريتهم.

كانت شبكة المواصلات الرومانية تتألف بشكل خاص من طرق مستقيمة تشع من كل مدينة من المدن الرئيسية مثل روما وليون وبوردو وكانت هذه الطرق متينة تتحمل مقاومة كبيرة في الأماكن التي تشتد فيها حركة المواصلات. وكان أساسها مبنياً من عدة طبقات من الأحجار وبينها ملاط جامع، ثم كان يكسى الأساس ببلاطات أو قطع ضخمة من الأحجار الكبيرة التي يجمع بينها نوع من الاسمنت. وقد هجرت هذه الطرق منذ عصور طويلة ومع ذلك لايزال كثير من آثارها باقياً حتى الآن وفي سورية أجزاء من هذه الطرق القديمة لم تزل باقية كما هي الحال في جبل الدروز.

وفي القرن الثامن عشر ابتدع الايكوسي ماك آدم Mac Adam طريقة جديدة في تعبيد الطرق عرفت باسمه، وتتلخص طريقته برصف الطريق بالأحجار ثم بالرمل ودحلها جميعاً بقوة ضاغطة كبيرة. وتمتاز الطرق الحديثة المكسوة بالاسفلت أو بالاسمنت بشدة مقاومتها لعوامل التخريب. وقد أصبحت الطرق التي تحيط بها الأشجار جزءاً من المظهر الطبيعي في كثير من مناطق العالم.

وتتعرض شبكة الطرق في العالم لتغييرات دائمة حتى تصبح صالحة لمتطلبات العصر فيزداد عرض الطريق وتخفف المنعطفات وتزال الحدبات ويتحاشى الطريق التقاطع مع السكة الحديدية قدر الامكان. وقد ظهرت طرق خاصة بالسيارات تعرف باسم Autoroute تمتاز بعرضها وباستقامتها، وبرصفها بطريقة خاصة وبحزف كل تقاطع في مستوى واحد وبابتعادها عن التجمعات البشرية، وفي ألمانيا وحدها حوالي ٣٠٠٠ كم من هذه الطرق التي تستطيع السيارات ان تسير عليها بسرعة كبيرة.



(الشكل - ٥٤)

يمثل الشكل نموذجاً من الطرق المرتفعة والمنخفضة في المانيـــا لتسهيل حركة المواصلات ولتفادي المرور على سوية واحدة

ولكي نأخذ فكرة عامة عن أهمية شبكة الطرق التي فتحها وعبدها الانسان مغيراً بها معالم سطح الأرض الطبيعية يكفي أن نذكر أن طول هذه الشبكة يبلغ ١٦ مليوناً من الكيلومترات. هذا وقد ازداد عدد السيارات بشكل غريب خلال الخمسين عاماً الأخيرة ، وتدلنا الارقام الاخيرة على الجهود التي بذلت في سبيل إنشاء شبكات الطرق في عدد من الدول الكبرى :

هذا وتملك الولايات المتحدة أطول شبكة طرق في العالم اذ تملك خمسة ملايين كم من الطرق ، ويأتي بعدها فرنسا (٦٥٠،٠٠٠كم) ثم ألمانيا (٤٢٥،٠٠٠كم) ثم روسيا (٢٥٠،٠٠٠ كم) . غير أن أهمية شبكة الطرق لا تقدر بطولها المطلق بل بنسبة طولها الى مساحة الدولة المعنية ، وهذه النسبة هي التي تبين كثافة الخطوط ووضوحها كجزء من المظهر الجغرافي لتلك الدولة . وتأتي فرانسا في الدرجة الاولى في العالم من حيث كثافة طرق المواصلات فيها اذ يعود لكل ١٠٠ كم٢ من ارضها ١١٨ كم من الطرق ، وتأتي بعدها انكلترا (١٠٠) فألمانيا (٩٠) ، فالولايات المتحدة (٦٢) ، فايطاليا (٣٠) ثم كندا (٦،٥) والاتحاد السوفيتي (١) . وهذه الارقام توضح لنا أن شبكة الاتحاد السوفيتي التي تشغل المرتبة العالمية الرابعة من حيث الطول المطلق غير كافية بالنسبة لسعة مساحتها ، وأن هذه الشبكة لا تشكل بالتالي عنصراً هاماً وواضحاً من عناصر مظهرها الجغرافي .

٢ – الخطوط أو السكك الحديدية :

بدأت السكة الحديدية بداية صعبة ولم يكن الناس آنذاك يعتقدون بأنها ستكون وسيلة ناجحة من وسائل النقل والمواصلات ولكنها سرعان ماشهدت

توسعاً سريعاً هاماً إذ تجتاز السكة الحديدية اليوم معظم القارات من طرف لآخر ؛ فيبلغ طول الخط الحديدي عبر سيبيريا مثلا ٦٦٥٠ كم والعابر الكندي ٦٠٢٠ كم والعابر الاسترالي ٥٦٠٠ كم . وتتجاوز السكة عرض دائرة القطب في الاتحاد السوفيتي كما أنها تخترق جبال الآند في امريكا .

وقد أحرزت بعض الدول تقدماً كبيراً في مد السكك الحديدية في بلادها فبلغت كثافتها درجة عالية وأصبحت هذه الخطوط الحديدية وما يرتبط بها من جسور ومحطات جزءاً هاماً من المظهر الجغرافي لتلك البلاد. وتدل السجلات الاحصائية على كثافة الخطوط الحديدية بالنسبة لكل ١٠٠ كم^{2} من المساحة فنجد أن في :

بلجيكا ٣٢ كم وهي تأتي في المرتبة الاولى العالمية من حيث كثافة خطوطها الحديدية

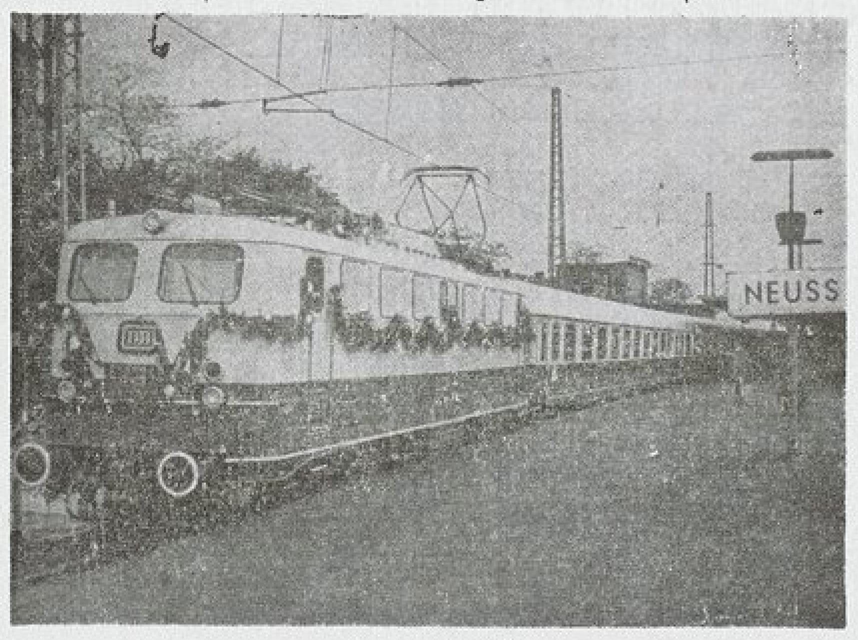
بريطانيا	١٣،٤ كم	روسيا	٠،٤ كم
سويسرا	١٢،٨ كم	الصين	٠،١ كم
فرنسا	١١،٧ كم		

أما اذا اخذنا اطوال شبكات السكك الحديدية بعين الاعتبار فاننا نجد ترتيب الدول على النحو التالي :

الولايات المتحدة	٤٠٠،٠٠٠ كم	استراليا	٤٤،٠٠٠ كم
الاتحاد السوفيتي	٩٠،٠٠٠ كم	فرانسا	٤٢،٠٠٠ كم
الهند	٧٠،٠٠٠ كم	الارجنتين	٤٠،٠٠٠ كم
كندا	٤٦،٠٠٠ كم		

والجدير بالذكر أن الدول التي تملك شبكات حديدية طويلة نجدها غالباً ذات مساحة واسعة جداً بحيث تصبح كثافة السكك الحديدية فيها قليلة ولا تعادل الكثافة التي نجدها في دول صغيرة كبلجيكا وبريطانيا وسويسرا مثلاً.

وتمتاز السكة الحديدية بمقاومتها لعوامل الفناء والبلى وبأنها تؤمن نقلا سريعاً اقتصادياً ومريحاً. ومن الامور التي تجدر الاشارة اليها انها سبقت الطريق في كثير من مناطق العالم وخاصة المناطق التي اكتشفت مؤخراً في العالم الجديد. غير ان



(الشكل - ٥٥)

نموذج للقطارات الحديثة التي تسير على الكهرباء

السكة تتأثر كثيراً بالميل لذلك يجب ان تكون المنحدرات ضعيفة قدر الامكان أضف الى ذلك أنها قليلة المرونة بمعنى أن القطار لا يمكنه ان يحيد قيد شعرة

عن القضيبين الحديديين . وتتطلب السكك محطات وملحقات معقدة وباهظة التكاليف وعدداً كبيراً من الموظفين والمستخدمين .

لقد كان توسع وانتشار السكك الحديدية سبباً هاماً في تطور الاقتصاد الحديث ، لأن القطار ساعد في الواقع على تأمين نقل سريع وسهل لكثير من المحاصيل السريعة التلف أو الثقيلة الوزن . وعلى هذا فقد استطاع عدد من المناطق أن يتخصص في انتاج الثمار مثـلاً لأن القطار ضمن نقلها الى أسواق الاستهلاك البعيدة قبل أن تتلف وبأسعار رخيصة نسبياً .

هذا وإن شبكات السكك الحديدية في بلاد أوروبا القديمة بحضارتها تأخذ أشكالا متعددة تبعاً للشروط الجغرافية . فالسكك الحديدية تأخذ مثلا شكل أشعة منبعثة من مدينتي باريس ولندن ، اما في المانيا فانها تأخذ اتجاهات متعامدة بعضها على بعض .

أما في بلاد العالم الجديد فان السكك الحديدية لاتأخذ دائماً شكل شبكات حقيقية إنما تبدأ من الساحل وتتجه نحو الداخـل ويطلق عليها عادة اسم خطوط التوغل نحو داخل القارات كما هي الحال في افريقية وامريكا الجنوبية .

٣ ــ طرق الملاحة الداخلية : الانهار والاقنية

عرفت الشعوب منذ القديم كيف تستخدم الانهار ، هذه الطرق الطبيعية المتحركة ، عرفت كيف تستخدمها في أغراض النقل والمواصـلات . وقد عرف الانسان ايضاً مالهذه الطرق المائية من ميزات تتمثل بسهولة استخدامها أولا وبقلة تكاليفها ثانياً .

استخدم الانسان في الملاحة النهرية زوارق ومراكب صغيرة في بداية الأمر وكان من الممكن والحال هذه ان تسير في معظم المجاري المائية الطبيعية . غير أن أحجام المراكب مالبثت أن تضخمت منذ القرن التاسع عشر فلم تعد المجاري النهرية الطبيعية ملائمة لسير هذه المراكب الكبيرة بسبب ضيق الانهار وقلة عمقها فتعطلت الملاحة في كثير منها كما حدث في نهر اللوار في فرانسا مثلا .

ولهذا كان لا بد من ادخال تعديلات عديدة على مجاريها بغية تنظيمها وجعلها صالحة لمتطلبات المراكب الحديثة فعمقت المجاري ونظمت جوانبها وانشئت عليها السدود والأهوسة بغية رفع مستوى الماء في المجرى وتسهيل انتقال المراكب الى مختلف اجزاء النهر وفي كل الاتجاهين .

هذا وتعتبر الأقنية من جمله التعديلات التنظيمية التي يدخلها الانسان على مجاري الأنهار وهي على نوعين :

— القناة الجانبية وتسمح بتجنب الحواجز والعقبات التي توجد في سرير النهر وتعترض مجراه . ومن الأمثلة على هـذه الأقنية الجانبية قناة نهر الراين في الالزاس .

— قناة الوصل : وهذه تسمح بوصل نهرين متجاورين، وتجتاز هذه القناة عادة خط توزيع المياه الذي يفصل بين الحوضين النهريين وتبني عادة على مثل هذه الأقنية أهوسة تسهل على المراكب السير في القناة . ومن أشهر أقنية الوصل في العالم قناة Mittellandkanal في ألمانيا وقناة موسكوفا — الفولغا في روسيا .

وبفضل هذه الاصلاحات المختلفة أصبح نهر الراين مثلا صالحاً لسير مراكب كبيرة بلغت حمولة الواحد منها ١٣٠٠ طناً في حين أن حمولة المراكب التي تسير على بقية أنهار فرنسا لاتتجاوز ٣٠٠ طناً .

تتصف الملاحة النهرية بأنها بطيئة اذا ماقورنت ببقية وسائل النقل الاخرى، ولكنها مقابل ذلك قليلة التكاليف ، لذلك تستخدم خاصة في المناطق الصناعية التي تحتاج الى نقل كميات كبيرة من مواد ثقيلة الوزن .

٤ ـ الملاحة البحرية

لقد وقف الانسان من البحر موقف الخوف والريبة مدة طويلة من الزمن ولم يكن ملاحو العصور القديمة يبتعدون بمراكبهم كثيراً عن الشاطىء ، فقد جاب الفينيقيون مثلا كل أجزاء البحر الابيض المتوسط ولكنهم كانوا يسيرون دائماً على مقربة من الساحل . غير أن صناعة السفن والمراكب كانت في تحسن دائم وحلت السفن البخارية محل السفن التي تسير بالمجذاف او الشراع وعندها فقط بدأ الانسان يبتعد عن الساحل ويقطع البحار والمحيطات .

يمتاز سطح الماء بأنه لايترك أي أثر للبواخر التي تشق عبابه بعكس مايحدث على سطح القارات . والبحار طرق طبيعية سهلة لاعوارض فيها ولا حواجز لذلك تصلح للنقل والانتقال بدون أي تمهيد أو تعبيد لذلك أخذت الملاحة البحرية أهمية كبرى في الوقت الحاضر فتضخم الاسطول التجاري العالمي وتخصصت السفن في نقل مواد معينة كناقلات الفحم أو البترول أو الموز

والفواكـه او الحبوب او الخمور والاسمـاك كما خصصت سفن اخرى لنقل الركاب .

هذا وإذا كانت البحار تشكل طرقاً طبيعية لاتحتاج الى تدخل الانسـان من أجل تحسينها فان المرافىء البحرية تطلبت الكثير من الاصلاح ، لأن المرافىء هي في الواقع تلك النقاط الشاطئيـة التي يتم فيها استقبـال السفن وايواؤها وتموينها ، لذلك لابد من ان تتوفر في المرافىء بعض الشروط الطبيعية .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو أنه لم يعد الآن في العالم أجمع مرفأ كبير واحد بشكله الطبيعي الأولي - فالانسان عدّل الشروط الطبيعية حسب حاجاته ومتطلباته . وتهدف الاعمـال التي يقوم بها الانسان في المرافىء الى الغايات التالية :

١ - تامين مساحة مائية كافية لرسو السفن تكون محمية من الأمواج والرياح حتى يتم شحنها وتفريغها بسهولة وأمان . ويمكن عند عدم كفاية المساحة الطبيعية اكتساب مساحات جديدة إما من البحر مباشرة وإما من القـارة وباتجاه الداخل ، وإما من القارة والبحر معاً في أغلب الأحيان .

٢ - تأمين عمق مناسب : إن ضخامة السفن الحديثة تطلب تعميق المرافىء والخلجان الطبيعية ، حتى يتراوح عمقها بين (١٠ و ١٣) متراً فحيث لم تهيء الطبيعة مثل هذه الأعماق وجب على الانسان أن يلجأ الى الحفر .

أضف الى كل ذلك أن المرفأ الحديث أشبه شيء بمعمل كبير وظيفته الرئيسية تحميل البضائع وتنزيلها ولاتمام هذه الوظيفة لابد من تجهيز المرفأ بشكل يوفر الوقت واليد العاملة معاً .

تتعلق أهمية المرفأ الحديث وقدرته على أداء وظيفته بمقدار ما أدخل عليه الانسان من تحسين في وسائله وتجهيزاته التي تتمثل :

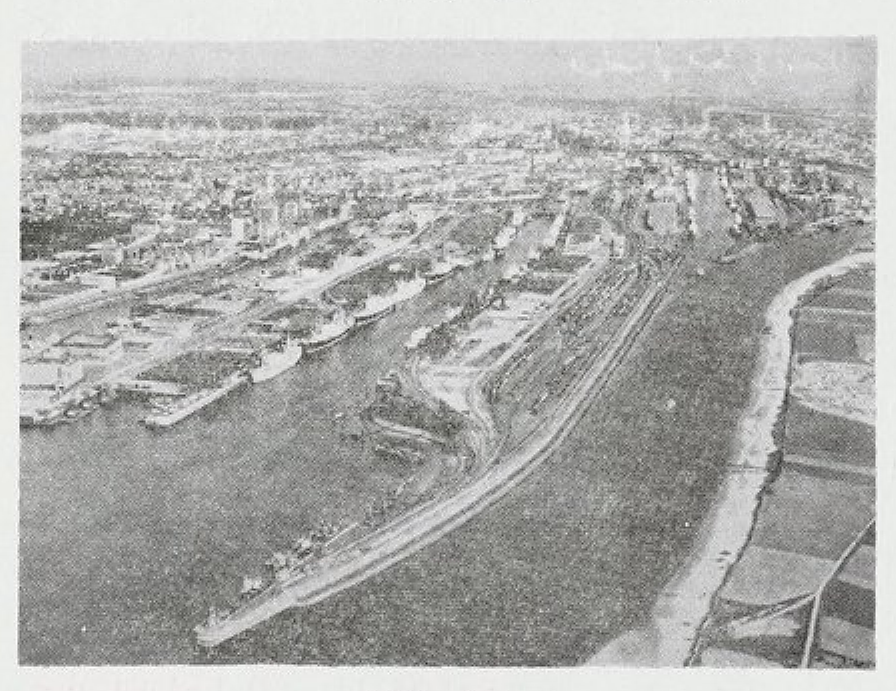
١ — بطول أرصفة الرسو .

٢ — بمساحة العنابر والمخازن .

٣ — بعدد الآلات الرافعة في المتر المربع الواحد من مساحة الرصيف وبطبيعتها : بخارية أم كهربائية وبسرعة عملها .

٤ — بالآلات الماصة للحبوب ، وبأنابيب تفريغ البترول والسوائل .

٥ — بطول السكك الحديدية التي تعمل في خدمة المرفأ وطول الأقنية الملحقة.



شكل - (٥٦)
يمثل الشكل ميناء « بريمن » في ألمانيا على بحر الشمال يلاحظ اتساع الميناء وامتداد الارصفة ويعتبر من أهم الموانىء التجارية في المانيا

٦ — بالأحواض الجافة المعدة لتصليح السفن .

٧ — يسعة المستودعات المعدة لتخزين المحروقات السائلة .

٨ — يضاف الى كل ماسبق اسطول الزوارق «المرشدة» الخاصة بسحب السفن نحو الأرصفة .

كل هذه التعديلات والتجهيزات تقلب المرفأ الى مؤسسة بشرية اصطناعية تختلف كثيراً عن الخلجان الطبيعية التي تلجأ اليها سفن الملاحين بصورة عفوية .

ومن الاعمال الجليلة التي قام بها الانسان في سبيل تنظيم الملاحة البحرية فتح الأقنية البحرية الكبرى التي وصل بها بحراً بآخر مختصراً بذلك مسافات كبيرة . ومن أشهر الأقنية في العالم قناة السويس التي فتحت عام ١٨٦٩ بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وقناة بناما التي فتحت عبر برزخ باناما عام ١٩١٤ .

٥ — الطيران والمواصلات الجوية :

الجو كالبحر طريق طبيعي لايحتاج الى تمهيد أو تعبيد ، وتستطيع الطائرة أن تحلق فيه ، وتسير في كل الاتجاهات وبسرعة كبيرة ، من غير أن تترك فيه أي أثر أثناء طيرانها .

لقد ازداد استخدام الطائرة في النقل في السنوات الأخيرة زيادة كبيرة ، ولضمان سلامة هذا النقل اضطر الانسان لاقامة منشآت هامة على سطح الأرض تتمثل بالمطارات او الموانىء الجوية التي تستطيع ان تستقبل مختلف أنواع الطائرات لايوائها أو تموينها . وعلى هذا فان الموانىء الجوية كالموانيء البحرية

يجب ان تكون مجهزة تجهيزاً خاصاً . ويمتاز النقل الجوي بالسرعة الهائلة ومن عيوبه غلاء تكاليفه لأن أثمان الطائرات باهظة وسرعان ماتصبح غير صالحة للاستعمال .

هذا وتزداد أهمية الطيران يوماً بعد يوم ، وتستخدم الطائرة اليوم ليس من أجل نقل الركاب فقط بل من أجل نقل البضائع أيضاً . ونستطيع أن ندرك أهمية المواصلات الجوية اذا علمنا أن الولايات المتحدة تستخدم خطوطاً جوية عالمية يبلغ طولها ١٠٠،٠٠٠ كم ، وفرانسا ٦٠،٠٠٠ كم ، والاتحاد السوفياتي ٥٥،٠٠٠ كم ، وكل من بريطانيا العظمى والمانيا ٤٠،٠٠٠ كم وايطاليا ٣٠،٠٠٠ كم . وهنالك دول اخرى تملك خطوطاً جوية وطنية هامة خاصة بها كسويسرا والنروج والصين ... الخ . وتقوم شركات عالمية كبرى بتنظيم المواصلات الجوية في العالم ، ويبدو أن للطائرة مستقبلاً كبيراً في ميدان النقل والمواصلات.

* * *

الفصل الخامس عشر

مبادىء في الجغرافية السياسية

الدولة[1] والامبراطورية

من جملة الصفات التي تميز الانسان عن باقي المخلوقات انه كائن اجتماعي وسياسي يأتلف مع أبناء جلدته ولا يعيش مطمئناً الا ضمن جماعة منهم ٠

وتعمل الجماعات البشرية سواء كانت بدوية متنقلة أو مدنية مستقرة ،على تنظيم الأرض التي تعيش عليها ، ويكون هذا التنظيم تحقيقاً لما في نفوس الناس من ميول اجتماعية وعواطف دينية واستجابة لضرورات الدفاع عن النفس من أجل البقاء . لقد عمد الاستراليون الأصليون مثلا ، رغم بدائيتهم الى تنظيم الارض التي يعيشون عليها وتقسيمها بين القبائل المختلفة وكان لكل قبيلة على تلك الارض حق الملكية تبعاً لتقاليد فولكلورية معقدة ٠ كانت القبيلة تعتبر الارض وما عليها ملكا لها ، لذلك كان أفرادها يعتبرون الاغنام (أغنام

---

(١) استمدت معظم معلومات هذا الفصل من كتاب الجغرافيا السياسية تأليف الدكتورة دولت صادق والدكتور محمد السيد غلاب والدكتور جمال الدين الدناصوري. القاهرة ١٩٦١.

المهاجرين الاوروبيين الى استراليا) التي تدخل حدود أرضهم الجماعية ملكا لهم فيذبحونها بدون أي تردد ، ولم يكونوا يفهمون سبب الحملات الانتقامية التي كان يشنها عليهم أصحاب الاغنام .

أما في البلاد المتقدمة في مضمار الحضارة فان ملكية الارض واستثمارها يؤديان الى خلق وحدات سياسية ذات حدود واضحة على الارض ، تلك هي الدول .

١ ـ الدولة والجغرافيا السياسية :

هنالك فرع من الجغرافيا يختص بدراسة الدولة والوحدات السياسية في العالم يطلق عليه اسم الجغرافيا السياسية فالجغرافيا السياسية هي اذن جغرافية الدول « ومهمتها دراسة كل دولة من دول العالم كوحدة قائمة بذاتها ، لها كيانها الخاص ، ولها صفاتها المميزة من حيث الانتاج والاستهلاك ، ومن حيث قدرتها على سد حاجات السكان الذين يعيشون داخل حدودها ، وعلى مساهمتها في رخاء العالم بما تمده به من إنتاجها الذي يفيض عن حاجتها . ولها أهميتها من حيث مقدرتها على المساهمة في المحافظة على الأمن والسلام العالمي،وذلك بمراعاة حقوق الدول الاخرى التي تتألف منها المجموعة العالمية . والجغرافيا السياسية تدرس المقومات المختلفة التي يتوقف عليها نهوض الدولة وتقدمها ، وتفسر العلاقات القائمة بينها وبين الدول الأخرى على أساس جغرافي .

وتعد الجغرافيا السياسية فرعاً من فروع الجغرافيا البشرية التي تبحث في العلاقة بين الانسان وبين البيئة التي يعيش فيها ، مثلها في ذلك مثل الجغرافيا

الاقتصادية والجغرافيا الاقليمية ، وربما كانت الجغرافيا الاقليمية أقرب الانواع الى الجغرافيا السياسية لأنهما تفيدان معاً من المعلومات الجغرافية ؛ إلا أن الجغرافيا السياسية تمتاز عن الاقليمية بأنها تعنى بدراسة الوحدات السياسية من حيث أنها وحدات ذات نظام سياسي واقتصادي واجتماعي معين بينما تعنى الجغرافيا الاقليمية بدراسة تلك الوحدات من حيث أنها تنتمي الى أقاليم جغرافية قد تتباين أو تتشابه في الظروف الطبيعية كالبيئة والموقع والمناخ والنبات والحيوان » !

هذا وتجدر الاشارة الى أن كل دولة انما تقوم على أساس سيادتهاعلى أرض معينة . ويمتاز المجتمع السياسي عن بقية الأشكال الاجتماعية الاخرى ، بأن وجوده لايمكن أن ينفصل عن الأرض ، الارض السياسية والاقتصادية التي تتوقف قيمتها على موقعها الجغرافي وسعتها وعدد سكانها وما فيها من موارد اقتصادية . ويبدو من هذا أن في كل دولة عنصراً جغرافياً هاماً هو السيادة على أرض معينة .

الا أن الارض لوحدها لاتضمن قيام الدولة وبقاءها ، لان الدولة إنما هي من خلق الانسان وارادته ، لهذا يتوجب علينا ، اذا أردنا ان نعرف سبب قيام الدول ، أن نطرح فكرة الحتمية جانباً وأن نبحث عن مختلف الاسباب التي تؤدي الى قيام الدول وعندها نرى أنفسنا ملزمين بالتمييز بين نوعين من الدول : الدول الشخصية والدول القومية .

---

١ – الدكتور محمد متولي ، الجغرافية السياسية القاهرة ١٩٥٨ ص – ١ – .

فالدول الشخصية (امبراطورية الاسكندر المكدوني ونابوليون الاول وهتلر) ترتبط بشخصية رجل استطاع أن يخضع لنفوذه عـدداً من الاراضي قد تكون متفرقة ومتباعدة أحياناً . إن حدود وبقاء مثل هـذه الدول يرتبط بقوة مؤسسها أو رئيسها وبقدرته على تعبئة كل القوى العسكرية والمعنوية وباستثمار كل الامكانيات الاقتصادية الكامنة فيها ، ولذلك فان مثل هذه الدول قد تزول بزوال مؤسسيها .

ان الرابطة الجغرافية الوحيدة داخل مثل هذه الوحدات السياسية الشخصية هي التسهيلات المتوفرة فيها من أجل استثمار القوى والموارد استثماراً حراً وسهولة انشاء مواصلات تربط بين مختلف أجزائها .

أما الدول القومية فتنشأ نتيجة ارتباط جماعة من البشر ارتباطاً وثيقاً بالارض التي يملكونها والتي تضمن لهم اكتفاءهم الذاتي واستقلالهم والمحافظة على ممتلكاتهم ويجمع بين افراد هذه الجماعة أيضاً ممارستهم لفعاليات وأنماط من المعيشة وعادات متقاربة ومتضامنة .

هذا ومن الجدير بالذكر ان اصطلاحاً جديداً قد ظهر في ميدان دراسة الدول والوحدات السياسية الجيئوبوليتيكا هو gèopolitique والكلمة مؤلفة من مقطعين geo وتعني الأرض و politique وتعني السياسة، يقول اللواء الألماني هاوسهوفر في هذا الصدد : « ليس مجرد الصدفة هو الذي جعلنا نسبق كلمة polilik بهذا المقطع الصغير geo ، فهذا المقطع يعني كثيراً ويتطلب كثيراً ، فهو يربط السياسة بالارض ويحررها من الكثير من النظريات السقيمة والعبارات الجوفاء التي قد توقع زعماءنا السياسيين ، في وهم « الدولة المثالية » الفاضلة التي لا طائل منها ،

ويعود بهم الى الأرض الصلبة ، فالجيوبوليتيكا تبيّن كيف يتوقف كل تقدم سياسي على ذلك العامل الثابت الذي لايتغير : عامل الارض » .

وعلى هذا يبدو الشبه كبيراً بين الجيوبوليتيكا والجغرافيا السياسية géographie politique ومع ذلك فالفرق بينهما واضح ، فالجيوبوليتيكا تقوم على دراسة الوضع الطبيعي للدولة من ناحية مطالبها في مجال السياسية الدولية ، اما الجغرافيا السياسية فتأخذ الدولة بعين الاعتبار وتعنى بتحليل بيئتها الطبيعية تحليلا موضوعياً . وقد أوضح otto Maul أحد كتاب معهد ميونيخ هذا الفرق بكل جلاء عندما قال : « تعنى الجيوبوليتيكا بالمطالب المكانية للدولة ، على حين تقتصر مهمة الجغرافيا السياسية على فحص ودراسة ظروف مجالها الارضي . وبمعنى آخر « تدرس الجغرافيا السياسية [1] مقومات الدولة من الناحية الجغرافية أي ترسم الصور الحاضرة مع ربط هذا الحاضر بالماضي وأما الجيوبوليتيكا فتحاول رسم سياسة الدولة في المستقبل استناداً الى المعلومات التي يقدمها لها علم الجغرافيا السياسية . ويمكن القول بأن العلمين مكملان لبعضهما فبينما يقف أحدهما بالبحث عند الصورة الحاضرة فان الآخر يحاول رسم صورة المستقبل ويخطط السياسة اللازمة لتحقيق هذه الصورة . والجغرافيا السياسية علم واقعي لايعنى الا بالحقائق الملموسة أما الجيوبوليتيكا فعلم يقوم على الفروض » .

---

(١) راجع كتاب : بعض مشكلات الجغرافيا السياسية للدكتور ابراهيم أحمد رزقانه . نشر دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٠ .

٢ – الاسس الجغرافية للدول

هنالك (١١٠) مائة وعشر وحدات سياسية في العالم ، وقد وصلت كل واحدة منها الى درجة الدولة الكاملة الأسس ، ولكنها تختلف فيا بينها اختلافا بيّناً من حيث المساحة وعدد السكان والامكانيات الاقتصادية . وتمثل الدولة سواء كانت صغيرة او كبيرة ، جهود جزء من المجتمع البشري في التنظيم وفي تحويل بقعة من الارض الى وطن له كيان خاص ، ومن هنا يظهر الفرق بين الحكومة والدولة ، فالدولة مرتبطة بقاعدة من الارض وبقوانين تسري على سكانها ، أما الحكومة فلا ترتبط بالارض القومية دائماً فقد تنشأ حكومات في المنفى لأغراض سياسية معينة مثل حكومة فرانسا الحرة التي نشأت خارج الأرض الفرنسية عندما احتلها الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية وحكومة « عموم فلسطين » التي انشئت لتدافع عن حقوق عرب فلسطين الشرعية ، وحكومة الجزائر الموقتة التي عملت من خارج الأرض الجزائرية على تحرير الوطن عندما كان يحتله المستعمر .

تقوم الدولة على أسس طبيعية وبشرية واقتصادية متداخلة ومعقدة ليس من السهل الفصل بينها . وإن الطريقة التحليلية التي تعمد الى دراسة كل من الأسس الطبيعية والبشرية على حده إن هي إلا طريقة مدرسية غايتها تسهيل فهم هذه الأسس .

١ – الاسس الطبيعية

لابد لمن يود دراسة الجغرافيا السياسية من أن يأخذ بعين الاعتبار مواقع الدول الجغرافية ومساحاتها وأشكالها ، لان هذه الأمور تعتبر من جملة العوامل التي تساهم في تقدير أهمية الدول .

– **الموقع الجغرافي** : تشغل كل دولة موقعاً جغرافياً معينا وثابتا على سطح الكرة الارضية ، ويعبر عن هذا الموقع بالامور التالية :

أ – الموقع بالنسبة لخطوط الطول والعرض – إن الموقع بالنسبة لخطوط الطول لا أهمية كبيرة له أما الموقع على خطوط العرض فهو على جانب كبير من الاهمية لانه يساهم الى حد كبير في تحديد الشروط المناخية وهذه تؤثر بدورها على الامكانات الزراعية بل تؤثر على كل نواحي النشاط البشري .

ب – الموقع بالنسبة للبحار والقارات – لابد للدولة أن تقع ضمن احدى القارات الخمس المعروفة او داخل بحر من البحار اذا كانت الدولة ذات موقع جزري . وتقسم الدول عادة الى قارية لا سواحل لها على البحر ، ودول بحرية لها سواحل على بحر أو اكثر . ومن الدول البحرية ماتشرف على بحر واحد كالجمهورية العربية السورية التي تملك ساحلاً على البحر الابيض المتوسط ومنها ماتملك ساحلين على بحرين مختلفين كمصر التي تطل على البحر المتوسط والاحمر ، أما فرانسا فانها تملك ساحلاً على البحر الابيض المتوسط وساحلاً ثانياً على المحيط الاطلسي وثالثاً على بحر المانش . وهنالك دول تقع وسط البحر على شكل جزر وليس لها أي اتصال بري مع دول اخرى . ومن اشهر

الدول الواقعة ضمن البحار بريطانيا واليابان واندونوسيا وسيلان وجزر الانتيل المختلفة .

ولا تقاس اهمية الموقع البحري دائماً بطول السواحل وبعدد البحار التي تطل عليها الدول ، فقد تكون البحار غير صالحة للملاحة كل ايام السنة ، فالاتحاد السوفيتي مثلا يملك سواحل طويلة على المحيط المتجمد الشمالي وعلى بحر البالطيك والقسم الشمالي الغربي من المحيط الهادي إلا ان المرافىء المطلة على هذه البحار تتجلد خلال الفصل البارد ومن هنا جاءت سياسة روسيا القيصرية التقليدية في البحث عن منفذ على البحار ذات المياه الحرة . وقد أدت هذه السياسية الى انشاء ميناء فلاديفوستوك على المحيط الهادي والموانىء المختلفة على سواحل البحر الاسود . إن وضعية البحار الروسية هي التي كانت تدعو الى اعتبارها قوة برية أكثر منها بحرية .

ولا تقتصر قيمة الموقع البحري على الناحية الستراتيجية أوتأمين مواصلات سهلة بينها وبين الدول الاخرى ، بل ان موارد البحر المختلفة لاتقل أهمية عن موارد الارض بالنسبة لبعض الدول ، فالنروج مثلا تعيش مما تصطاده من البحار .

وتعتمد اليابان في جزء كبير من غذاء سكانها على صيد البحر كذلك الامر في جزيرة ايسلنده وجزيرة الارض الجديدة .

هذا ولا يكفي أن تطل دولة من الدول على البحر حتى تغدو دولة بحرية هامة ، فالجبهة البحر تستمد أهميتها من أهمية ظهيرها Hinterland ، فجبهة يوغوسلافيا على بحر الادرياتيك قليلة الاهمية لان الساحل الدالماسي صخري

مجدب تسوده الطبيعة الكارستية والسواحل الصحراوية مثل ساحل ليبيا وسواحل البحر الاحمر أقل أهمية من السواحل الغنية .

ج — **الموقع بالنسبة للدول المجاورة .** — إن مجاورة الدول بعضها لبعض يؤثر دائماً في علاقاتها في السلم وفي الحرب على حد سواء . وكلما طالت الحدود البرية بين دولتين كان ذلك عاملا من العوامل التي تقوي الصلة بينهما مثال ذلك الحدود بين كندا والولايات المتحدة .

إن الجانب المتغير من الموقع الجغرافي هو علاقة الدول بجيرانها ، كذلك مكانها بالنسبة لمراكز الثقل الحضارية والسياسية في العالم . ومن الامثلة على ذلك الجزر البريطانية ، اذ كانت على هامش العالم القديم المتحضر عندما كانت مراكز الثقل الحضارية تقع في البحر الابيض المتوسط ، ولكن الوضع تغير بعد أن تمّ اكتشاف العالم الجديد اذ أصبحت هذه الجزر في مركز متوسط بين دول غرب أوروبا وشرق أمريكا الشمالية أي أنها واقعة في مركز الاقاليم المعتدلة التي تعتبر مركز الكثافات البشرية والحضارة الرفيعة .

إن موقع الدولة ، سواء كان جزرياً او بحرياً أو قارياً ، يوجه الى حد كبير سياستها الخارجية فموقع ألمانيا الداخلي كان يملي عليها سياستها الخارجية القائمة على خوفها من التطويق ومن هنا ايضاً كانت سياستها التوسعية وحرصها على خلق اسطول كبير لارتياد البحار والحصول على المستعمرات .

٢ — مساحة الدولة وشكلها :

تعتبر المساحة الكبيرة ، اذا كانت مقترنة بكثافة سكان مرتفعة وبموارد

طبيعية مستغلة استغلالا حسناً ، مصدر قوة للدولة وتضعها في مصاف الدول الكبرى . ومن الامثلة على ذلك الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، اذ تحتل كل منهما كتلة كبيرة من الارض متصلة ببعضها وتشمل أراضيها على أقاليم مناخية ونباتية متنوعة مما يساعد طبعاً على انتاج محاصيل زراعية متنوعة . أضف الى ذلك مافي اراضيها من معادن مختلفة ومصادر قدرة متنوعة.

ولكن المساحة ليست دائماً كل شيء فهنالك دول ذات مساحات واسعة ولكن الصحارى القاحلة تشكل نسبة كبيرة من أراضيها كاستراليا والمملكة العربية السعودية .. فالمهم اذن ان تكون أرض الدولة خصيبة صالحة للاستثمار الزراعي وغنية في نفس الوقت بالوقود والمعادن .

أما فيما يتعلق بالشكل فمن « صالح الدولة أن تكون ذات شكل منتظم ، وكلما كانت الدول منتظمة كلما كانت حدودها قصيرة بالنسبة لمساحتها ، وكانت النقط التي تتعرض منها للغزو الخارجي قليلة ، والشكل المثالي للدولة ماكان دائرة أو قريباً من الدائرة ، وكانت العاصمة تحتل نقطة المركز ، ويمكن ان تعد فرانسا دولة مثالية من هذه الناحية ، وان تعتبر سويسرا والنمسا والمجر دولا قريبة من المثالية .

والدول غير المنتظمة تكون على أشكال عديدة ، فقد تكون حدودها كثيرة الالتواء والتعرج فتبدو متشعبة مثل ألمانيا . وقد تكون الدولة متطاولة مثل النروج وشيلي ، فتكون الصلة بين العاصمة والاطراف قليلة ، ويكون الدفاع عن الاطراف مهمة شاقة .

وقد تكون الدولة مشتتة، اذا كان بعض أجزائها ينفصل عن بعضها الآخر كأن

تتألف من جزر مثل اليابان وبريطانيا ، أو من كتلة جبلية وعـدد من الجزر مثل اليونان ، وهذا لا يسهل الدفاع عنها لتشتت أقسامهـا ، وانفصال بعضها عن بعض»[1]

هذا ولا ضرورة هنا للبحث عن المناخ، والثروات النباتية والتضـاريس كعناصر رئيسية تدخل في أسس الدولة الجغرافية .

٣ ـ الأسس البشرية

لاتقل الأسس البشرية في أهميتها عن الاسس الطبيعية والاقتصادية بل ربما كانت أهم الاسس جميعاً ، لان أغلب المشاكل السياسيه والاقتصادية التي نعانيها الآن ترجع في الأصل الى عوامل بشرية .

إن الأشخاص الذين يعيشون ضمن حدود دولة ما ويخضعون لقوانينها هم المواطنون ، وتهتم الجغرافيا السياسية بدراسة المواطنين من ناحيتين متميزتين: اولا من الناحيه الأتنوغرافية وثانياً من الناحية الديموغرافية . أما النـاحيـة الاولى فتشمل دراسة المواطنين من حيث السلالة أو العنصر أو السلالات التي ينتمي اليها المواطنون ، واللغة أو اللغات التي يتفاهمون بواسطتهـا والدين أو أو الديانات التي يعتنقونها . وأما الناحية الديموغرافية فهي أقل تعقيداً من النـاحية الاتنوغرافية ، لانهـا تقوم على التعداد والاحصـاء واستقراء الارقام والجداول .

---

(١) الدكتور محمد متولي ـ الجغرافيا السياسية ـ ص ٢٦

وقيمة الدراسة الاتنوغرافية أنها تعطي فكرة عن مقدار انسجام المواطنين وعلاقاتهم العاطفية بجيرانهم أو بغيرهم من مواطني الدول الاخرى ؛ وقيمة الدراسة الديموغرافية أنها تعطي فكرة عن مقدار قوة الدولة وجيوشها وقيمتها في المجال الاقتصادي والدولي .

آ – الدول من الناحية الاتنوغرافية :

لماذا تقوم الدولة ؟ وما الذي يفصل بين الدول ، وعلى أي أساس رسمت الحدود بينها[1] ؟ هذه أسئلة ليس من السهل الاجابة عليها: «فالدولة تطور تاريخي أنشأته جماعة من الناس ، التصقت بوطن من الاوطان ربما وصلت اليه بالهجرة أو بالغزو . ولكنها خلال تلك العملية التاريخية كونت شعباً معيناً انعزل في هذا الوطن عن غيره نسبياً ، وتطور تطوراً ثقافياً معيناً ، وانفصل بلغة أو لهجة عن جيرانه ؛ وكون تقاليد خاصة به ، وترعرعت في نفوس أفراده عاطفة معينة نحو هذا الوطن ، ونحو مواطنيهم ، بحيث أصبحوا شخصية متميزة ، تطلق على نفسها اسم أمة . وقد تكون لهذه الامة دولة . أو قد تنطوي تحت لواء دولة أخرى ، ولكن أبناءها لا ينسون أنهم أبناء امة واحدة، كثيراً مايعبرون عنها بأنهم سلالة أسلاف معينين انحدروا من أصلابهم . ومن ثم كان الاختلاط بين الامة أو الشعب وبين السلالة Race . ويدل التاريخ ان اقدم الدول كانت لامم خاصة ، لها مميزاتها القومية (من لغة ودين واسلوب

---

(١) الجغرافيا السياسية تأليف صادق وغلاب وداناصوري ص ٤٤

حضارة) مثل المملكة المصرية القديمة ، ومثل دول العراق الادنى ومثل دولة الحثيين ، ولكن التاريخ يشير أيضاً الى أنه منذ القدم نشأت دول لاعلاقة لها بالقومية، مثل الامبراطورية المصرية في عصر الدولة الحديثة ، ومثل امبراطورية فارس وامبراطورية الاسكندر الأكبر، غير أن كلا من هذه الأمبراطوريات كانت تقوم على سواعد أمة معينة ، تؤلف الطبقة الحاكمة في الامبراطورية ولا تلبث تلك الامبراطوريات أن تتفتت ، وتستقل كل قومية فيها عن الاخرى .

وقد نشأت في العصور الوسطى امبراطوريات لاتعتمد على القومية ، بل على الدين ، مثل الامبراطورية الاسلامية ، ومثل امبراطورية شارلمان في اوروبا . ولكن هذه أيضاً مالبثت أن تفككت وعادت القوميات المحلية الى الظهور في كل منها » [1].

ويبدو مما تقدم انه من الضروري ان توضح معاني الكلمات التالية: سلالة، شعب وامة حتى ندرك حقيقة التكوين الاتنوغرافي لدولة من الدول . هذا ولم يتفق علماء الانتروبولوجيا بعد على تحديد معنى السلالة ويعتبر احسن تعريف لها ماأعطاه للاستاذ Marc - R. Sauter الذي يقول : « السلالة صنف variété من اصناف الانسان العاقل يتمثل بمجموعة من الاشخاص الذين يتميزون عن المجموعات الاخرى بعدد من الصفات والخصائص التشريحية والفيزيولوجية (وربما النفسية ايضاً) الوراثية التي تستمر خلال أجيال عديدة.

---

(١) الجغرافيا السياسية – دولت ، غلاب ، وناصوري – ص ٥٥ ، ٥٦.

ولا تشمل هذه الخصائص أي شيء مكتسب عن طريق التربية والتعليم والتقاليد او تأثير الوسط » .(١)

الا أن كلمة سلالة لا تعني أبداً أن أفراد الجماعة المأخوذة بعين الاعتبار ينحدرون من رجل واحد ، وما من شعب على سطح الارض يتكون من سلالة واحدة فقط ، لذلك هنالك اتجاه حديث في الدراسات الانتروبولوجية يهدف الى التقليل من استعمال تعبير السلالة قدر الامكان كما يهدف الى احلال كلمات المجموعات البشرية groups أو Ethnicgruops محل كلمة السلالة .

أما لفظة شعب peuple فليس لها دلالة عرقية او سلالية ، فالشعب الواحد قد يتكون من عدة مجموعات عرقية، فالشعب الأمريكي يحتوي على عناصر عديدة : انكلو ساكسونية ، لاتينية وسلافية ومغولية وزنجية ... الخ والشعب البريطاني يضم حوالي سبع مجموعات عرقية، وعلى هذا فالشعب مجموعة من الناس لها تاريخها الحضاري وتراثها المشترك ولكنها ليست بالضرورة متسلسلة بالمعنى الأحيائي (البيولوجي) .

أما لفظة أمة Nation فتميز مجموعة من الناس تعيش في وطن معين ، لها تقاليدها القديمة ومصالحها المشتركة . وهي كلمة حديثة نسبياً تدل على شعب أو أكثر يرتبط أفراده بعضهم بالبعض الآخر برباط التاريخ والتقاليد المشتركة واللغة وأحياناً الدين والجوار الجغرافي أو يرتبط بعضهم بالبعض الآخر بالتقارب الحضاري والثقافي ويشتركون في آلام وآمال واحدة بغض النظر عن أصولهم

(١) Marc-R. Sauter : Les Races de l'Europe. Payot. 1952. p. 12

الاحيائية المختلفة كالأمة العربية مثلا . إن الأمة العربية واحدة ولكنها تضم شعوبا عربية عديدة .

هذا « وتختلف الدول من حيث تجانسها الاتنوغرافي Homogenity وهذا التكوين قد يكون بسيطاً ، وقد يكون ملتئماً Segmented وقد يكون مركباً. أما التكوين البسيط فهو الذي لايلحظ فيه الغريب أي تنافر اتنوغرافي في الشعب الذي يكون الدولة ، فالمصريون مثلاً متجانسون أتم تجانس ،رغم تعدد المجموعات العرقية التي دخلت في تكوينهم،اذ استطاعت البيئة المصرية ـ على مدى القرون والأجيال ـ أن تتمثل جميع العناصر التي دخلتها ،بحيث أصبحت جميعاً مصرية .

ويتمثل التكوين الملتئم في جمهوريات العالم الجديد . إذ أن من السهل التعرف على عناصر السكان المختلفة دون عناء كبير ، في أي وحدة سياسية فيه وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية أقرب هذه الوحدات الى التجانس العنصري باستثناء الزنوج ، اذ استطاعت ، بفرض لغة واحدة على المهاجرين اليها،تكوين شخصية أمريكية خاصة بها .

أما التكوين المركب فلا يميز الا الدول التي لم تنضج قومياً بعد . وهذا التكوين يشبه تكوين العناصر التي لم يمتزج بعد ، بعضها ببعضها الاخر ، يحتفظ كل منها بشخصيته الثقافية بل وولائه القومي ، ومن ثم كان هذا التكوين مصدر ضعف الدولة ، ومن ثم كانت أيضاً المشكلة التي أطلق عليها اسم مشكلة الأقليات ..!

---

(١) الجغرافية السياسية - دولت . غلاب ، دناصوري ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

هنالك حقيقة يجب أن لاتغرب عن أذهاننا وهي أن أي شعب من شعوب العالم مكون من تضافر عدة سلالات ومن امتزاج وتداخـل صفات متعددة . لذلك فان مشكلة الأقليات القائمة على أساس عنصري (سلالي) لا توجد الا حيث تعيش معاً في دولة واحدة جماعات من سلالات مختلفة يمكن التعرف عليها بسهولة ، ومن هنا كانت المشكلة السوداء في أمريكا ومشكلة الملونين في اتحاد جنوبي أفريقية .

هذا ولا تتم دراسة الدولة من الناحية الاتنوغرافية مالم نخصص كلمة عن اللغة والدين .

فاللغة هي من أهم المقومات الثقافية للأمة ، إذ انها وسيلة للتعبير تعطي صورة عن عقلية الأمة التي تتحدث بها . وينشأ عادة بين الشعوب التي تتـكلم لغة واحدة نوع من التعاطف والود رغم بعد أصولها واختلافها . هذا وكانت وسيلة النبي محمد ﷺ في توحيد أمة العرب أن جمعها حول لهجة واحدة هي لهجة قريش لغة القرآن الكريم . ولا تزال اللغة العربية اقوى رباط يجمع بين شعوب العرب ويجعلهم أمة واحدة تمتد أراضيها من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي . ويعتبر الحاجز اللغوي من أهم الحواجز التي تفصل الشعوب بعضها عن بعض . ولا ريب أن وحدة اللغة هي العامل الأول في وجود الأمة البريطانية ، رغم تعدد أصولها وعناصرها وتعدد لغاتها في الزمن القـديم . وإن تغلب اللغة الانـكليزية على المهاجرين الأوروبيين الى امريكا الشمالية هو الذي كوّن في نهاية الأمر مايسمى بالأمة الامريكية . والحدود التي تفصل الولايات المتحـدة

عن المكسيك حدود لغوية ، تفصل بالحقيقة بين المتكلمين بالانكليزية شمالا والمتكلمين بالاسبانية جنوباً .

هذا وليس من الضروري أن يتكلم كل رعايا الدولة لغة واحدة (الهند فيها اكثر من ٢٠٠ لهجة مختلفة) ، بل أن بعض الدول قد اعترفت بوجودا كثر من لغة رسمية واحدة فيها ، ففي اتحاد جنوب افريقية تعتبر لغة البوير (وهي لغة هولندية قديمة) لغة رسمية الى جانب اللغة الانكليزية ، كما تعتبر الفرنسية رسمية الى جانب الانكليزية في كندا . أما في سويسرا فتوجد أربع لغات رسمية هي الفرنسية والالمانية والايطالية والرومانسية .

وأما الدين فهو أيضاً عامل هام في بناء المجتمع وهنالك دول في العالم قامت على أساس ديني ، فدولة الفاتيكان قامت على اساس الدين المسيحي ، ودولة باكستان قامت على أساس الدين الاسلامي وهناك محاولة لتأسيس دولة اسرائيل على اساس الدين اليهودي .

ولا تستطيع الجغرافية السياسية أن تهمل العاطفة الدينية لان أثرها يمتد عبر الحدود السياسية المرسومة للدول . فمما لاشك فيه أن هناك عاطفة قوية تربط دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية اللاتينية بالدول الكاثوليكية في أوروبا . وللبابا نفوذ سياسي أكيد على كثير من الدول الكاثوليكية مما حدا ببعضها الى العمل على فصل الدولة عن الكنيسة مثل فرانسا .

وللاسلام قوة دينية سياسية كبيرة في العالم . وهو يجمع عن طريق العاطفة والثقافة الاسلاميتين قوميات عديدة (العربية والفارسية والتركية

والاندونوسية والباكستانية الخ ولذا راودت المفكرين المسلمين ولم تزل تراودهم فكرة انشاء وحدة اسلامية أو اتحاد يجمع شملهم .

هذا وليس من الضروري أن يدين كل سكان الدولة الواحدة بديانة واحدة أو بمذهب واحد ، وقد تدين الاغلبية العظمى بدين واحد ولكن توجد فيها أقليات طائفية ، وقد تنجم عن الاقليات الطائفية مشاكل لاتقل أهمية عن مشكلة الاقليات العنصرية . وتعتبر بولونيا من أكثر دول أوروبا تعقيداً من الناحية الدينية ، فالى جانب أغلبيتها الكاثوليكية يوجد فيها ١٢٪ من سكانها من الارثوذكس و ٢٪ من البروتستانت وكان ١٠٪ من سكانها من اليهود غير أن عدداً كبيراً من هؤلاء اليهود قد هاجر الى فلسطين خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية .

ب — الدولة من الناحية الديموغرافية :

من أهم العناصر التي تساهم في قوة الدولة سكانها الذين يقيمون صرحها ؛ ويقدمون الايدي العاملة التي تستثمر الارض ، وتعمل في المناجم والمصانع وتستغل الثروة الطبيعية في البلاد ، وتبني الحضارة والمدنية وتعمل على نشرها وتمد نشاطها الاقتصادي والثقافي الى خارج حدودها . فالسكان هم عماد الدولة ودرعها الواقي الذي يحمي البلاد ويدفع هجمات الاعداء .

تتفاوت الدول تفاوتا كبيراً من حيث عدد السكان ، فهنالك دول كبرى وفيرة السكان كالصين مثلا ودول أخرى قليلة عدد السكان ، ولكن أهمية السكان لاتتعلق فقط بالعدد المطلق انما تتعلق ايضاً بنسبة هذا العدد الى مساحة

الارض التي يشغلونها أي أنه يجب أن تؤخذ الكثافة الكيلومترية بعين الاعتبار فقد يكون العدد المطلق لسكان دولة ما كبيراً ولكنه يبدو قليلا اذا ما نسب الى مساحة الدولة الواسعة . وهنالك اقطار تشكو من قلة السكان ولذلك فهي لا تستطيع أن تستثمر كل مواردها، ومن الامثلة على ذلك كندا واستراليا فالكثافة الكيلومترية هي شخصان في الكم² في الدولة الاولى وشخص واحد في الدولة الثانية ، وذلك حسب احصاءات عام ١٩٥٩ . هنالك أيضاً دول ترتفع فيها الكثافة الى حدود عالية (تصل الى ٤٢٨ شخصاً في الكم² في اليابان مثلا) لذلك تزدحم الارض بالسكان وتعتبر هذه الكثافة عائقاً يحول دون تقدم الدولة اقتصادياً ودون ارتفاع مستوى المعيشة فيها لان عدد السكان يفوق الموارد الاقتصادية فعلا.

هذا وتجدر الاشارة الى أن مسألة الازدحام مسألة نسبية وموقتة تتغير بتغير الاحوال الاقتصادية والوضع الحضاري والمقدرة التكنيكية للسكان. فالصين كانت من الدول المزدحمة بالسكان عندما كان سكانها يعيشون من القطاع الزراعي فقط ، وعندما تستكمل الصين الشعبية مشروعاتها في التصنيع والانتاج فان ذلك سيخفف حتماً من ضغط السكان وستزول ظاهرة الازدحام النسبي . ويجب أن يكون توزيع السكان على الارض توزيعاً مناسباً ، ففي كثير من الاحيان يتجمع السكان في مناطق معينة وتبقى مساحات شاسعة شبه خاليه وبالتالي ضئيلة الاهمية من حيث قوتها الانتاجية .

غير أن العدد المطلق لسكان دولة من الدول لا يكفي لتقدير أهمية هؤلاء السكان ، بل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار حيويتهم أي قدرتهم على التوالد

والازدياد الطبيعي كما يجب أن يحسب عدد السنين التي يحتمل أن يعيشها كل مواطن لان طول العمر معناه ان الفرد يستطيع أن يساهم في الانتاج خلال فترة طويلة من حياته .

يجب كذلك معرفة نسبة الرجال الى النساء في كل دولة ، ويمكن أن يكون ازدياد نسبة النساء على جانب كبير من الاهمية وخاصة في البلاد التي لم تدخل فيها المرأة بعد كل ميادين العمل والانتاج ، فازدياد عدد النساء في مثل هذه الدول معناه ازدياد الأفواه المستهلكة وزيادة العبء على الافراد المنتجين .

غير أن معرفة مجموع عدد سكان دولة من الدول ومعرفة نسبة الرجال والنساء فيها لاتشكل الا معرفة أولية لاقيمة لها إن لم تتمم بمعلومات أخرى تتعلق بتوزع السكان ، ذكوراً او أناثاً ، حسب فئات الأعمار ، لذلك تجدر بكل دولة أن تعرف تمام المعرفة توزع مواطنيها حسب الأعمار لأن ذلك يساعد على حصر القادرين على العمل والانتاج والعاجزين عنهما ، والقادرين على حمل السلاح والمكلفين بدفع الضرائب ومن لهم حق الاشتراك في الانتخابات العامة ... الخ ومن الضروري أيضاً معرفة توزع السكان على الفعاليات الاقتصادية المختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة الخ .

إن عدد السكان وحيويتهم في دولة من الدول عاملان هامان يساهمان في تحديد مركز الدولة السياسي في العالم وقد علل بعض المؤرخين انهيار فينيقيا وهزيمة قرطاجة في القرن الرابع قبل الميلاد بقلة عدد السكان وعدم ازدياد عددهم ازدياداً سريعاً تجاه الشعوب اللاتينية الناهضة ، وهناك من يعلل

انهيار الامبراطورية الرومانية أمام البرابرة بتناقص عدد الرومان بفعل اوبئة الملاريا وانغماسهم في الترف .

هذا وترتبط فكرة المجال الحيوي في دولة ما بفكرة تزايد السكان وارتفاع الكثافة الكيلو مترية فيها ، فالدول ذات الكثافة الكبيرة تبحث عن مناطق قليلة السكان تستطيع أن تستقبل عدداً من مواطنيها فيخف الضغط الديموغرافي داخل الدولة نفسها . وكانت أوروبا قد وجدت مجالها الحيوي في أجزاء العالم الجديد بعد أن تمت الاكتشافات الجغرافية الكبرى · وكانت المانيا تدعي دائماً أن مجالها الحيوي هو منطقة اوروبا الشرقية وقد نجم عن هذا الادعاء اضطرابات سياسية بل وحروب عالمية .

٤ ـ الاسس الاقتصادية

في الواقع لاتكفي سعة الارض ولا كثرة عدد السكان في دولة من الدول حتى تحتل مكانة عالمية هامة ، ان أهمية كل دولة انما تبدو بنشاط مواطنيها في استغلال مختلف الموارد والثروات الموجودة في أرضهم وفي التنظيم الذي حققوه في ميدان الانتاج والاستهلاك ، وبتعبير آخر تبدو أهمية الدولة باقتصادها ونظامها الذي يحدد علاقاتها مع الدول الاخرى . فهنالك دول تتبع سياسة الاكتفاء الذاتي وأخرى لاتستطيع أن تعيش إلا اذا اتبعت سياسة التبادل الحر على أوسع نطاق ·

ومعرفة القيمة الاقتصادية لدولة من الدول لاتعني فقط معرفة ماتملكه من ثروات طبيعية ومحاصيل بل يدخل الى جانب ذلك العامل البشري أي فعالية

السكان والموقع الجغرافي و الصفات التقليدية الاصيلة والمكتسبة للامة ، ومن أهم الثروات الطبيعية :

١ً — مصادر القدرة التي تعد من العناصر الاساسية في التقدم الاقتصادي فهي التي تدير المصانع الحديثة وتسير وسائل النقل المختلفة كما يعتمد عليها في التدفئة وتوليد الطاقة الحرورية الضرورية في الانتاج والاستهلاك المنزلي .

ومصادر القوة المحركة عديدة أهمها الفحم والغاز والبترول والكهرباء واضيف اليها الآن القدرة النووية .

٢ً — المعادن : تتميز الحضارة الصناعية في الفترة التاريخية التي نحياها بحاجتها الى عدد كبير من المعادن أهمها الحديد، والدولة التي لا تملك مقادير وافرة منه أو ليس لديها القوة الشرائية للحصول على حاجتها منه لأوزن لها بين الامم القوية.

والى جانب الحديد ، يجب أن يتوفر لدى الدولة انواع عديدة من المعادن الأخرى كالنحاس والرصاص والتوتياء والالمنيوم ... الخ لان لكل منها استعمالا خاصاً يزداد أهمية مع الزمن .

٣ً — المواد الاولية الصناعية : تحتاج الصناعة الحديثة الى مواد اولية كثيرة كالكاوتشوك والاخشاب والالياف النسيجية الحيوانية والنباتية كالحرير والقطن والكتان والقنب والجوت ... الخ .

٤ً — المواد الغذائية : هي أهم الاسس الاقتصادية جميعاً وقد أصبح لها قيمة سياسية كبيرة بعد الثورة الصناعية . لقد تحول كثير من مناطق العالم من الانتاج الزراعي الى الانتاج الصناعي واضطرت المناطق التي أصبحت صناعية الى استيراد حاجة عمالها من المواد الغذائية من المناطق المنتجة لها .

وقد كان عجز كثير من الدول عن توفير المواد الغذائية الضرورية للشعوب والجماعات التي تعيش داخل أراضيها سبباً في اثارة القلاقل والاضطرابات الكثيرة التي عرفها التاريخ في عصوره المختلفة وخاصة في البلاد الآسيوية كالهند والصين والتركستان ، كما كانت سبباً في هجرة الجماعات البشرية من قلب القارة الآسيوية على شكل موجات متدفقة واتجاهها شرقاً نحو بلاد الصين وغرباً نحو أوروبا لكي تجد حاجتها من الغذاء .

وأهم المواد الغذائية التي يتألف منها طعام الانسان هي الحبوب ، والنباتات الزيتية والفواكه والخضار ، والالبان واللحوم المختلفة والمواد السكرية والمواد الكمالية كالتوابل والشاي والقهوة .

٥ — الصناعة : تعتبر الصناعة أهم ظاهرة اقتصادية تميز الدولة الحديثة ولا توجد دوله كبيرة واحدة في العالم اليوم بدون صناعة ، يعتبر نمو الصناعة من جملة العوامل التي يعتمد عليها عند تقسيم دول العالم الى دول متقدمة اقتصاديا واخرى متخلفة في الميدان الاقتصادى .

فالدول الصناعية الكبرى هي التي تتزعم اليوم وتقود سياسة العالم .

٦ — طرق المواصلات : تلعب طرق المواصلات دوراً هاما في حياة الدول لانها تربط مختلف اجزائها بعضها ببعض وتسهل بالتالي استتباب الامن فيها ، كما أنها عامل أساسي في توسيع التبادل التجارى بين أجزاء الدولة الواحدة وبينها وبين الدول الاخرى .

٣ — الدول والحدود السياسية :

لكل دولة حديثة بالضرورة حدود تفصلها عن الدول المجاورة لها . ولهذه

الحدود قدسية خاصة تكفلها المعاهدات والمواثيق الدولية . ليست خطوط الحدود في الواقع كما تبينها الخرائط السياسية إلا حدوداً اصطناعية ، وفكرة رسمها وتحديدها على الارض ليست الا حدثاً جديداً في العلاقات الدولية لم تكن معروفة قبل قرنين من الزمان ، بل ان جوازات السفر وما يلازمها من اجراءات السفر والتنقل من دولة الى اخرى لم تكن معروفة حتى القرن التاسع عشر .

« لم تعرف الدول قديماً خطوطاً تحددها ، ولكنها كانت تعرف اقاليم حدود او تخوم ولم يكن يهمها من هذه الاقاليم الا نقطاً معينة تنفذ من خلالها التجارة ، وتقام عندها محطات جبي المكوس والضرائب وكانت امثال هذه النقط تعرف بالثغور . ايام الدولة الاسلامية في القرون الوسطى وكانت الدولة تكتفي بتحصين هذه الثغور وكانت الامبراطورية الرومانيـة تهتم بأقاليم التخوم هذه ، وتربطها بداخلية الدولة بخطوط منتظمة من الطرق الرومانية المشهورة ، وكانت غالباً ما تقيم في اقاليم الحدود ولايات لها صفة عسكرية خاصة مثل ولاية البتراء في الأردن والنقب او ولايات الدانوب والراين . وكانت الدول قديما تشجع قيام دول اصطدام فيما بينها ، مثل دولة الغساسنة في شرق سورية (كانت تخضع لبيزنطة) ودولة المناذرة (في الحيرة) (تخضع لفارس) . بل لقد كانت هناك مناطق محايدة بأ كملها » !

ويمكن تقسيم الحدود التي تفصل بين الدول الى ثلاثة انواع :

١ـ الحدود الطبيعية : اتخذ الناس في اول الامر الظاهرات الطبيعية كالجبال

---

(١) الجغرافيا السياسية - دولت - غلاب - وناصوري - ص ١٠١ .

والانهار والبحيرات حدوداً للفصل بين ممتلكاتهم لان تلك الظاهرات تشكل حواجز طبيعية تحول أو تعيق تقدم أو هجوم الجماعات البشرية . غير ان قيمة هذه الحدود اخذت تقل بالتدريج نتيجة تطور الحضارة وتقدم الوسائل التي يلجأ اليها الانسان في هجومه ودفاعه.

لقد تخلت الجغرافيا عن مفهوم الحدود الطبيعية ، والواقع ان هذه الحدود هي من عمل الانسان قبل كل شيء آخر . فالحدود السياسية بين الدول هي اذن اصطناعية ومع ذلك فقد تشكل الجبال بعض اجزائها كجبال البيرينة التي تفصل بين فرانسا واسبانيا . وقد تشكل الانهار جزءاً من الحدود ، كبحيرة ليمان أو جنيف بين سوريسرا وفرانسا وبحيرة كونستانس بين سويسرا والمانيا .

لاتعتمد الحدود السياسية بين الدول دائماً على الظاهرات الطبيعية ، إن الانسان هو الذي يخططها وهي طبعاً تتأثر بالتقاليد التاريخية للشعوب وبالاعتبارات السياسية وبالمطامع القومية . ان الحدود بين فرانسا وبلجيكا مثلا تعطي مثلاً واضحاً عن الحدود التي وضعها الانسان بنفسه، فهذه الحدود تخترق سهول الفلاندر والهينو Haineut وتجتاز انهار الايزر والليس والايسكو والسامبر وتشطر أحياناً القرى الى شطرين وكثيراً ما تتبع ساقية او شارعاً او دربا احياناً .

٢ً ـ **الحدود البشرية او الاتنوغرافية**: تختلف الجماعات البشرية بعضها عن بعض بلغاتها واديانها وعاداتها واشكال سكنها وانماط حياتها لذلك قد لايكون اختلاطها سهلا دائماً . وكثير من الاقليات تنفصل عما يجاورها من الاغلبية الساحقة بحدود اتنوغرافية واضحة وقد تكون بعض هذه الاقليات عاتية على

التمثل ، فالاقليات الصينية واليابانية في امريكا لم تذب في البوتقة الامريكية لذلك منعت قوانين الهجرة دخول افراد الشعوب الصفراء او المغولية الى بلادها .

غير أنه لاتوجد دول ذات خصائص اتنوغرافية متجانسة تماما تختلف عن صفات جاراتها بحيث يمكن تخطيط الحدود على اساس اتنوغرافي محض . وهذا معناه انه لايمكن تخطيط الحدود التي تفصل الشعوب تخطيطا دقيقا ، اذ المشاهد ان افراد الشعوب المتجاورة يعبرون الحدود في اماكن عديدة ويتسربون من احد الجانبين الى الجانب الآخر وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى صعوبة الفصل بين العناصر التي تنتمي الى شعب معين .

هذا وقد يدفع الطمع الدول القوية الكبرى الى ضم بعض المناطق الغنية اقتصادياً والواقعة بالقرب من حدودها الى اراضيها بالقوة اذا لزم الامر، حينئذ لاتؤخذ بعين الاعتبار الا المصالح الاقتصادية والحربية للدول الغالبة .

وكثيراً ماينجم عن تغيرات الحدود صعوبات كبيرة بالنسبة لسكان المناطق التي تكون موضع نزاع ومن اشهر الامثلة على ذلك منطقة الالزاس الواقعة بين فرانسا وألمانيا والتي خضعت لكل من فرانسا والمانيا عدة مرات خلال فترة قصيرة من الزمن .

٣ - **الحدود الهندسية** : - تمتاز هذه الحدود بأنها تكون على شكل خطوط مستقيمة ، وتجعل من الدول أشكالا هندسية منتظمة ، وتظهر عادة في مناطق الصحارى او الاقاليم الجديدة التي لم تعمر بعد . وتعتمد هذه الحدود الهندسية غالباً على خطوط الطول والعرض ، فالحدود بين كندا والولايات

المتحدة الممتدة بين ساحل المحيط الهادي والبحيرات الكبرى تسير مع خط عرض ٤٩ شمالا وعلى مسافة ١٣٠٠ ميل وتعتبر أطول حدود هندسية في العالم. إن الحدود التي تفصل بين الولايات التي اتحدت لتشكيل دولة الولايات المتحدة الأميركية وولايات استراليا هي حدود هندسية أيضاً. أما في افريقية فان الحدود التي تفصل بين مصر وليبيا وبين مصر والسودان فهي حدود هندسية أيضاً.

وفي الشرق العربي حدود هندسية ايضاً، فالحدود السورية العراقية، والأردنية السعودية كلها حدود هندسية وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وفي المعاهدات الدولية. ولا توجد عليها أي نوع من الخلافات لأنها لا تفصل بين قوميات مختلفة، فالبدو مثلا لا يعترفون بهذه الحدود، يتحركون ويتنقلون بحرية تامة ولا يعوقهم في ذلك عائق.

٤ : الامبراطوريات او توسع الدول الاقتصادي والسياسي

ان هذه الشبكة من الخطوط المنتظمة أي هذه الحدود التي تفصل بين الدول تقسم سطح الكرة الأرضية الى عدد من الامبراطوريات التي تؤلف في الواقع وحدات اقتصادية وسياسية كبرى كانت تسعى جاهدة للحفاظ على مناطق نفوذها وعلى توسيع هذه المناطق.

١ – غايات وأساليب التوسع : كان التوسع الامبراطوري نتيجة الثورة الصناعية وقدرتها الكبيرة على الانتاج وحاجتها الى المواد الأولية وبحثها عن أسواق التصدير المناسبة. وقد ساعد التوسع الامبراطوري أيضاً هذا التقدم التكنيكي الذي تحقق خلال القرن التاسع عشر والذي لم يكن على مستوى واحد

في جميع أنحاء العالم مما ادى الى اختلال التوازن بين مختلف القارات .

وكانت أوروبا نقطة الانطلاق ، فمن هذه القارة انطلق المهاجرون وانطلقت معهم رؤوس الأموال وكل الطرق التكنية التي حققوها في قارتهم ، وكانت نتيجة هذه الانطلاقة أن الشعوب البيضاء المهاجرة استولت على أجزاء كثيرة من العالم خاصة على العالم الجديد ، وحققت أوروبا لنفسها بالتالي سيطرة مباشرة عن طريق انشاء المستعمرات وسيطرة غير مباشرة عن طريق التفوق الاقتصادي . ولم يكن هذا التوسع من عمل الدول لوحدها ، بل ساهمت في ذلك شركات الملاحة والشركات الرأسمالية أمثال شركة جنوب افريقية البريطانية واتحاد شركات الكونغو العالمية .

غير أن حمى التوسع لم تلبث أن انتشرت عبر القارة الأوروبية الى الولايات المتحدة واليابان وظهرت في العالم عبارات وصيغ كانت ذرائع للتوسع مثل الرابطة السلافية والرابطة الأميركية والرابطة الجرمانية .

وكانت انكلترا هي الرائدة الأولى التي خطت الطريق أمام التوسع الأوروبي ، وقد تحولت انكلترا القديمة المسالمة التي كانت تأخذ بمبدأ التبادل الحر والتي كانت تعترف لمستعمراتها بالاستقلال الذاتي الى ماسمي ببريطانيا العظمى . وما لبثت أن أصبحت كلمة امبراطورية رمزاً لمطامعها واعطي لقب امبراطورة الهند الى الملكة فيكتوريا في عام ١٨٧٦ وهكذا غدت السياسة الاستعمارية (الامبريالية) حقيقة واقعة وكانت تتصف بانها سياسة عداء وتسلط . وكانت هذه السياسة ترتكز على العناصر الانكليزية التي كانت قد استقرت في كل من كندا وجنوب افريقية واستراليا ... الخ وكان يساعد بريطانيا على

المضي في سياستها هذه تفوقها في البحر ، لأن الملاحة البحرية كانت وحدها وسيلة المواصلات التي يمكن بواسطتها نقل عدد كبير من الأشخاص وكانت بريطانيا آنذاك تتفوق في هذا المضمار على الدول القارية مثل الولايات المتحدة وروسيا.

غير أن السياسة الاستعمارية التوسعية مالبثت ان انتقلت من بريطانيا الى الولايات المتحدة التي امتد نفوذها الى جزر هاواي وبورتوريكو وكوبا والفيليبين وبرزخ بناما، وكانت أسباب هذا التوسع اقتصادية بالدرجة الأولى فقد كانت الولايات المتحدة ترغب في شراء السكر والأرز والقطن بأسعار رخيصة كما كانت تود فتح أسواق تصل اليها حاصلاتها المعدة للبيع بدون رسوم جمركية . غير أن الولايات المتحدة مالبثت ان اتجهت بسياستها التوسعية اتجاهاً آخر ؛ لقد أرادت أن تبسط نفوذها على كل القارة الأميركية عن طريق ايجاد اتحاد اقتصادي وسياسي شامل فيها ، ومن هنا جاءت مؤتمرات واشنطن عام ١٨٨٩ ومكسيكو عام ١٩٠١ وريودو جانيرو عام ١٩٠٦ وبونس آيرس ، غير أن هذه المؤتمرات لم تعط أية نتيجة ايجابية .

وقد قابلت المانيا توسع بريطانيا الاستعماري وتوسع الولايات المتحدة في القارة الأمريكية ،قابلتهما بتوسعها الاقتصادي .فكانت تندفع بكل قواها للسيطرة على الاسواق الاجنبية ، وكانت الشركات التجارية الالمانية التي تسندها وتعضدها الدولة تعمد الى تخفيض اسعار بيع منتوجاتها وتعمد الى اغراق الاسواق بالطريقة المعروفة باسم دامبينغ Dumping . ويتطلب اغراق الاسواق الاجنبية وضع سعرين مختلفين للبضاعة الواحدة ، يكون السعر المرتفع نسبياً من أجل الاسواق الداخلية والسعر المنخفض من أجل الاسواق الخارجية .

وليست طريقة اغراق الاسواق الاجنبية بالبضائع الرخيصة من اختراع الالمان ، وكل مافعله الالمان هو أنهم طبقوها بشكل دقيق واستطاعوا بواسطتها القضاء على المنافسين بل انهم قضوا على الصناعات الوطنية الناشئة .

إن هذا التوسع الاقتصادي الالماني Weltwirtschaft الذي كان يعتمد على التفوق الصناعي والمزاحمة التجارية كان أحد أسباب قيام الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨) .

٢ ـ الامبراطوريات الاستعمارية والامبراطوريات القارية :

لقد أصابت الحرب العالمية الاولى البنية السياسية والاقتصادية للامبراطوريات الاستعمارية بتبدلات كبيرة ، وقد أفادت الامبراطوريات القارية من هذه التبدلات .

آ ـ الامبراطوريات الاستعمارية :

الامبراطورية الاستعمارية البريطانية أو رابطة الشعوب البريطانية : تضم الامبراطورية البريطانية الاستعمارية اراضي ذات مواقع مختلفة ؛ تتبعثر اجزاؤها المتعددة في مختلف المحيطات والقارات وعلى امتداد درجات العرض على سطح الكرة .

تزيد مساحة هذه الامبراطورية على ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ كم٢ من الاراضي ، بعضها ذات مساحة كبيرة مثل كندا (حوالي ١٠ ملايين كم٢) واستراليا (٧،٧٠٠،٠٠٠ كم٢) وبعضها مؤلف من جزر كبير مثل جزر الانتيل البريطانية (٥٥،٠٠٠ كم٢) ؛ كما تضم مواقع استراتيجية هامة كمستعمرة عدن يسكن هذه الامبراطورية الواسعة حوالي ٥٥٠ مليوناً من الاشخاص . أما الشعب

الانكليزي الحاكم لهذه الامبراطورية الواسعه فلا يبلغ عدده خمسين مليون نسمة ولا تتجاوز مساحة الارض التي يسكنونها ٢٣٠٠٠٠ كم٢ .

هذه الامبراطورية التي تعتبر اكبر امبراطورية عرفها التاريخ بقيت قائمة حتى الآن بفضل الاستقلال الذاتي الكامل الذى منح للعناصر الرئيسية التي تدخل في تكوينها مثل كندا واستراليا ، وأفريقية الجنوبية وزيلندة الجديدة والاتحاد الهندي ويطلق على هذه الدول عليها اسم دومنيون . وهذه الدول التابعة للتاج البريطاني مبعثرة في كافة انحاء العالم ، ويوجد بينها أربع دول سكانها من أصل بريطاني ومع ذلك فان صلاتها بأوروبا عامة وببريطانيا خاصة لا تزال في طريق التضاؤل .

لا تزال الوحدة المعنوية لكل أجزاء الامبراطوريه البريطانية قائمة بشكل كامل وقد برهنت الحرب العالمية الثانية على ذلك ، غيران العلاقات الاقتصادية بينها أصابها انحراف لغير صالح بريطانيا . كان يعتبر تبعثر أراضي الامبراطورية قديماً من أسباب قوة بريطانيا ولكن هذه البعثرة يمكنها أن تؤدي اليوم الى النزاع والشقاق .

ب - الامبراطوريات القارية :

على عكس الامبراطورية الاستعمارية البريطانية تشكل ولايات أمريكا الشمالية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي دولاً اتحادية ضمن قارة واحدة تتصل أراضيها ببعضها بشكل يسهل معه تعبئة كافة قواتها ومواردها الاقتصادية .

وتعتبر الولايات المتحدة احدى الدولتين الكبيرتين في العالم . وقد كانت

خلال حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ مستودع العالم الذي حارب دول المحور بفضل مافيها من ثروات ضخمة وبفضل ماحققته من تقدم صناعي كبير .

وقد ازدادت سيطرتها الأقتصادية على كل دول أمريكا الجنوبية، وتحكمت باقتصاديات الشرق الأدنى خاصه عن طريق شركات استثمار البترول وبسطت نفوذها الاقتصادي إلى ارخبيلات الجزر الموجودة في غرب المحيط الهادي والى جزر الفيلبين واليابان . وقد تسربت رؤوس الأموال الأميركية الى المشاريع الصناعية في كل البلاد التي كانت ظروفها مناسبة لذلك ،وتعمل الدعايةوالصحافة والسينما والراديو في سبيل تسهيل التوسع الاقتصادي وانتشار رؤوس الأموال. ويكثر الأميركيون من إقامة القواعد البحرية والجوية لضمان سلامة خطوط المواصلات التجارية والستراتيجية في المناطق التي امتد اليها نفوذهم .

أما اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية فيمتد من بحر البالطيك حتى المحيط الهادي ويتفوق على الولايات المتحدة من حيث المساحة وعدد السكان أما من الناحية الاقتصادية فان الاتحاد السوفيتي جاد في الوصول الى المستوى الذي وصلت اليه الولايات المتحدة ، وقد أخره عن اللحاق بها حتى الآن الأضرار والتخريبات البالغة التي تركتها الحرب في بلاده .

ولا يختلف تنظيم الاتحاد السوفيتي كثيراً عن تنظيم الولايات المتحدة ، لأن هذا التنظيم يعتمد على الاستقلال الثقافي والاداري لكل جمهورية اتحادية ولكن واقعاً مشتركا يحرك تلك الكتلة الضخمة المؤلفة من الجمهوريات المختلفة هذا الدافع هو قوة التوسع التي ورثتها عن روسيا القيصرية . فلقد سعت دولة

روسيا منذ البداية للبحث عن منافذ لها على العالم الخارجي ، وقد تابعت مساعيها بصورة مستمرة ومنظمة وساعدها في ذلك أن حدودها لم تكن مثقلة بأعباء التاريخ ، كانت حدوداً جديدة وخالية من السكان تقريباً في كثير من أجزائها . ولقد أوجدت روسيا منفذاً لها على المحيط المتجمد الشمالي عن طريق مرفأ اركانجلسك (في عهد ايفان الثالث) ثم فتح لها بطرس الاكبر منفذا على بحر البالطيك وأوجدت كاترينا الثانية منفذاً على البحر الأسود والمضائق، ثم فتح المحيط الهادي أمامها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا فان التوسع السوفيتي يبدو وكأنه نتيجة لدعوة روسية كانت قد بدأت منذ العهد القيصري .

ومن جهة أخرى فان الاقتصاد الاشتراكي المخطط هو بمثابة خميرة لكل الامكانيات الدفينة في كل الجمهوريات والأراضي التي يشملها الاتحاد السوفيتي . أضف الى ذلك أن العقيدة الاشتراكية تدفع السكان بقوة بالغة لتضعهم وجهاً لوجه أمام الاقتصاد الرأسمالي التقليدي في كل من أوروبا وأمريكا .

لقد استطاع النظام السوفيتي أن يجد لنفسه منطقتي نفوذ واسعتين أولاً في أوروبا الشرقية والوسطى حتى نهر الالب غرباً ثانياً في العالم الصيني شرقاً . وإن هذا التوسع ليس مجرد نمو بسيط .

وهكذا نجد أن الدول القوية الكبرى مهما اختلف نظامها رأسماليا كان أم اشتراكياً تعمل دوماً على التوسع وبسط نفوذها إما عن طريق المعونات الاقتصادية والقروض وإما عن طريق نشر مبادءها وعقيدتها وقد يكون

التوسع أحياناً كثيرة عن طريق السيطرة والقوة والاستعمار . وسنفرد للاستعمار بحثاً خاصا لما له من أهمية بالغة ومن آثار باقية انطبعت على وجه الأرض خلال الفترة الطويلة التي امتدت من القرن السابع عشر حتى اليوم .

* * *

الفصل السادس عشر

الاستعمار

دفع حب السيطرة والتوسع والثراء ببعض الأمم القوية الى احتلال المناطق الخالية من السكان او المكونة من قبل شعوب بدائية أو متأخرة أو ضعيفة بقوتها العسكرية لتعمل على استثمارها وعلى نشر حضارتها بالقوة أو باللين بين السكان . وقد أطلق على هذا النوع من التوسع والاستثمار اسم **الاستعمار** .

وقد اختلفت الغاية من الاستعمار حسب اختلاف الأشخاص والجماعات والدول وحسب الزمن ، فقد تكون الناحية الاقتصادية او السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية الأخلاقية هي الغاية الأساسية للاستعمار .

على أن الناحية الاقتصادية كانت في كل وقت أهم هذه الغايات جميعها ولم تعمد اكثر الشعوب الى الاستعمار الا لتحسين أسباب المعيشة لابنائها ورفع سوية حياتهم أو زيادة الثروة القومية . وذلك إما لأن المستعمرة أوفر خصباً من أرض الوطن الأصلي والحياة المادية فيها أهنأ وأسهل ، وإما لأن الوطن الأصلي بحاجة الى بعض المواد الأولية نباتية أو حيوانية او معدنية ولا يجدها الا في المستعمرة . وهذه الناحية في الاستعمار أخذت تزداد أهمية في العالم الحديث

الذي يتصف بالدرجة الأولى بوفرة الانتاج بسبب استعمال الآلة وبميل أكثر الدول لتكفي نفسها بنفسها . وهكذا ففي الوقت الذي بدأ يزداد الانتاج الصناعي أخذ الأفق التجاري بضيق في وجة الامم .

ولكي تستعيض الدول الصناعية الاوروبية عن زبائنهامن الاوروبيين الذين أخذوا يصنعون لأنفسهم ماهم بحاجة اليه عمدت تفتش عن سواهم بين الشعوب المتأخرة . على أن لحمى الأستعمار التي تفشت بين الدول الأوروبية الكبرى منذ منتصف القرن التاسع عشر أسباباً أخرى اهمها جلب المواد الغذائية لأطعام أبناء الشعب المستعمر الذي يتزايد بعدده وترتفع سوية معيشته أو جلب المواد الاولية التي تتطلبها الصناعة الكبرى .

ولا بد لهذه الضرورات الثلاث الكبرى : الاسواق التجارية والمواد الغذائية والمواد الاولية الصناعية من نتائج سياسية :

١ً — لجأت الدول العظمى الى سياسة امبراطورية مهاجمة وذلك لتحتفظ بمستعمراتها القديمة أو لتزيد في توسيعها .

٢ً — أخذت تفتش عن نقاط ذات أهمية استراتيجية في جميع أنحاء العالم لتراقب عن قرب ، المناطق التي لها فيها مصالح خاصة ، أو الطرق التي تصل هذه المناطق بالوطن الاصلي .

هذا والى جانب هذه الصفات الاقتصادية والسياسية التي يتصف بها تظهر أحيانا ناحيته الاخلاقية والاجتماعية ولكن تظهر قزمة هزيلة لا تتناسب مع الدعاية التي تقوم بها الدول المستعمرة لاقناع العالم بحسنات الاستعمار وضرورته

مدعيه أنه الطريق الرحيدة التي تستطيع أن توصل الشعوب البدائية المتأخرة الى درجة قريبة من الحضارة الاوروبية .

١ – الشروط الجغرافية للاستعمار :

للاستعمار علاقة مباشرة بالشروط الجغرافية المتعددة وذلك مهما تكن الغاية منه وذلك لان أفراد الشعب المستعمر المقيمين في المستعمرة يخضعون للوسط الطبيعي . ولهذا أخذ هؤلاء في بادىء الامر يفتشون عن أحسن المناطق التي تتلاءم مع طبيعتهم وأهملوا المناطق الاخرى ، ويأتي في رأس هذه الشروط الجغرافية المناخ وذلك لان المستعمرين وخاصة الاوروبيين منهم لايستطيعون الحياة والسكنى الدائمة في جميع المناطق ، لاسيما الحارة الرطبة . يأتي بالدرجة الثانية من الاهمية التضاريس وذلك لان الاستيلاء على البلاد ذات السهول الواسعة والسواحل الكثيرة التعاريج أسهل من احتلال المناطق الصعبة الوصول وذات التضاريس الجبلية المعيقة للمواصلات . ثم تأتي أهميه الموقع الجغرافي وله اكبر الأثر في تاريخ المستعمرة .

ويشتد التزاحم بين الدول المستعمرة على المناطق القريبة من الطرق التجارية ومن تيارات الحضارة . وللتربة أيضاً اهميتها الكبرى وقد كان الصراع قوياً بين الدول تتناسب شدته مع خصب تربة المستعمرة وصلاحها لمختلف الزراعات أو لما تكنه في أحشائها من ثروات معدنية هامة .

هذا وللوسط البشري أهمية ، بالنسبة للاستعمار ، لاتقل عن أهمية الوسط الطبيعي ، وذلك لان سكان المستعمرات يختلفون من حيث العنصر ونوع الحياة

ودرجة الحضارة مما يوجب على المستعمر أن يتبع سياسات مختلفة تتفق ونفسية السكان اذ لا يمكن بوجه من الوجوه أن نحكم شعوب أفريقية الشمالية مثلا بنفس الوسائل التي تحكم بها شعوب افريقية الوسطى أو الشعوب الاسترالية القديمة .

وتختلف أهلية الشعوب المتمدنة في استعمار الشعوب المتأخرة حسب قدرتها على تكييف سياستها وفق الظروف وطبيعة السكان ونوع الاستعمار ووفق الاستعداد الشخصي والاخلاقي للشعب المستعمِر .

٢ ـ الأنواع المختلفة للمستعمرات :

تختلف أشكال الاستعمار حسب الفائدة التي يجنيها المستعمِر من المستعمرة. وقد جرت العادة على تمييز ثلاثة أنواع من المستعمرات .

أ ـ مستعمرات السكن :

وهي المستعمرات ذات المناخ المشابه لمناخ بلد الشعب المستعمِر . فتعمل الدولة المستعمرة عندئذ ، على هجرة الفائض من سكانها الى هذه المنطقة ليقيموا فيها نهائياً ويعملوا على استثمارها .

وقد اتبع المستعمرون في مثل هذه المناطق طرقاً متعددة حسب الظروف وكثيراً ما عملوا على افناء السكان الاصليين وتقتيلهم ليحلوا محلهم كما فعل الاميركيون مع الهنود الحمر من سكان امريكا الاصليين ، أو ان اضطروهم على ترك اراضيهم والنزوح عنها بالقوة الى مناطق اخرى كما جرى في استراليا وكندا .

او انهم استعبدوا السكان الاصليين واجبروهم على العمل واستثمار الارض بعد أن وضعوا يدهم على القسم الأكبر منها كما كانت الحال في امريكا الاسبانية والبرتغالية .

او يعمد المستعمر احياناً الى جلب اليد العاملة بالقوة من مناطق اخرى ويجبرها على الاقامة في المستعمرة المراد زيادة عدد سكانها واستغلالها كما حدث في حكومات الولايات المتحدة (الجنوبية الشرقية) وفي جزر المارتينيك والغوادلوب .

اما في المستعمرات الوفيرة السكان فالمستعمر يسعى ليشترك مع سكان البلاد الاصليين في استغلال منابع الثروة على ان يكون له فيها « حصة الاسد » كما جرى سابقاً في بلاد شمال أفريقية العربية « تونس والجزائر والمغرب » .

٢ - مستعمرات الاستثمار :

هي المستعمرات ذات المناخ القاسي الذي لا يوافق طبيعة المستعمر . ولهذا يكتفي المستعمر في مثل هذه المناطق ، باستغلال ثرواتها من المواد الغذائية والمواد الاولية الصناعية ، كما تستخدم كسوق تجاري لاستهلاك البضائع والأدوات المصنوعة في بلاد المستعمر . ويقل عدد افراد المستعمرين في هذه المناطق ولكن على ضآلتهم يقبضون بايديهم على المراكز الحساسة في الادارة والاقتصاد ، كما كانت الحال في ساحل العاج وافريقية الاستوائية والهند الصينية والهند قبل أستقلالها .

٣ - المستعمرات التجارية :

اهمية هذه المستعمرات بموقعها الجغرافي الممتاز على طريق من الطرق التجارية الكبرى في العالم ، او لوجودها في جانب منطقة تابعة لدولة ثانيـة . وتستخدم هذه المستعمرة ليتسرب منها التأثير التجاري والنفوذ السياسي الى قلب الدول المجاورة .

وتعتبر المرافيء والجزر القريبة من القارات من المستعمرات التجارية كما تعتبر الصحارى مناطق تسرب للنفوذ السياسي والتأثير التجاري بالنسبة للبلدان المجاورة لها .

٣ - طرق تسرب الاستعمار :

كتب المجاهد الكبير « محي الدين القليبي » في المقدمة التي وضعها لترجمة كتاب « الاستعمار الفرنسي في افريقية السوداء » يصف المراحل المختلفـة التي يسلكها الاستعمار للتغلغل في البلاد التي يريد استعمارها ، فقال : « الاستعمار ابتدأ أشبه بمسابقة بين المغامرين من مكتشفي القارات والجهات المجهولة فيها ، وكان مظهره الاول التجارة والنخاسة وكان كل من اكتشف جهة استطاع استغلال مافيها ، وجمع حوله من أجل ذلك جماعة من المتمولين ليساعدوه ويشتركوا معه في استغلال ما اكتشف ، ثم يشارك في هـذا العمل بعض رجال الحكم بدافع الحصول على ارباح وفيرة ، وليستغل الآخرون نفوذه في الدولة لحماية مشروعهم وبذلك يكتسب المشروع الطابع الرسمي الدولي .

فاذا تجاوزنا رجل البحار ، الذي غامر فاكتشف منطقة من المناطق ، أو الباحث الجغرافي ، الذي توغل في مجاهل ذات جبال وغابات كثيفة ، أو ذات رمال صحراوية لوضع خريطة للارض أو تقرير عما فيها وعن سكانها ، اذا تجاوزنا هذين وجدنا وراء كل منهما اصحاب اموال ينفقون بسخاء على تنشيط الاكتشافات لاستثمارها فيما بعد . واذا بحثت في أوساط هؤلاء المتمولين وجدت بينهم رجال الحكم ، او سماسرة رجال الحكم ، الذين يريدون تدعيم المتمولين والمكتشفين بالنفوذ الحكومي الذي يملكونه ويقاسمون اصحاب المشروع الأرباح ثمناً لذلك النفوذ . ومن هنا يبتديء المشروع في اكتساء اللباس الرسمي واكتشاب الصبغة الحكومية .

ان اول ماتبدأ به العلاقات بين هؤلاء المكتشفين ومن وراءهم ، أي الخطوة التمهيدية للاستعمار ، هو التعرف على زعماء وكبراء الشعوب ، التي يراد استعمارها بزياراتهم والتردد عليهم واغداق الهدايا والتحف والاموال ، ان كانت الاموال تعرف فيما بينهم . فاذا تمتنت العلاقات طلبوا اليهم أن يسمحوا لهم بارتياد جهات معينة من الأماكن يسيطرون عليها ، وان يرفقوهم بحراس من اتباعهم يحفظون امنهم في هذه الرحلة . فتكتسي هذه الرحلة صبغة سياحية أو تكون رحلة صيد . ولكنها في الحقيقة رحلة بحث واكتشاف وتخطيط قد يكون فيها العالم الجغرافي والعالم الجيولوجي وغيرهما ولكن لايخلو منها الراهب والقسيس . تعاد هذه الرحلات وتتكرر ، ويتصل فيها افراد البعثة بأهل البلاد ، ويتحفون الصغار بالتحف ليستميلوا قلوب الكبار ، ويوزعون بين أفراد القبائل التي يزورونها العطورات والأقمشة ذات الألوان الزاهية، ويعالجون

بعض المرضى ، ويجلبون لهم الأدوية . . ولذلك يصبح سكان المجاهل هذه ، وحتى سكان العواصم ، وزعماء القبائل ، ولا يستثنى الملوك والأمراء، ينتظرون قدوم مثل هذه البعثات الاستكشافية التي يبعث بها في كل حين المكتشفون الأولون ومن وراءهم من مولي مشروع الاستغلال والاستثمار هذا الذي شرع فيه . واذا توطدت العلائق تظاهر بعض افراد هذه البعثات بالميل الى عقائد البلاد التي اكتشفوها أو يريدون استعمارها ؛ فتظاهروا باعتناقها ، ودخلوا فيها وتعلموا لغة القوم ، ودرسوا عوائدهم فاتخذوها عوائد لهم وتقاليد وبذلك حصل الانسجام الأول وابتدأ التغلغل في أحشاء البلاد من طرف هؤلاء الوافدين ، فانشأوا مراكز تجارية لبيع مصنوعات بلادهم وشراء المواد الخام بالثمن البخس ، ثم ينشأ الى جانب المركز التجاري مصح للعلاج المجاني واسعاف الفقراء بشيء من الطعام واللباس ، فهو مشروع خيري يبدو لانظار أهل البلاد الذين لاعهد لهم بمثل هذا ، وتقوم البعثات التبشيرية على هذه المشاريع . وقد تحدث مدارس ، ثم تنشأ المصارف المالية والبنوك لاقراض الاهالي ورهن ممتلكاتهم واغراقهم بالديون ذات الربا الفاحش التي تستنزف الثروات ، ومن هنا يبتدىء الاستيلاء على الارض. وعندما تتكون هذه المجموعة من المصالح الى جانب الرعايا الوافدين من بلاد المستعمر للعمل فيها يصبح وجود سلطان الدولة صاحبة المصالح امراً واجباً لامحيد عنه لحماية مصالحها وحفظ رعاياها . وهنا يختفي وجه البعثات ويظهر وجه الحكومة وراءه الجند والبوليس المسلح فيقع الاحتلال وينتزع الحكم من يد الوطنيين ليوضع في يد المستعمرين .

ويصبح هنالك مصالح ورعايا يحميهم الموظفون من المستعمرين بالقوانين والتشريعات ويحميهم الجند والبوليس من بعد ذلك بالحديد والنار . ومن هنا يبتدىء الاستعمار في شكله السافر بالاستيلاء على البلاد واحتلالاما كنها ووضع اهاليها تحت القوة المسلحة ، والاستيلاء على مقاليد الحكم بالنفوذ واسعمال السلطة التشريعية لتدعيم الاستعمار واخضاع الأهالي وازلالهم وتفقيرهم وتجهيلهم. ثم يتبع ذلك الاستيلاء على الموارد الاقتصادية واحتكارها لفائدة الاستعمار واقصاء الأهالي عنها حتى يكون تحت ضغط الفقر اكبر عدد ممكن من اليد العاملة الرخيصة التي يعتمد عليها الاستعمار في توفير انتاجه وتضخيم ثرواته .

ولكي يأمن الاستعمار على نفسه ويضمن بقاءه وبقاء استغلاله ، وقد أزال حكومة البلاد وقضى على وحدة أهلها بالدس والتفرقة وبلبلة الأفكار ، فانه يلتفت الى العقيدة وهو يرى في وجود عقيدتهم سليمة في قلوبهم مايمكنهم من الاجتماع في يوم من الأيام للكفاح في سبيل البقاء واسترداد مافقد منهم . فهو يجمع قوته الآن لمحاربة العقيدة واجتثاثها من القلوب حتى تبقى هذه الأجساد بلا أرواح فهي ميتة ، وبلا مصباح فهي مظلمة قاتمة لاتهتدي السبيل وبذلك يستقر الاستعمار ويطمئن » .

٤ ـــ صلح الاستعمار :

بقيت عادة احتكار استثمار المستعمرة من قبل الدولة المستعمرة وفي صالحها فقط دون غيرها من الدول زمناً طويلا واطلق على نظام الاستثمار هذا اسم

صك الاستعمار ويرجع تاريخه الى الزمن الذي كانت تعود فيه السفن الاسبانية والبرتغالية حاملة من جزر الهند الشرقية الذهب والفضة . وكانت المعادن الثمينة في ذاك الزمن تؤمن لمقتنيها الأهمية الأولى في القضايا التجارية والسياسية والعسكرية في أوروبا .

وصك الاستعمار هذا انما هو في الحقيقة حلف ابرم عنوة بين شعوب قوية مسلحة ذات خبرة سياسية قديمة وبين سكان عزل بدائيين وأجبرت المستعمرات على اتباع قواعده الكثيرة . وتتلخص هذه القواعد بما يأتي :

١ - انتاج المستعمرة بمجموعة مخصص للدولة المستعمرة

ولهذا كانت أهمية المستعمرة متناسبة مع نوع انتاجها وكميته . فتزداد هذه الأهمية إذا كان الانتاج متمماً لمحاصيل الدولة المستعمرة لا مزاحماً لها . على أن لا يزيد الانتاج عن حاجة الاستهلاك . فلا تستطيع المستعمرة إذن أن تنتج إلا بمقدار ما تتطلب الدولة المستعمرة ، وليس لها حق في التفتيش عن أسواق تجارية لتصدر اليها انتاجها ، إنما التي هذا الحق على عاتق الدولة المستعمرة ؛ فهي التي تفتش عن أسواق التصدير ولها أن تتقاضى على ما تستطيع تصديره أجراً ثميناً .

٢ - يقابل هذا الحق واجب على الدولة المستعمرة بأن لا تستورد ما هي بحاجة اليه من المحاصيل إلا من ممتلكاتها .

غير أن هذا التعويض ظاهري فقط . لأن تحديد الكميات المستوردة ومراقبتها يعودان في الحقيقة الى الدولة المستعمرة نفسها . ولهذا فأهمية هذه

القاعدة نسبية اذا ماعرفنا أن الدولة المستعمرة لهاالحق بفرض الضريبةالجمركية التي تريدها على المواد التي تستوردها من مستعمراتها .

٣ً — لايحق للمستعمرة أن تنشىء المعامل على ارضها . كما لاتستطيع أن تستورد الأدوات المصنوعة الا من أسواق الدولة المستعمرة .

٤ً — للاسطول التجارى للدولة المستعمرة وحده حق الملاحة في مياه أو على شواطىء المستعمرة وفي نقل البضائع بين المستعمرات التابعة لهذه الدولة . يشكل هذا الاحتكار مصدراً جديداً من الأرباح يساعد الدولة المستعمرة على تحسين ميزانها التجاري وميزان المدفوعات ، كما يؤلف أيضاً تدبيراً قوياً تجاه تهريب البضائع الأجنبية ووصولها الى المستعمرة وبيعها .

كان لهذا النظام الذي يستعبد الشعوب لخدمة الدولة المستعمرة أسوأ الأثر على سكان هذه المستعمرات من غير أن يعود بفائدة كبيرة على الدولة . ولهذا اهملت الدول المستعمرة تطبيق مواده شيئاً فشيئاً بعد أن عملت به مدة قرون عديدة .

٥ — الشركات الاستعمارية :

قد تمنح الدول الاستعمارية بعض الشركات الرأسمالية ، دون غيرها من الشركات ، حق الاتجار مع مستعمرة من المستعمرات ، وتتألف هذه الشركات من عددمن الرأسماليين وكبار التجار وتمنح الشركة سلطةسياسية واسعة تعمل للتجارة وتنظيم المستعمرة وحكمها على أسس مشابهة للأسس التي رأيناها في صك الاستعمار . وهكذا فقد تشكلت منذ القديم في انكلترة وفرنسا وهولندة شركات باسم شركات الهند الشرقية وشركات الهند الغربية ، كما كانت الحال

في بعض المستعمرات الانكليزية كمستعمرة « نيجريا » ومستعمرة « افريقية الشرقية » و « روديزيا » . لقد كان لهذه الشركات فضل كبير في توسيع المستعمرات وتخفيف العبء الذي يثقل كاهل الدول الاستعمارية في مشاريع قد لا تنجح جميعها . غير أن اهتمام هذه الشركات كان موجهاً بالدرجة الأولى لجني اكبر ربح ممكن في اسرع وقت مهملة في سبيل ذلك كل اصلاح او تنظيم من شأنه رفع سوية حياة سكان المستعمرة .

كذلك هناك نوع آخر من هذه الشركات ، مجردة من النفوذ السياسي ولكنها اعطيت ، بواسطة الدولة المستعمرة ، مساحات شاسعة من الاراضي مقابل تعهدها ببعض الخدمات ، كتجفيف المستنقعات او جر مياه الشرب او الري ، او فتح بعض الطرقات الخ ...

وجد هـذا النوع من الاستغلال الوحيد الجانب في المستعمرات المخصصة للمساجين والمنفيين التي اوجدتها انكلترة في استراليا والتي دامت حتى عام ١٨٥٢ أو التي اقامتها فرنسا في كاليدونيا الجديدة ، ووجدت بصورة خاصة في جزيرة « جاوا » عندما وضع « نظام المزروعات » من قبل الهولندي « فان دربوخ Van der Bosch » . حيث اجبر سكان الجزيرة بالقوة على زراعة بعض الاصناف التي تحتاج اليها الصناعة الهولاندية بدلا من زراعة المواد الغذائية الضرورية لحياة سكان الجزيرة الكثيفة النفوس .

٦ - طرق الاستثمار الحديثة في المستعمرات :

لقد استبدلت الطرق الوحشية القاسية المستمدة من المفهوم القديم لصك الاستعمار الذي كانت أسسه قائمة على الاجرام وعلى مفهوم شريعة الغاب «الحق

للاقوى » وعلى الاستيلاء على الأرض واستخدام السكان في سبيل تأمين مصالح المستعمر مع احتقارهم وتجريدهم من كل الحقوق ؛ وحلت مكانها شيئاً فشيئاً سياسة جديدة مبنية على التعاون الظاهري بين الدول المستعمرة والمستعمرة الخاضعة . وقد تمشت على هذه السياسة جميع الدول الاستعمارية باستثناء اسبانيا والبرتغال . وقد وصف احد كبار رجال الاستعمار في فرنسا « البير وسارو Albert Sarraut » هذه السياسة الجديدة بقوله : « هي سياسة استعمارية في مصلحة الدولة المستعمرة ومصلحة المستعمرة في آن واحد وقائمة على استغلال الارض واستغلال الانسان معاً » قامت هذه الطريقة الجديدة على اقطاع المهاجرين المستعمرين مجاناً مساحات من اطيب الاراضي لاستغلالها . وعملت من الناحية الاقتصادية على توسيع الثروة الاستعمارية باستغلال منظم علمي ، فأدخلت أصنافاً جديدة من المزروعات والمواشي التي تصلح زراعتها وتربيتها في المستعمرة. وباشرت باستغلال جميع المناجم المعدنية ، ولهذا اخذت الدول الاستعمارية في انشاء مراكز التجارب الزراعية وتأسيس المخابر ونشر الدعاية الاستعمارية بين ابناء الدولة المستعمرة لجلب اكبر عدد ممكن من الفنيين والاخصائيين وتوظيف « اضخم كمية من رأس المال لاستخدامها في استغلال المستعمرة . كما أنها تتابع الجهد لخلق جهاز اقتصادي كامل لبناء الطرق والموانيء وتمديد الخطوط الحديدية واصلاح الانهار للاستفادة منها في الملاحة والقيام بأعمال الري وتوليد القوى المحركة الكهربائية من شلالات الانهار الغزيرة . الى جانب هذا الاستغلال الاقتصادي الذي هو ، في الحقيقة ، في صالح المستعمرين انفسهم نرى استغلال الثروة البشرية واستخدامها في صالح المستعمر أيضاً . بدأت الدولة المستعمرة

بالعمل على استتباب الامن في جميع أرجاء المستعمرة وتحرير السكان من الرق ومكافحة الأمراض السارية بتأسيس المستشفيات .

كذلك عمل المستعمر على تعليم افراد قلائل من سكان المستعمرة في مدارس ابتدائية ومهنية ليتسنى له استخدامهم والافادة منهم في مشاريعه الاستعمارية . وفي تجنيدهم في فرق عسكرية خاصة لشن حروب استعمارية او للقضاء على كل حركة في المستعمرات يراد منها تحرير الوطن من ظل الاجنبي الغاشم .

٧ – السياسات الاستعمارية :

لقد اختلفت الخطوط الكبرى للسياسة المتبعة في المستعمرات حسب العصور أولا ، وحسب طبيعة الشعوب المستعمرة ثانياً . واذا تركنا جانباً السياسة الاستعمارية في العصور القديمة نجد اول تجربة استعمارية في القرن السابع عشر قامت بها الدولة الاسبانية في القارة الاميركية ، وكانت غايتها الأساسية غاية استثماريه صرفة . واهم الثروات التي كانت تتجه اليها انظار المستعمر هي المعادن الثمينة . وكانت القاعدة المتبعة في الاستعمار قائمة على القسوة والشدة والتعصب الوحشي . حتى انه لم يكن لسكان المستعمرات اية حرمة انسانية ، يعاملون كما تعامل الحيوانات . وكان يقتصر عمل المستعمر على جمع اكبر كمية ممكنة من المعادن الثمينة الموجودة في حيازة سكان البلاد المستعمَرة بأي واسطة كانت او حمل هؤلاء السكان على العمل في المناجم تحت تهديد السياط لاستخراج المعادن الثمينة . وقد ادت هذه السياسة الغاشمة المجرمة الى افقار المستعمرات والى نقصان مريع في عدد سكانها بسبب اعمال القسوة والقتل التي يقوم بها رجال الاستعمار . غير ان اسبانيا بعد ما اضاعت مستعمراتها

الامريكية لم تعد تعتبر بين الدول الاستعمارية لان مستعمراتها الافريقية ذات اهمية ضئيلة .

الى جانب الاستعمار الاسباني قام الاستعمار البرتغالي في نفس الوقت وكان يشابهه في سلوكه وغاياته . قام على الرق واستعباد الشعوب المستعمرة . وبعد الغاء الرق اطلق على العمال اسم المتطوعين الا ان المعاملة والنظام القديم لم يختلفا في شيء . والاستعمار البرتغالي حتى السنوات الاخيرة كان يتصف بالفوضى والفقر المدقع السائد في المستعمرات وفقدان أثر الحكومة وعدم الانصياع الى اوامرها حتى ان العناصر المنتجة من السكان كانت تهاجر الى البلاد المجاورة لتجد لنفسها عملاً . وكل شيء كان يدل على افلاس المشاريع الاستعمارية البرتغالية . غير ان التشريع الذي اقر عام ١٩٣٤ امم جميع هذه المشاريع الاقتصادية والاجتماعية وبعث روحاً جديدة من النظام والنشاط لم تعرف له المستعمرات البرتغالية مثيلا حتى اليوم . غير ان اساليب القمع الوحشية التي اتبعتها البرتغال في انغولا في الوقت الحاضر كالقتل الجماعي واحراق القرى وتجويع السكان بقصد ابادتهم يدل على ان الاسلوب الاستعماري القديم لم يزل ماثلا وقائماً حتى اليوم .

اما استعمار البوير في افريقية الجنوبية ، فقد قام على استعباد واستغلال القبائل الزنجية من « الهوتانتو Hottentots » و « الكافر Cafres » وامتلاك أراضيهم بالقوة ، وبما ان البوير متمسكون بالديانة البروتستانتية نجدهم يحرمون على أنفسهم سفك الدماء وابادة السود بالقوة ولكنهم يسمحون لانفسهم بأن يستخدموهم كأجراء وعبيد مع ابقائهم منعزلين عنهم تمام الانعزال في المدن

وفي الارياف ، ولا يحق لأحد من « الملونين » اي من غير العرق الابيض ان يضطلع بعمل اجتماعي هام او يمارس مهنة من المهن الحرة الرفيعة . وهذا التفريق العنصري لم يزل حتى اليوم على اشده في اتحاد جنوبي افريقية .

وكان الاستعمار في الكونغو البلجيكية الى عهد قريب يشابه الى حد بعيد من حيث الهمجية والشدة ما رأيناه في افريقية الجنوبية لاسيما عندما كانت الكونغو تدعى سياسياً « حكومة الكونغو المستقلة » ، تدار من قبل شركات رأسمالية همها الأول الكسب السريع بأية طريقة كانت . وقد سادت في هذه الفترة سياسة « السوط » المصنوع من جلد حصان البحر والعمل الاجباري والاستيلاء على المحاصيل بدون مقابل لاسيما محصول الكاوتشوك . وكان يقضى على كل مقاومة من قبل السكان ، لهذه السياسة المجرمة بحرق القرى وتقتيل أهلها وافنائهم عن بكرة أبيهم . فقامت الاحتجاجات تتوالى من قبل الدول الاوروبية باسم حرية التجارة ومن قبل الشعب البلجيكي نفسه باسم الانسانية . ولم تهدأ حركة تقتيل السكان السود هذه إلا بعد أن أُعلنت الكونغو مستعمرة بلجيكية خاضعة لرقابة « البرلمان » . وبدأت تصدر التشاريع المتوالية اعتباراً من عام (١٩١٠) لتخفيف نفوذ الشركات الرأسمالية وإصلاح نظام الضرائب الجائر وللاعتراف للسكان بحرية التصرف بانتاجهم الخاص . ولكن لابد من القول أن الاستعمار البلجيكي رغم ما ادخل عليه من تعديل واصلاح كان من أقسى انظمة الاستعمار وأشدها توغلا في الوحشية .

وقد سلك الاستعمار الفرنسي طريقاً خاصة قام على التدخل في حكم الشعب المستعمَر وفي السياسة الداخلية والعقائد السائدة مهملا في سبيل ذلك كل اصلاح

اقتصادي واستغلال لرفع سوية المستعمَرة . وكانت غايته من ذلك لاسيما في في مستعمرات السكن كالجزائر سابقاً هوضمها نهائياً الى فرنسا واعتبارهامقاطعة من المقاطعات الفرنسية وذلك بالعمل على القضاء على قومية السكان وعلى لغتهم وعاداتهم ودينهم ، وهذا لاشك شر أنواع الاستعمار جميعها .

وأخيراً يتميز الاستعمار الانكليزي باهتمامه بزيادة الثروة القوميةالانكليزية واستثمار المستعمرة بتجهيزها بالوسائل الاقتصادية الاساسية ، كفتح الطرقات وتمديد الخطوط الحديدية وبناء الموانىء الخ .. ولهذا بدأت باقطاع الشركات الرأسمالية مساحات واسعة من المستعمرات . وعلى هذه الشركات إدارةالمستعمرة من جميع نواحيها . فهي التي تعبيء الجيوش وتضرب العملة وتقيم العدل وتعقد المعاهدات التجارية والاقتصادية وتعتمد في الأزمات الشديدة على دعم الحكومة الانكليزية لها. وعندما تصل هذه المستعمرات الى درجة من النضج السياسي تتسلم الحكومة الانكليزية نفسها مهام الادارة فيها والاستعمار الانكليزي ، على عكس الاستعمار الفرنسي ، يجهد بأن يبتعد كل الابتعاد عن كل تدخل في شؤون المستعمرة الداخلية لايضر بمصالحه الأساسية . ولهذا فالمستعمرات الانكليزية ، لاسيما في افريقية ، تظهر بمظهر من الغنى والثروة لاتضاهيها به مستعمرات الدول الأخرى .

ومما يلاحظ في الاستعمار الانكليزي هو ابتعاد المستعمرين عن سكان البلاد الأصليين مع النظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء والتعالي . وهذا مايفسر نداء شاعر الهند « طاغور » عندما يقول مخاطباً الانكليز « اتضرع

اليكم بأن لا تقتصروا على ارسال الاتكم وادخال قوانينكم الينا فنحن بحاجة الى ارواح » .

٨ – التنظيم السياسي للمستعمرات

يمكن ان نميز اليوم بين اشكال عديدة من الأنظمة الاستعمارية :

١ – المستعمرة La Colonie

هي ارض تملكها الدولة المستعمِرة والحكم فيها مباشر من قبل هذه الدولة كما كانت حال الجزائر مثلا في شمال افريقية او حال الكونغو البلجيكية او السنغال . ومن المستعمرات ماهو تحت حكم دولتين استعماريتين في آن واحد كما هي الحال في جزر هبريد الجديدة المحكومة من قبل فرنسا وانكلترة معاً .

٢ – المحمية Le Protectorat

هي البلاد التي يحكمها حاكم محلي من سكانها له السلطة الاسمية فقط يساعده في الحكم موظفون محليون . غير ان الحاكم نفسه والموظفين المحليين جميعهم يخضعون ويسيرون وفق مشيئة المقيم العام ومعاونيه من أبناء الشعب المستعمِر . كما كانت الحال في تونس والمغرب سابقاً .

٣ – الدومينيون او المستعمرات المستقلة Les dominiones

سكان هذا النوع من المستعمرات من أصل أوروبي في اغلب الاحيان . تحكم المستعمرة نفسها بنفسها : لها مجلس نوابها ووزراء وموظفون . وليس للدولة

المستعمرة ما يمثلها إلا الحاكم العام وليس له عملياً سوى سلطة رمزية تمثيلية، كما هي الحال في كندا واستراليا وزيلندة الجديدة . وتعتبر الدومينيون مستقلة تمام الاستقلال بسياستها الداخلية والخارجية .

٤ — مناطق النفوذ les phéres d'influence

هي البلاد المستعمرة التي تملكها رسمياً دولة من الدول بموجب اتفاقات دولية غير أنها لم تحتل بأجمعها من قبل هذه الدولة كالصحراء الكبرى .

ويطلق أيضاً اسم منطقة النفوذ على كل منطقة من أرض دوله مستقلة نالت فيها إحدى الدول حق الافضلية في اقامة المشاريع الاقتصادية أو في احتلالها المحتمل. كما كانت الحال في المنطقة الشرقية لتايلاند المعتبرة منطقة نفوذ افرنسية بينما تعتبر المنطقة الغربية منها منطقة نفوذ انكليزية .

او كالمنطقة الشمالية من ايران المحاذية لبحر قزوين والمعتبرة منطقة نفوذ روسية ، بينما المنطقة الجنوبية على الخليج الفارسي هي منطقة نفوذ انكليزيه .

٥ — الانتداب Le mandat

هي البلاد التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية او المستعمرات الالمانية القديمة. والتي عهد بالوصاية عليها من قبل جمعية الامم، التي تأسست بعد الحرب العالمية الاولى، الى بعض الدول الكبرى المنتصرة مثل الامبراطورية البريطانية وفرنسا والولايات المتحدة واليابان واتحاد جنوبي افريقية .

وعلى الدولة المنتدبة ان تتقدم كل سنة الى مجلس جمعية الأمم بتقرير عن نتيجة الاعمال التي قامت بها في المنطقة الموضوعة تحت انتدابها . وعلى أن

لا تنفرد الدولة المنتدبة دون غيرها من الدول الداخلة في جمعية الامم بحقوق اقتصادية خاصة .

وللانتداب أنواع ثلاثة :

١ - الانتداب من الدرجة « آ » :

وهي البلاد المتمدنة المتقدمة بحضارتها والتي يستطيع سكانها الاشتراك بالحكم مع الدولة المنتدبة كسورية ولبنان والعراق وفلسطين والاردن سابقاً ، وعلى الحكومة المنتدبة أن توصل هذه البلاد الى الاستقلال التام الناجز عند بلوغها درجة « الرشد السياسي » . غير أن الدولة المنتدبة هي وحدها صاحبة الحق في تقدير ما اذا كانت البلاد الموضوعة تحت الانتداب وصلت الى درجة الرشد السياسي أم لا .

٢ - الانتداب من الدرجة « ب » :

هي البلاد التي يستطيع سكانها الاشتراك بالحكم ولكن بنسبة ضئيلة جداً ، كالمستعمرات الالمانية في افريقية : « افريقية الجنوبية الشرقية والكامرون » .

٣ - الانتداب من الدرجة « ج » :

هي المستعمرات الالمانية المتأخرة بحضارتها « كجزر المحيط الهادي وافريقية الجنوبية الغربية » . واعتبرت هذه البلاد كأنها جزء من مستعمرات الدولة المنتدبة مع بعض الشروط الطفيفة التي وضعت في صالح السكان كمنع الرق والكحول ومنع الاتجار بالسلاح ومنع العمل الاجباري للسكان .

ولايمكن لاكثر الدول الاستعمارية الا أن تغرق في اعتقادها ان سكان مستعمراتها قاصرون سياسياً عن حكم انفسهم بانفسهم . ولذا تعمد على ابقائهم تحت وصاية ورقابة دقيقتين .

هذا وان الدول الاستعمارية لتحذر أشد الحذر هذا العالم الصاخب الذي يختلف كل الاختلاف عن عالمها ولذا ترى من الحكمة ان تأخذ بيدها ادارة الحكم في المستعمرات حتى في دقائق الامور . ولكن كلما طال العهد بتجربة الاستعمار ، كلما ازددنا يقيناً ان هذا الحكم المباشر القائم في المستعمرة والذي يستمد تعاليمه من الحكومة المركزية ، انما هو حكم تحف به الصعوبات ويؤدي غالباً الى كارثة حقيقية بسبب بعد المستعمرات عن مركز الادارة وبسبب نوع الحياة الخاص فيها والذي يتطلب تطوراً دائماً حسب الظروف ولايمكن ذلك إلا اذا كانت السياسة الاستعمارية سياسة محلية تعالج في المستعمرة نفسها ومن قبل أبنائها أنفسهم . ومن هنا نشأ نضال بين قوتين مختلفتين متعاكستين ، قوة الدولة المستعمرة وهي قوة مركزية وقوة المستعمرة نفسها وهي قوة نابذة متباعدة عن المركز تطالب باستقلالها الذاتي .

ويظهر اليوم أن القوة المتباعدة عن المركز أخذت تتغلب على القوة المركزية في ميدان المبدأ على الأقل إن لم يكن ذلك في ميدان العمل والفعل . ويمكن القول إذا ما نظرنا الى الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى أن التوسع الاستعماري يلازم دوماً التوسع الاقتصادي وهما صنوان لا يفترقان فبريطانيا مثلاً لم تصبح دولة اقتصادية كبرى إلا بفضل امبراطوريتها الواسعة . كذلك هولندة رغم صغرها وضيق أرضها وقلة عدد سكانها نجدها كيف كانت تلعب

دوراً كبيراً هاماً في الحياة الاقتصادية العالمية بفضل امبراطوريتها الاستعمارية . كذلك نجد الدول الناشئة كاليابان والولايات المتحدة ، قبل الحرب العالمية الثانية ، درجت على طريق الاستعمار وذلك لما بدا لهذه الدول الحديثة أن توسعها الاقتصادي لتزويدها بالمواد الاولية الصناعية او لتصدير الادوات المصنوعة في معاملها لا يمكن تأمينه إلا عن طريق الاستعمار . وقل مثل ذلك في ايجاد أرض جديدة لهجرة سكانها (اليابان) . والولايات المتحدة اليوم تفكر وتنفذ عملياً نوعاً جديداً من الاستعمار الاقتصادي للعالم أجمع .

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

***